لوحة الغلاف للفنان الياباني ريوهي ماتسوموطو Ryohei Matsumoto Immigration, 2017

محمد الصفا

حافلة حمّادي

رواية

محمد الصفا

حافلة حمّادي

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد الصفا

حافلة حمّادي

رواية

مطبعة الأنوار الذهبية
AureaLumières Printing

2022

الكتاب: حافلة حمّادي

الكاتب: محمد الصفا

الصنف: رواية

تم الطبع والنشر ب:

مطبعة الأنوار الذهبية

AUREALUMIERES PRINTING

126، زنقة الشيخ شعيب الدكالي، خريبكة

الهاتف: 08 75 49 23 05

العنوان الإليكتروني: imprimerieaurea@gmail.com

رقم الإيداع القانوني: **2022MO3959**

الترقيم الدولي: IBSN : 978-9920-9771-7-3

عدد الصفحات: 420

القياس: 21x14,5

طبعة أكتوبر 2022

- لوحة الغلاف للفنان الياباني ريوهي ماتسوموطو Ryohei MATSUMOTO الذي رخّص مشكورًا باستعمالها على غلاف هذه الرواية.

جميع الحقوق محفوظة

© محمد الصفا

الإهداء

إلى عثمان

يا بني،
تذكّر جدّك دائمًا، إنك إن فعلت لن تنسى المكان.
ثم إن الأشياء القيّمة توجد على القمّة... لكن قيمتها يغيّرها الزمان.
يا بني، إن توَخّي قطف النجوم يستلزم إعمال العقل لتنويع أساليب الصعود.
تحرّك حتى تحافظ على توازنك لتستطيع مواجهة المتغيرات،
واثبت على المبدأ حتى لا تجرفك سيول العولمة فتخضع لدكتاتورية الشبكة.

تنبيه

بغض النظر عن حقيقة أسماء بعض الشخصيات والمواقع الواردة بهذه الرواية، وجبت الإشارة إلى أن الأحداث، والشخصيات، والمواقف، والمواقع التي تناولتها رواية "حافلة حمّادي"، هي خيالية.

وكل تشابه مع أحداث، وشخصيات، ومواقف، ومواقع حقيقية هو مجرد صدفة غير مقصودة.

1

كانت الشمس تستعد للانسحاب من سماء المدينة، فبدت كهارب في استحياء وخجل وهي تميل لمعانقة الأرض. صبغت خيوطُها المنسحبة ما حولها بلون الذهب قبل أن تغطس خلف الأفق، منح الغروب الفرصة لهبوب لطيف للريح المسائية على الشارع الكبير الممتد خلف الحي... اِستيقظت أغصان أشجار الزيتون التي تحتل الرصيف لتعلن عن ترقيتها غير الطبيعية إلى أغراس "حضرية".

يمد المرء عينيه فيرى الرصيف وقد استحال إلى غابة كثيفة من الأشجار "المباركة"، تجعله يطرح سؤالًا أنطولوجيًا حول ملكية أغراس الزيتون التي استُنبِتت على أرصفة المدينة.

كان المقهى الوحيد بذات الشارع شبه فارغ إلا من زبائن يُعدُّون على رؤوس الأصابع... مقهى بفضاء خارجي انتظمت كراسيه وطاولاته حد الطوار في تحد صريح لسلامة السير والجولان.

رغم ذلك، فقد ساهم المقهى في جمالية الشارع بكراسيه التي اختيرت بذوق يبدو رائعًا، وبطاولاته التي رُصت بفنية تغري بالجلوس.

كان ينتظرني... جلس إلى صينية معدنية عليها براد شاي يرافقه كأسان من زجاج "حياتي". وحيث أنه كان يداعب الغطاء/القبّة الذي يعلو البراد فقد فهمت أنه انتظرني مدة كافية سمحت لإبريق الشاي بنيل قسط وافر من البرودة.

أعلم أن مداعبته المستمرة للبراد ليست مجانية، فهو حين يشغل أصابعه بذلك إنما يوفر لنفسه فرصًا لمضاعفة الإدراك والاقتناع بأن تشكيل البراد يوازي طبيعة ومكونات شخصية أهل "بلاد الزيزفون"، هكذا يقول دائمًا.

اِلتحفتْ رأسُه بقبِّ جلبابه الخفيف ذي الخطوط العمودية البيضاء والسوداء. ما كنت لأتعرف عليه لو لم أكن أعلم عشقه لجلبابه... لم يسبق لي أن سألته عن دواعي عشقه ذاك.

جلست إليه، بالكاد رد التحية، بدا لي حزينًا على غير عادته، ومتوترًا، وقد علا القلق محيّاه وهو البشوش الذي تتميز تدخلاته ومرافعاته بالحياة. حاولت أن أمازحه كالعادة فلم أفلح. ألححت عليه في السؤال حتى يفصح عما به، لكنه عالجني بفكرة في طيها طلب، فكرة وجدتها شاردة تسللت إلى جلستنا بدون مناسبة أو توطئة.

قال:

- آهٍ، لو كنت تعلم يا صديقي كم أنا مهووس بمعرفة مكان الحقيقة في السياقات المتناقضة، لَما بخلتَ علي بدعمك في بحثي عن الأجوبة للأسئلة التي تقض مضجعي، بخصوص الازدواجية التي أعيشها على مستوى المكان والزمان.

قلتُ:

- السياقات المتناقضة، قضُّ المضجع، والازدواجية؟ يا للهول! أكنت تنتظرني لترميني بسهامك التي تناوش بها السائد مما هو متفق عليه اجتماعيًا وثقافيًا كعادتك؟

رد مبتسمًا قليلًا:

- هي مجرد أسئلة تروم مساءلة الواقع واستشراف المستقبل فحسب... لم تعد الأمور كما كنت أراها من قبل يا صديقي.

قلتُ مستفسرًا:

- أي واقع وأي أمور؟

أكد لي، وكمن رتب جوابه من قبل، أن قريته، مسقط رأسه ومهد طفولته، تسكنه على الدوام، وهي حاضرة بين دفاف دفاتره الجديدة، وهو يشك في كون رحيله من قريته ارتكز على قرار صحيح، وقال:

- لو كنت أعلم ما الذي خفت منه ودفع بي إلى الرحيل... ما كنت رحلت. لقد انتقلت من مكان إلى مكان، لكنني لست متأكدًا من أنني انتقلت من نسق إلى نسق.

اِلتزمت الصمت إزاء هذا البوح الهام، اكتفيت بالنظر في عينيه وكأنني أطلب منه أن يواصل. اِسترسل في حديثه موضحًا أن السياقات المتناقضة التي فاجأتني هي مرتبطة بمسقط رأسه. وفهمت بوضوح أنه لا يعلم إن كانت قريته تتوفر على الشروط التي تضمن الحد الأدنى للحياة.

قاطعته معلقًا على أنه ربما يقصد الحد الأدنى للعيش.

لكنه أصر وهو يوقع على أنه يقصد شروط الحياة... حيث زاد مستطردًا:

- حين يموت الأطفال هناك بتبعات حمى بسيطة... فهل تتعلق الصعوبة بالعيش أم بالحياة؟

لم أجد بدًّا من الاعتراف بأنه على حق. حسبتُ طرحه اكتمل لكنه زاد متسائلًا:

- قل لي يا صديقي، أهي أسباب تخلُّف وانقراض القرى الجبلية ثقافية؟ وهل هي تدفع، إن كانت كذلك، في اتجاه الإِعتماد على الاتكالية طمعًا في نشر عدالة اجتماعية من شأنها تثبيت الساكنة هناك؟ أم أن الأمر كما قال الأوّلون: "والله إلى ما قفْلْتِي لَا فوّرتِي"؟

لم يقف عند هذا الحد، بل زاد يسألني:

- قل لي يا صديقي، هل نحن جميعًا مسؤولون عما آل إليه الوضع، أم أن أهل "قرى الزيزفون" متهاونون، فيرمون بالمسؤولية على الظروف التي لم تنصفهم عوض الارتماء بين أحضان العمل الذي قد يكون مساعدَهم الوحيد لتثبيت أقدامهم هناك؟ ومن المسؤول عن غياب نموذج تنموي بعرض متنوع من شأنه أن يجعل الزيزفون يثمر؟

سكت طويلًا... ثم تابع، وقد صار واضحًا أنه يتحدث مع سبق التفكير والترتيب، قال:

- إذا تناولنا، مثلًا، وضعيتي كمهاجر انتقل من القرية إلى المدينة للتعلُّم بحثًا عن الترقية الاجتماعية، أليس من الأهمية أن أسائل نفسي اليوم... هل أنا سعيد بمكتسبات ترقيتي المادية؟ ثم لنفرض جدلًا أنني رحلت خوفًا من المجهول الذي يكتنف فضاء القرية، هل حققت راحة نفسي التي ذهبت أنشدها؟

قلتُ معلقًا:

- أراك فخورًا بموقعك الاعتباري، وسعيدًا بوضعيتك الاجتماعية والمادية، ولا أرى مدعاة لتساؤلاتك هذه. غيرت المكان فحلّت البركة، فاحمِد ربّك ولا ترهق عقلك بالتفكير.

رد كأنه غير مقتنع بما قُلت:

- ما رأيك في وضع رفاقي الذين درسوا معي بالقرية وبقوا هناك، هل تظنهم أقل سعادة مني؟ أم أن طابع الأعالي بحمرته التي تعلو خدودهم المكتنزة كعنوان للارتياح، والقناعة، والابتعاد عن القلق والتوتر، هو مجرد صباغة من فعل المناخ القاسية ظروفُه؟

قلت:

- أمرك لا يستقيم يا عزيزي، كيف تخاف على قريتك من الإِنقراض ثم تعجب بحياة أهلك هناك؟

ردّ قائلًا:

- الوضع ينذر فعلًا بالانقراض المحتوم. وبخصوص هذا الأمر، قل لي يا صديقي، كيف ينقرض المكان ولا يتغير النسق؟ هل يكون تصلُّب النسق إذًا من أسباب التخلف والانقراض؟

أجبتُ قائلًا:

- النسق يتغير حتمًا... لكن، هل أهلك قادرون على تغيير ما بأنفسهم؟

قد أكون استوعبت الإشكاليات التي تؤرق صديقي، لكنني أعترف أنني لم أفهم الدواعي التي جعلته يفكر فجأة في الأمر بطريقة عميقة جعلت مزاجه ينقلب رأسًا على عقب.

من المؤكد أن صديقي لاحظ حيرتي، نظر إلي جيدًا وقال:

- أفهم أن تكون حائرًا بخصوص نظرتي الجديدة لأمور قد تراها تقادمت وصارت غير ذات أهمية، وأرى أنه من واجبي أن أطلعك على الأمر حتى تعينني على حمل ما ثقُل منه. لكن، قبل ذلك، عليك أن تعلم أن جدّي ما زال يسكنني، ويأبى المغادرة. يحملني جدّي في محاولة منه استدراجي للعودة بي إلى سجن الماضي، فتصيبني "الذاكرة النقمة". اِعلم، من فضلك يا صديقي، أنني، حين أتذكر، تحلق بي الذكريات عاليًا، تحملني إلى عالم التأمل، فأُصاب ب "الذاكرة النعمة". هي ازدواجية حاولت أن أُشفي نفسي منها بركوبي حافلة حمّادي.

إنها الهجرة... فلسفة ودواء.

لكن، سأخبرك كذلك يا صديقي، كيف تموت الحيتان من عضّات البرد، وكيف تنفق البطاريق من لسعات الثلج... ولا تهاجر.

لكل ذلك، قررت أن أقص عليك روايتي.

2

بعد يومين، جلسنا بنفس المقهى... ثم جلسنا هناك بعد ذلك مرّات عديدة. منذ الجلسة الأولى وهو يقص علي روايته، قال:

- سأقص عليك من حنايا صدري دقائق وحقائق من طفولتي البئيسة، ولا أراك تستطيع معي صبرًا لأن ما سأخبرك به هو على درجة من الغرابة قد لا يجيزها عقلك.

متضامنًا علقت على قراره قائلًا:

- قُصَّ علي يا صديقي، ستجدني إن شاء الله من المنتبهين.

رفع رأسه، ومد عينيه جهة الأفق المنظور وكأنه يريد أن يُريني شيئًا سيظهر فجأة... ثم بدأ يحكي...

قال:

- رنَّ هاتفي في ذلك اليوم، أَجبت:

- "أزول فْلَّاوْنْ"...

قَال الذي على الخط:

- أهلًا وسهلًا.

قلتُ:

- من معي على الخطّ؟

قال:

- أولم يقل لك صوتي شيئًا؟

قلتُ مؤكدًا:

- لا، لم يسبق لي سيدي أن سمعت هذا الصوت.

قال متعجبًا:

- قُلتَ هذا الصوت! ألهذه الدرجة نسيتني؟

قلت كمن يعتذر:

- الجو حار يا سيدي، وأعصابي هشة، ولا وقت لدي أضيعه بإخضاعي للجلوس إلى ركن التعارف.

قال يخبرني، كأنه لمس شبه تذمُّري:

- أنا الطفل مومـوح الذي كنتَه ...

أصابتني قشعريرة من الضحك وقلت:

- هل أصابك مس من الهوس يا هذا؟ موموح الذي كنتُه ما يزال معي أحمله ويحملني، هو أنا وأنا هو.

قال معترضًا:

- كلّا، بل تركتَه هنا بين الأحجار يوم ركبت حافلة حمَّادي.

قلت:

- بل هو على الدوام معي حيثما حللت وارتحلتُ.

قال غاضبًا:

- أَوَ لم تقل إنك حصاةٌ من هذا الجبل؟! ثم إني حسبتك تهوى تاحفورت، وتعشقها، وتتمنى أن تأتي إليها لملاقاتي... أليس العشق سفرًا من نفسك إلى نفسك؟

اِنقطع الخط فجأة.

اِسترسل صديقي في روايته ليجيب عن السؤال الذي بدا معلقًا بين شفتيه وأُذني، وقال:

- في البداية، حسبت الأمر مزحة من أحد رفاقي... لكن الحقيقة التي فرضت علي نفسها هي أن المكالمة مرت مرور الصعقة الكهربائية في جسمي، فوقفت مشدوهًا لا أفهم، كيف لي أن أنفي زعزعة المكالمة لنفسي التي تعشق تاحفورت حتى النخاع...

نعم، أنا حصاة من ذاك الجبل، هي حقيقة قلتُها وكتبتُها، هو كذلك واقع فرض علي مساءلة نفسي: أيكون تركي للطفل مومو ح هناك من دواعي عشقي لقريتي؟

بعد يومين، وأنا منهمك في تنقيح إحدى قصائدي الأمازيغية، رنَّ هاتفي دون أن يظهر اسم ورقم الذي يطلبني على الشاشة.

سألت عمّن معي؟ بالكاد وصل إلى طبلة أُذني اليسرى أنينُ مريض لا يقوى على الكلام ... سمعت صوتًا خافتًا يغالب ضعفه وهو يقول: "أنا الطفل موموح الذي كنتَه".

طلبتُ من صاحب الصوت أن يكُف عن إزعاجي برناته وزفراته، لكنه بعد الرنين والأنين جاء دور الطنين ليدُك أُذني دكًّا...

ما تردد ذهني وما خالجه ارتياب، الزفير زفير حيوان، وأكاد أجزم بأنه لحمار.

ردَّ الذي يدَّعي أنه أنا متهمًا إياي بأني مدَّع كذاب، مؤكدًا أنه الطفل الذي كنتُه وتركتُه يئِن تحت وطأة الصقيع.

حاولت أن أُفهِمه أن موموح الذي كنتُه أنساه الزمانُ المكانَ وما كان... لقد اختار الرحيل وانتهى الأمر. لكنه لم يكترث، كان همّه الوحيد هو أن يخبرني متأوّهًا ألمًا بأنه محمولٌ فوق حمارة "الجماعة"، وقد تعذَّر على موكبه الإسعافي المرور فوق شبه القنطرة الوحيدة على نهر "أمُورغُو" التي لم تعد صالحة... وهو لا يخال في شبه مَشفى المنطقة خيرًا وقد يجده مغلقًا، ثم إنه مركز يعاني هو الآخر من سوء أحواله الصحية.

واضحًا كنتُ، وأنا أؤكد له أنه لا علاقة لي بالجماعة وحمارتها، وبالقنطرة وهشاشتها، وبمشفاهم وإغلاقه، وبمرضه ودوائه؟

لكنه اعترض بشدة وهو يتعجب من عدم شعوري بالخجل مما قلته، ومن عدم مبالاتي، وعدم تضامني معه ولو بقلبي، وذلك أضعف التعاطف. هو يرى أنه ما من أحد يرضى بمثل هاته الوسيلة للاسعاف بخصوص حمله على حمارة وهو المريض... كما اعتبر أنني رضيت بذلك وما همَّني الأمر.

اِنقطع الخط فجأة... بسبب غياب التغطية.

بعد شهرين أو يزيد، أكون كاذبًا إن قلت لك إنني نسيت أمر المكالمات الغريبة، كان الوقت ساعة قيلولة... غفوتُ قليلًا حين رنَّ هاتفي ما تيسر من الرنات، نظرت في غفوتي إلى الشاشة، فما رأيت رقمًا أو اِسمًا، ففهمت أن لعبة المزاح لم تنته بعد... قلتُ:

- (تِيفَاوِينْ)...

بالكاد أسمع في عمق الخط صوتًا خافتًا نادى من دياجير الماضي السحيق، ليخبرني أنه يقف أمام المدرسة القديمة، يتفرج على العناكب ضربتْ على بابها، وترقص على جنائزية الألحان، وتبكي فرحًا بما كان.

أكدت له كالعادة أنه طلب الرقم الخطأ. لكنه قال مؤكدًا:

- بل أنا مومرح يا أبي... الطفلُ الذي كُنتَه وتركتَه، ها أنا أنظر عبر الزجاجات المكسورة الخاطر إلى قسمنا القديم، أرى ظلك جالسًا فوق الغُبار الكثيف الذي توسد طاولة بعينين تَرشَحان بمداد الذكرى.

قلتُ:

- كيف لك أن تنظر إلى شيء ما عاد قائمًا؟

رد قائلًا:

- هو صحيح... المدرسة الترابية ما عادت قائمة، لكن، لا تقل لي إنك نسيتها ونسيت شبه المدرسة التي كانت قبلها، ذلك البيت الترابي المُشرع مدخلُه على الهواء الطلق بدون باب ولا نوافذ، الفضاء الذي تم استصلاحه فصار أول مدرسة في تاريخ تاحفورت، بعد أن كان مسكنًا في ملكية أسرتنا، قبل أن يصير إسطبلًا لبهائم العائلة ومخزنًا لعلفها...

قلتُ:

- تلك قصص خلت، لن تفيدك في إقناعي بما تدّعيه.

قال المهاتف يستعطفني حتى أتذكّر:

- نعم، هي قصص خلت لكنها كانت، لو تذكرتَها فإنك ستتذكرني. ثم إنني لا أراك تستطيع نسيان أول سؤال واجهتَ به ذلك الرجل الطويل الذي جاءنا من "قرية" أَكْْلْزِيمْ يقال له "المُعْلِّيمْ"، حين دخل علينا بقسمنا الترابي الذي لم يُجهَّز بعد بالطاولات.

قلتُ:

- وكيف جلسنا لندرس بقسم غير مجهّز؟

قال الهاتف:

- جلسنا كما نجلس بـِ "لْمْسِيدْ" عند جدّنا الفقيه على أحصرة رمَلتها نساء تاحفورت.

قلتُ:

- وماذا كان السؤال الأول؟

قال يُذكرني:

- يظهر أنك نسيت، طلب منا المعلم أن نحفظ نشيده، يومها أكدتَ له أننا نعتقدُ أن نشيد الله هو كل شيء، وسألته هل يستقيم أن نحفظ نشيدًا آخر؟ ولم تمنعك المسطرة التي كان المعلم يهدد بها الهواءَ من أن تُخبره باعتزاز شديد أن جدَّنا الفقيه يعرف نشيد الله ويُتقنه...

ثم سألتَ المعلم مرة أخرى عن أَي نشيد آخر سيُغنّي لأصدقائنا الصغار؟ هل سيغني لهم أشياء جديدة لا يعرفها جدُّنا؟

قلتُ مستفسرًا:

- وبماذا رد المعلم؟

قال ساخرًا:

- "اِدّعى" المعلم المسكين أنه سيحكي لنا حكايات الخيال مما وراء الجبال، وقصصًا تتجاوز حدود السائد، ولا تخطر على البال.

قلتُ:

- أنا لا أفهم أن تتذكّر أنت كل هذا وأنساه أنا...

قال:

- أنت تتناسى... لا يمكنك أن تنسى كيف كنتَ تذهب إلى مدرستنا حافي القدمين، تمشي مترنحًا بالكاد تستطيع ساقاك النحيلتان حملك؟ أتتكر أنك كنت تلبس قميصًا واسعًا ترابيَّ اللون، مرقطًا بنقط سوداء تشهد على حضور البراغيث (تاكْذْوَارتْ)؟ هو قطعة واحدة من القماش الرديء كنت تحزِّمه بخيط صوفي متين.

ثم زاد قائلًا يواجهني:

- إياك أن تدعي أنك كنت تملك ملابس داخلية، الكل يعلم أن التبان لم يكن وقتها مألوفًا، ولا معروفًا بقريتنا، لم يكن لديك من اللباس سوى قميص للصيف، وجلباب لظروف البرد من نسج أُمّنا.

أبى إلا أن يفضحني حين أكد قائلًا:

- لا تقل لي إنك ما عدت تتذكر كيف كنا نتوارى عن الأنظار خلف جذع شجرة الزيتون المجاورة لبيت عائلتنا الترابي لقضاء حاجتنا كباقي أقراننا. من فضلك، لا تقل لي إنك نسيت كم كان قميصنا ملائمًا وكيف كنا نبحث بين جذور ملجئنا عن الأحجار الملساء، وكيف كانت الكلاب، في تنافس مع الدجاج، تقوم مباشرة بتنظيف المكان.

وطمعًا في أن أتذكره ذكرني بكل شيء...

ذكرني بخوفي الشديد الذي ما يزال يرافقه، ذكرني بفوبيا المدرسة ورهابها، ذكرني بخوفي من تبعات غياب المرحاض بالمدرسة، ذكرني بخوفي الذي تفاقم حين سمعت جدي يحث المعلم على تعذيبي (أنت اذبْح وَانا نسْلْخْ)، ذكرني بخوفي من الجلوس على الطاولة الأولى بين سندان الأصوات الرجالية لرفاقي (التلاميذ/كبار السن) والمواجهة المباشرة مع مسطرة المعلم المكعّبة.

ثم استرسل مسترجعًا كل دواعي خوفي الذي انتصر على ذكائي.

حتى إجاباتي الصحيحة على لوحة الحساب الذهني السريع لم تشفع لي ولم تُجنبني رقصات مسطرة المعلم فوق الرؤوس.

ولعله يقنعني، أبى إلا أن يذكرني كيف عشنا ظهور الجيل الثاني من بنايات مدرستنا الترابية. يجهش بالبكاء وهو يحكي:

- شَرُود بهَيَمان متردد، كذلك كنت مع رفاقك وقد غاب عنكم التفاعل مع السيد "السوماتي"، المُعلم الفاسي الذي لا يعرف اللغة الأمازيغية ...فعينوه ليدرّس ويعلِّم أطفالًا لا يعرفون اللغة العربية!

"اِكتمل بناء الأقسام الترابية وجيء يومئذ بالطاولات صفًّا صفًّا، فبهتتَ رغم أنها كانت من الخشب ...المادة المألوفة لدَيك، فصرت تتفحَّص أجزاء هذا الشيء الغريب الذي لم يسبق لك أن رأيته بالمسجد عند جدِّك "سِّي مَرزُوق" حيث كنت تجلس على الحصير مع صغارِ السِّن من المستمعين، كما أنك لم تكن تعرف من أَثاث الجلوس إلا" تَاجْرتِيلْتْ" أو"تْكَايْرتْ".

"شخص غريب عن القرية لا يعرف لغة أُم مومو‌ح يقال له "المُعلِّيم"، وأخشاب غريبة للجلوس بثقبين بهما محبرتين ولوحة

كبيرة سوداء ينظر إليها الجميع ويُكتب عليها بصلصال أَصلد شديد البياض، (آه على زمن المحبرة، يقال إن الدراسة انقرضت مع ذهاب المحبرة والرِيشَة). إن الأمر بقدر من الجدة والغرابة كبير، ما جعلك دائم التفكير قليل الانتباه ".

"كبُر خوفك وزاده هولًا عدم قدرتك على إيجاد حل لفكرة نزلت عليك كالصاعقة، لم تكن تستشير أحدًا قبل أن تذهب لقضاء حاجتك، كما أنك لا تعرف لغة المعلم حتى تستأذنه في الخروج لتبحث لك عن جذع شجرة... ملجئك الوحيد مَشتاك ومصيفك.

"كل شيء بالمدرسة يوحي بالخوف، صار الجو مهيبًا، فاهتاجت أفكارك، فتحولت من حيويتك الممراحة إلى طفل هَيوب مهيض الجناح."

"جلست فوق مقعد الطاولة وقد افتقدت أُمَّك، الوحيدة التي يمكنها مرافقة ومُواساة نفسك المكسورة... فاستقبحت هذا العجب العجاب المسمى المدرسة"؟!

ولعل الذكرى تنفعني، قال وهو يذكّرني:

- ها أنا أنظر إلى المدفأة القديمة لقسمنا الذي كان، ها هي بقايا الحطب الذي كنت تحمله إلى المدرسة في صباحات الأيام القارسة تكاد تكلمني لولا أن خنقتها برودة الرماد...

وزاد بنبرة في طيها اتهام صريح للمدرسة بكونها سببًا في محنة القرية حين حملتْ إليها بذور انقراضها المحتوم، قائلًا:

- لو لم تأتِ المدرسة إلى تاحفورتْ ما تعلمتَ وما ركبت حافلة حمّادي... وما رحل الآخرون. أن تتعلم هو أن يزيد وعيك... حينها، تطمع في حياة أفضل، فتطمح إلى تغيير المكان.

هل تُعتبر سعيًا صائبًا محاولتي إقناعه بأن طرحه، حين يتهم المدرسة باستقدام بذور انقراض القرية، هو تعِلّة غير صحيحة ومجرد ذريعة لا تفيد شيئًا؟ وهل يجدي نفعًا قولي له بأنه يهذي وبأنني واقف تحت الشمس ومعي ظلي؟

لكن، يبدو أن المتصل يتوفر على كثير من الجرأة وهو يقول بأنني أجانب الصواب حين أدعي أن لا مسؤولية للمدرسة فيما جرى، وبأنني لا أستحيِ حين أَقف تحت الشمس هناك حيث الدفء، وأتركه وحيدًا يناجي مدرستنا التي جمدها صقيع الإغلاق.

رغم أنني بذلت كل جهدي لإقناعه بأن المدرسة، في كل الأحوال، لا يمكن أن تكون سببًا في إفراغ القرية من الحياة، فإنني متأكد من أنه لم يكن يسمعني وأنا أقول بأن المدرسة هي التي حملت إلى القرية نشيد المدَنية، وبأنها السُّلم الذي تدرج عبره شباب تاحفورتْ إلى حياة أفضل...

لم يكن بإمكانه سماعي لأنه انخرط في طرح ما يعتقده حقيقة مطلقة قائلًا بصوته الطفولي الذي صار جهوَريًّا:

- أنت محام تترافع عن قضية خاسرة يا عزيزي موموح، كيف لا تكون المدرسة سببًا في الفراغ والإفراغ وهي التي لا تشبه بنايتُها دُور القرية؟ كيف لا تكون المدرسة شريكًا لحافلة حمّادي في اقتلاع الناس من محيطهم وهي التي أتت لتنشر ثقافات أخرى؟ كيف لا تكون المدرسة غريبة عنهم وهي التي لا تتكلّم لغتهم؟

ثم زاد قائلًا إنه ما زال يتذكر جيدًا ذلك اليوم الحزين الذي غادر فيه المدرسة باكيًا ليلتحق مسرعًا بأمّنا ليخبرها بأن ذلك

الشخص الغريب عن القرية الذي يُقال له "المُعلِّيمْ" قد أطلق اسمًا جديدًا على "تافوناسْتْ" حيث قال إنها بقرة.

يحكي كيف أكل الحزن قلبه وهو يقاوم رغبته في البكاء، حين تجرأ الغريب وقد التبس عليه الأمر، فطلب من الأطفال أن يؤيدوا كذبه وهو يدعى أن "تْغاطّْ" ما عادت للعائلة، بل صارت عنزة في ملكية "مْسْيُو سُوكَانْ."

بهدوء حذر بالكاد يُخفي عجزي عن الرد على طرحه القوي، حاولتُ أن أنكر عليه تناسيه ما جاءت به المدرسة من إيجابيات وهي التي نقلت أجيالًا من النوم العسير على الحصير إلى الاسترخاء والرقاد على السرير الوثير، وزدت قائلًا:

إنك بموقفك هذا تحط من قدر أهلك الرواد الذين استصدروا بكل مشاق الدنيا قرار استقدام المدرسة إلى قريتك، ثم إنك كرهت المدرسة لأن نفسك كانت تنزع إلى "مهنة الأنبياء"... راعي الأغنام.

رد على مقام الاحتجاج في تسلسل صوتي رفع من درجة عقيرته وقال غاضبًا:

- كيف تريدني ألا أحط من قدر المدرسة التي لم تشتغل قط على تكوين أبناء البلدة في أفق خدمة قريتهم؟ ألا تحتاج "مهنة الأنبياء" إلى إعداد خاص ينمي القطيع ويحقق إنتاجية تجعل تثبيت الساكنة ممكنًا؟

قلتُ:

- آلُو.. آلو...

قال مقاطعًا:

- لا تحاول قطع الخط، أنا لم أكمل بعد كلامي...

ثم يسألني كيف يكون معي ظلي وأنا صديق الشاعر الذي قال إن الظل لا يرحل؟! مؤكدًا أنه هو ظلي الذي لم يستطع الرحيل. يزيد قائلًا:

- أنا مومو ح الذي بقي هنا دون أن يختار البقاء... أنا اخترت فقط ألا أكبر، فبقي سني كما تركتني ورفضت أن يزيد عمري، وفضلت انتظار عودتك حتى نكبر معًا.

اِستيقظْت على صوت ابنتي نهاد تنبهني من نومي... وأنا أُدثّر على الذكرى.

3

مرة أخرى، جلسنا. بدا صديقي أقل قلقًا من المرة الأولى، وظهر عليه استعداد يكاد يكون حماسيًا لمتابعة سرد أحداث روايته.

جاء النادل، أسرع صديقي في تبليغه طلبية لشخصين دون استشارتي، اِنصرف النادل وكأنه لم يأت... فتابع صديقي السرد من حيث أنهاه في المرة الأخيرة وقال منتشيًا:

- ما عاد "الطفل مومورح" يستطيع مهاتفتي بعد أن وضعت رقمه على اللائحة السوداء... لكن المسكين تجشّم عناء السفر وجاءني في المنام.

دق باب رقادي، يصيح: (وَا تّا نُوضْ)، كيف ترقد عن ضيفك يا هذا؟ فواجهته متهمًا إياه بأنه مجرد حزن عشوائي جاء ليفتش بين ثنايا دفاتري القديمة؟

لكنه ركب جرأته مرة أخرى ليقول:

- يا طلاّع الثنايا، لقد مضى الوقت بسرعة... رفضتْ طفولتُك أن تكبر، لكنها تعبت في انتظار عودتك... فما عدت.

تساءلت مع نفسي عما يدري الغريب بانتظار طفولتي...

وكمن سمع محادثتي لنفسي أخذ يصف انتظاره الذي رسمتْ أشواقَه ذراتُ الغبار المتراكمة فوق سَقَط متاعي الذي تركتُه معه هناك، وما زال ينتظر... اِنتظار فرضته الانتظارية التي شابت كل شيء.

ورغم أني سألته إن كان هدفه من اتصالاته هو تذكيري بِآلامي التي عانيت من أَجل نسيانها، إلا أنه زاد مؤكدًا بأن الكل ينتظر... بقايا رواقِيد خالتي "ثْلُّو" وأجزاء خوابي أُمي "تْشْفَا" متناثرة ما تزال تأبى الاندثار وتهوى الانتظار... إناء صديقي "جَرمُون" (تْسَارْسْتْ) صامد هو الآخر يرفض الخضوع للتغيير... وحصير نومي (أَسِيطُوطْ) ما زال يطبق على رائحة تبولي اللاإِرادي ويستمتع بها في انتظار عودتي...

أمعنتُ في السؤال، اِستفسرته إن كان يجد صور آلامي القديمة ماتعة... وطلبت منه أن ينصرف عني فما أنا ممن تنزع نفسه إلى الماضي.

لكنه تمادى قائلًا بأنه كان يحسبني أعلم أن العذاب هو من دواعي السعادة، ويخالني أعي فرحة تامغارت يوم لفها البياض.

اِستيقظتُ على انسحاب الطيف وعلى رجة الباب المغلق بقوة.

بعد ذلك بساعات، وبعد نوم مضطرب... رنات خفيٌّ مصدرُها أضاءت وجه هاتفي... بلعت الطعم وأنا أفرك عيني وجازت علي الحيلة هذه المرة... أجبتُ.

قال الهاتف:

- (تْلِّيتْ دْ كَّ ّ ّ ُولْ)... إنك بالقلب، أنا مومُوح الذي كنتَه لكنك تُنكر معرفته ... لو لم تهاجر لَصرتَ راعيًا لأغنام القرية... أنا مومُوح الذي صيرك رجلًا قبل الأَوان، لكنك تُنكر علي وفائي...أنا ذاك الطفل الذي ما زال يسكنك أيها الرجل.

تملكني إحساس غريب حين عيرني بالراعي وهو يعلم أنه ما عاد بالقرية بهْمٌ... فذكرته بأن كل الأغنام أكلها الذئب، وقلت له كيف لي أن أَتذكره وأنا لم أكن طفلًا قطّ؟

أجهش بالبكاء وقال:

- أَنسِيتَ أم أعمتك أضواء أنت مَنْخُوٌّ بها؟ ما عاد الضوء يبهرني منذ تمت كهربة القرية، فلا تمش مرحًا، إنك لن تبلغ جبل "بُويْبْلَانَ" طولًا.

ومع أن صوته خانه حين أظهر عن بلوغ قلبه الحنجرة، فإن صاحبنا بدا مزهوًّا بكهربائه التي جاءت متأَخرة بعد أن رحل الجميع لتبقى "تْرْكَّو" المستفيدة الوحيدة من انقراض ظهرت بوادره... "تْرْكَّو" الغولة التي استوطنت الأطلال و"تِيزِيمْرْتْ إِيمْطْلَانْ" التي تهوى الرعي ليلًا بين القبور.

وعلى الرغم من اتهامه لي بأنني أنا من سهّلت اِحتلال "تْرْكَّو" المكان منذ أصدرتُ حكم الإفراغ في حق جدّي الذي كان يسكن عقلي، فإني حاولت تليين الحديث وأنا أقول له: "أتريدني أن أَعود إلى مكان يكاد ينقرض؟!"

أتراه لَان قلبُه، بعد أن ليّنتُ حديثي، حين قال: "الأمكنة لا تنقرِض أَبدًا". عُد، لنستمتع معًا بظل زيتونة جدِّك، "فالأشجار لا تهاجر".

قلتُ:

- مضطر لتوديعك... فبطارية هاتفي ضعيفة جدًّا.

قَال:

- بل بطارية الحنين بقلبك هي الفارغة... أيها العاقُّ.

ما فلَح القروي الصغير في الفِلاحة فَلاحَتَه في استعمال مجانية "الوَاتْسابْ"، اِمتهن إزعاجي في كل وقت وحين.

يهاتفني ليقص علي كيف أَسرى بِه البراق عبر الزمن الآتي، فرأى كما يرى النائم... رآني جالسًا أمام شاشة تُنطِق الأَلوانَ، وأنا أنعم بالدفء، وأزدرد اللحم، وأشرب من سعادة الأنابيب.

رغم أني أكدت له أن ما يقوله مجرد أضغاث أحلام، إلا أنه زاد يقول بأنني تركتُه يرعى مطارح صباي وذهبت أستبق زماني... وصار يسألني عما حملني على ذلك.

حاولت أن أُقنعه بأنني قد أكون تركت شيئًا مني هناك، وقد يكون الحنين ممسكًا بتلابيب قلبي... لكنني متيقن من أن "موموح الطفل" هو معي ما فارقته وما غادرني...

متصلب الرأي رد العنيد قائلًا:

- بل هو بطعم الغدر والخيانة...

أحسستُ أن الماء بلغ الرابية وعلاها، لقد أغضبني كلامه... فرددت عليه بعنف:

- أيها الخفيُّ الدعيُّ، أنت بالكاد تشتغل قيمًا على بيدر ما عاد يُثمر، وتعمل "زَمَّازاً" على ذُرَاوَة النّبت عند "تْرڭو" التي احتلت

المكان... نعم، أنا بقلبي نار، لكنك لست إطفائيًا، أنت مجرد سراب يسكن خراب شيء يقال له الزمن الجميل.

أجاب بهدوء:

- أنا الزمن الجميل الذي عشته يا ناكر الجميل...

ضحكت من وصفه الماضي بِ "الزمنِ الجميل" رغم أن الجميع يعلم أن ذلك الوصف مجرد خرافة... ثم إنه نسي أنني قلت له من قبل إِن طفولتي لم تكن قط من أجمل الأزمان.

اِنقطع الصوت فجأَة... إلا من أنغام ملأت علي مكتبي، عزف صادر عن آلة تشِم الورق بورشة الطباعة.

رميت هاتفي فوق مكتبي ونسيت ورشة الطباعة وأصوات آلاتها، وصرت أسائل نفسي حول ما يدعيه "الطفل مومِوح" الذي يقول إنني تركته هناك حيث ما يزال محتميًا بحضن الأعالي وبأخاديد القرية، وحول روايته بخصوص ركوبي حافلة حمّادي...

هل ركب موموحُ حقًّا حافلة حمَّادي ونسي كل شيء؟

كان صديقي يقص كمن يحدث نفسه وكأنني غير موجود، لم يكن ينظر إلي، بل لقيت نفسيته في السرد توافقًا حد الاندماج... فنسيني.

ثم استرسل في روايته، وقال: "بعد لأي، وأمام استحالة إيجاد أجوبة واضحة، اِرتأيت أن أخاطب مباشرة عبر الهاتف صنوي "بَاهِي" مرددًا قول الشاعر:

- أتصحُو أم فؤادُك غيرُ صاح *** عشيةَ همَّ صحبُك بالرواح.

سألتُ موموحَ الآخر مستفسرًا:

- قل لنا يا سليل الأعالي، أرَحل موموح فعلًا أَم أنه ما زال يراوح مكانه؟

رد موموح ابنُ "باهي" في الحين ضاحكًا: أنا صاحٍ يا صاح، موموحُ رحل... لكنه ما نسي وما تحوّل... وتاحفورتْ "بالعز أَطيبُ منزلِ".

ثم سألته إن كان قد ترك "موموحه" الطفل هناك عند الصخرة التي سقط عليها رأسه... فقال ابن "باهي":

- موموحي أنا حملته معي يوم ركبت حافلة حمّادي حتى لا أنسى... لكنني فتحت له بالصخرة المقدسة بابًا يستطيع وحده أن يطل منه على زمنه الذي يعتبره جميلًا، ووضبت له بعمق الصخرة خزانة يرتب فيها ذكرياته السعيدة والأليمة.

ثم طلبت من صديقي ابن "باهي" أن يؤكد لي هل سبق له أن أطل على خزانة "موموحه" وكيف وجد زمنه؟

ضحك مقهقهًا وقال:

- قلت لك أنا ما تركته، هو على الدوام معي، لكننا كلما زرنا الصخرة إلا وتحايل علي حتى يراها وحده، هو يملك القن السري ليفتح باب الصخرة وقت يشاء.

ألححت عليه حتى أعرف سبب تحايل "موموحه" عليه، فقال:

- إنه لا يريدني أن أطّلع على ذكرياته خشية أن أنفِر منها... فعقلي الباطن قد يسترجع من ذاكرة "الطفل موموح" بعضًا مما ترسب بها من الآلام والأحلام، هكذا يقول، هو يخاف أن أتذكر فأنساه.

كان بودي أن أتابع استجوابي لصديقي "باهي" وأسأله عن تأثير قدوم حافلة حمّادي على المنطقة... لكن الخط انقطع وانتهت المكالمة.

رغم ذلك، فهناك حقيقة لن ينكرها إلا جاحد... منذ حلول حافلة حمّادي بربوعنا اختل سكون تاحفورتْ... ثم إن الحافلة إياها لم تكن تحمل الألوان التي تلائم خصائص القرية التي تجسدها زرقة ماء "تامْدَا" والأخضر السرمدي لأوراق "إيديل" وذهبية أشعة الشمس الهاربة.

كيف يصمد هدوء القرية أمام ظهور أشياء ما أنزلت الثقافة المحلية بها من سلطان؟

لكن من حق كل مهتم أن يسأل عن سكون تاحفورت، هل كان حقيقيًّا قبل قدوم حافلة حمّادي؟ قد يكون وقتها ظاهريًّا بالكاد يخفي تحكم "لَالَّا مُولْ تَاقَّا"، وتمكُّن الفقهاء، وسطوة "البِيرُو"، وقهر الأخاديد، وضجيج محرك الشاحنة التي تنقل جذوع أشجار الأرز إلى المشرحة بمدينة "تيزي".

هل كان بإمكان أهل القرية ألا يرتبطوا عاطفيًّا ب"للّا مُولْ تاقَّا" التي آمنتهم من الخوف المنبعث من رمادية "إِصْفَّاحنْ"، ومن فيضانات النهر الذي يتوسط القرية؟

أم أن تمائم جدي هي التي فعلت بهم الأَفاعيل؟ لكن، كيف لا يتماهى القوم بتعاويذ جدي وهي التي أذهبت الأمراض والآلام عن أَطفالهم؟ كيف لا، وهم يؤمنون بأن تعليق حدوة بغلة جدي على أبوابهم من شأنه أن يجلب لهم الخير؟

أسئلة تفرض نفسها علي رغم أنني أعلم جيدًا أن حافلة حمّادي هي التي حملتني إلى حيث المدَنية، وأن أحراز جدي هي التي شدت أهل القرية إلى الخلف بسبب العجز والخوف.

لكنني لا أستطيع من جهة أخرى أن أنكر أن ركوب حافلة حمّادي بقدر ما جعل مني شخصًا متعلمًا بقدر ما صيرني في الحقيقة مجرد مستهلك لا ينتج شيئًا.

قبل ذلك وبعده، هل كان ركوبي حافلة حمّادي قرارًا شخصيًا رضائيا وصائبًا، أم أنه كان منفى اختياريًا؟ أم أن ذلك كان هربًا من الخوف بحثًا عن حياة أفضل؟

ثم يأتي السؤال المفصلي...

من أين يكون مومو ح ومن أين أتى؟ أأكون حصاة من "أزرو نْ تْسْلِيتّْ"؟ أم أنّني من أطفال "جناناتْ تيزي" حيث أسكنوني كوخًا صفيحيا دون أن يُخبروني بأنني صرت من ساكنة ماخور "ساخن"؟ حي قُرِعت به صَفاتي حدَّ الخوف علي من أن يصيبني الجنون بِسبب أَجنان جِنَانِ تُعرَض بها الأجساد بسوق المُتعة المحرّمة، حيث يغض المجتمع الحضري "المُتَمَدِّنُ" الطرف عن نكاح الرّهط المنظم، ويقبل بصناعة واقع بورنوغرافي صرف كضريبة للترقي في سُلم حظيرة "الحضارة"...

أم أنني أكون من أبناء "بيت غْلامْ"... أو حي "الرَّبايْزْ" حيث خرجتُ من نفسي لأجعل قلبي يطيع الحب أول مرة؟ هل أنا من أهل السماء؟ أم أنّني من وراء البحر حيث خضع عقلي "للأنوار"؟ أأكون من أحفاد "عازْيينْ" بُويْبْلان الذين أقنعهم "الأشراف" بالجلوس

تحت ظل "أرزة العفو"؟ أم أنني من رجال فضاء "البحر المنسحب" حيث أعطيتُ الحياة ودفنت أمواتي "بالعامريّات"؟

هكذا اكتشفتُ بعد طول تفكير أن لا أحد يمتلك جوابًا مقنعًا أو شافيًا عن هذه الأسئلة كلها، وهو وضع رفع من درجة حرارة الصراع بيني وبين "الطفل مومو ح".

أكاد أقتنع أنه حتى في حالة وجود فسحة للتراضي بيني وبين "الطفل موموح" حول موضوع الرحيل والهوية، فإنه كان من الصعب أن نتوافق حول قضايا أعتبرها أنا محدِّدة في حين يعتقد "الطفل موموح" أنها ثانوية وغير مؤثرة.

هل يقتنع "الطفل موموح" مثلًا، بأنّ الترقية الاجتماعية بالقرية غير ممكنة؟ هل أقبل أنا بأن يسود الاعتقاد أن التديُّن الخرافي البعيد عن الدين الحقيقي من شأنه أن يضمن العدالة الاجتماعية بالقرية؟

ثم، إن استوضحني أحدُهم حول موقفي من جهل "يْمَّا تْشْفَا" حين قالت قولتها الشهيرة: (أَيَامْ يْجْرَانْ آ "تْشْفَا"، ما يْفّْغْ ربِّي زّي تْحفُورتْ!) "ويحك تْشْفَا، إن خرج الله من تاحفورتْ"! فإن رأيي، وبكل صراحة، سيكون واضحًا: إن الله معي أينما كنتُ.

كما أنني غير واثق من أن "الطفل موموح" سيسكت عن طبيعة الترقية الاجتماعية بالوجهة التي حملتني إليها حافلة حمّادي لأغرف من قيم المدينة على حساب قيم قريتنا.

وبغض النظر عن التفاهم من عدمه، فإن الأمر يخضع لاختيارات وقناعات تبقى شخصية.

ثم إن الواقع لا يرتفع، فالوضع بعالم المدينة سيء إلى درجة أن الملاحِظ مهما كان موقفه، وكيفما انفرجتْ زاوية نظره لن يستطيع التخفيف من مأساوية العيش فوق مجاري الصرف الصحِّي التي تجسِّد تفاهة المدينة.

رغم حكمه القاسي على عالم المدينة، فقد سكت صديقي ولبث لبرهة يُمعن النظر في البنايات التي اصطفّت أمامنا على طول الشارع. خلته أُعجِب بالمنظر العام، لكنني عدت وفهمت بسرعة أنني أسأت الظن وهو يقول:

- أنظر يا صديقي إلى هذا الصف من الدُّور المُصندقة بهندسة غريبة، كيف تمت إجازة هذه البشاعة التي أنتجت مشهدًا عامًّا رديئًا، وكيف تم التغاضي عن غياب واضح للكفاءة؟! إنها المدينة التي يقولون إنها توفر الفرص الاقتصادية وتُرقي مستوى معيشة الناس، لكنها في الحقيقة تمثل القبح والبشاعة في أعلى المستويات، إنها الزحام في أضخم تجلياته.

قلت:

- لكن المدينة في جميع الأحوال أفضل من القرية التي يقتصر أهلها على العيش من أنشطتها القليلة وحياتها النمطية.

قال وهو يعد سلبيات العيش بالمدينة:

- إن تكلفة المعيشة والإزعاج الناتج عن تصرفات الأشخاص وحركة الآليات وضيق المساكن وانحصار اهتمام الناس بقضاياهم الخاصة، فضلًا عن مشاكل الانبعاثات الضارة والنفايات المُلوِّثة... كل ذلك يجعل من المدينة، في نظري، فضاء غير صالح للعيش السعيد.

قلت وكأنني حضريٌّ قادم من عمق حي الرياض بمدينة الرباط أو من فِلّات حي حمرية بمكناس:

- وهل توفر القرية حياة أفضل مما هو عليه الحال بالمدينة؟ مجموعة قليلة من العائلات تسكن دورًا مشتتة تواجه حياة اقتصادية صعبة تعتمد على عمل النساء والأطفال في مجالات ضعيفة مردوديتُها، كالزراعة، وتربية الدواجن، والمواشي... تلك هي القرية، وأنا لا أراها قادرة على صناعة التعدد كشرط لتحقيق الغنى العام، إنها لا تستطيع توفير الظروف الصالحة للترقي الاجتماعي في غياب تجهيزات مؤطِّرة توفر خدمات اجتماعية جيدة.

لم يعجبه الأمر، فرد بنبرة ملؤها الافتخار وقال:

- آه يا صديقي، لو رأيت تاحفورتْ وبيئتها لكان لك رأيٌ آخر. هو صحيح... بردها قارس وشمسها هاربة، صيفها لاهِب وليلها سرمدِي طويل، لكنها جنة فوق الأرض، كأنها نقطة ضوء تتوهج فيخالها الناظر جمرة موقدة ولو لم تمْسَسْها نار.

كمن غادره قلقه لبضع لحظات، اِسترسل واصفًا قريته بشاعرية فياضة، فتملكتني قشعريرة كهربائية استسلمَت لها أذناي وهو يحكي.

قال:

- تاحفورتْ يا صديقي، ضربة أُخدود خضراء على وجه الأرض، تحفها غابات الأرز، والبلوط. ملفوفة في غابة من شجر الزيتون، ومخفية بين الجبال كالدر المكنون... هي قلعة من قلاع الطبيعة البرية، بمغانيها الترابية الغراء، و"مَراجِعها" الخضراء. تقع في واد جبلي معزول، زاخرة شعابُه بكل ما تشتهيه العين من مناظر

ذات روعة منتجة للجمال، وللخوف اللذيذ. وادي تاحفورتْ، مفتوح على العالم مرة واحدة في الأسبوع، تلتئم فيها السوق كل يوم الإثنين ب "الْبِيرُو"، حيث قصر القائد، والموقف النهائي لحافلة حمّادي.

تاحفورت يا عزيزي، فضاء ما زالت روحي تتوه في مجاهله، وهي في قلبي تمرح، وبعقلي ساكنة لم تغادر. ما أزال أستمتع برضاي القديم بسرير منحته لي، حين نِمت على الحصير فوق أرضها، وحمدت خالقي على رغيف من الشعير، ساقه الله إلي من خلال ترابِها...

تاحفورت، على الرغم من البعد والفراق، ما تزال عيني تسرح لتستمتع بمكونات فضائها. هي مهدي، ومهادي، ومسرح آلامي وأحلامي.

كلما أطلقت العنان لخيالي، إلا وطاف بأرض تاحفورت التي يبهرني جمالها، وتأسرني طبيعتها. أرض ليست مجرد أرض، بل هي استراحة أستنشق بها أريج سعادتي، وأحسبني حصاة من حصاها.

هي الأرض التي علمتني معاني الضوء، والروائح، والشكل، والألوان. إنها الموضع الذي وفر لي الصمت الأرضي، والهدوء السماوي، ومتّعني بأحلى الألحان. هي المنبع الذي سقاني اللبن العذب، والماء الفرات.

أتذكّر جيدًا مواقع كل أشجارها، أنا أدرى بجميع شعابها، وأكاد أستحضر أسماء كل كلابها، وألوان أبقارها وبغالها...

ساد الصمت لثوان، ثم استرسل قائلًا:

- لكن، قل لي يا صديقي، ألا تظن أن تاحفورت في أمس الحاجة إلى اهتمام أكبر من احتفاليتي هذه، وأجدى من إحياء طقوس اللمّة (اللَّامّْتْ)؟ أنا أخجل من عودة هذه الاحتفالية وهذه الطقوس لتجد تاحفورت نفسها كالعجوز لا تزداد سوى ذبولًا وشيخوخة.

صمت صديقي بعد أن انتقل بي من حيث نحن جلوس إلى قريته الجميلة بسفوح بُويْبْلان... أحسست حقًّا وكأني هناك.

عم الظلام جنبات المقهى، هبت على الشارع ريح باردة حد القرس، وكمن استشعر ضرورة مغادرة المقهى، سكت صديقي إيذانًا بالانصراف.

4

هي جلسات كثيرة بالمقهى. وحيث أن اللقاءات كانت متشابهات فإنني كنت أحس وكأني لم أنعم إلا بجلسة واحدة منذ البداية. رغم أن مساءاتنا سيطر عليها الروتين، فقد كان روتينًا حماسيًا أشتاق كل مرة إلى تجدُّده من خلال متابعة أحداث حلقات رواية صديقي.

ما الذي عساه يُذهب روتين المدينة، لمن له قلب، أفضل من قراءة كتاب أو من الإصغاء لرواية حول الزمن الجميل.

جاء قبل الموعد هذه المرة. لافًّا الساق بالساق جلس مُوَلّيًا ظهره لرواد المقهى. لم يلتفت إلى وصولي، هي طريقته ليقول لي دون أن ينبس ببنت شفة إنه كان ينتظرني.

حييت وزدت قائلًا:

- ما بك تجافي المقهى ورواده؟

رد وهو يصطنع ابتسامة خفيفة:

- أشعر بأني بعيد عنهم وكأنني لا أنتمي إلى هذه المدينة التي تعيش رداءتها تلقائيًا دون تفكير بمجرد أن ترمي آليًّا بما في بطون دُورها إلى الشارع.

قلت بهدوء لا يخلو من لوم مستفز:

- خلتُني جئتُك لتنفس عني بروايتك الشيقة، فإذا بي أجدك مثقلًا بضجرك المستمر... أهو كرهك للمدينة الناتج عن خوفك من الانقراض المنتظر لقريتك هو سبب موقفك هذا؟

ربما كان ينتظر استفزازي له حتى يُفرغ ما في جعبته. اِنطلق في عرض أسباب محنته، وفي الدفاع عن اختياره التخلّي كحل لمعالجة إحباطاته، وخيباته الناتجة عن فشله في تحقيق حلم البقاء بقريته، وفي بلوغ أهداف هجرته إلى حيث الزحام... لا هذا، ولا تلك، اِختار الهروب من فشله، واللجوء إلى كتابة روايته.

قال وهو يلتفت إلى رواد المقهى:

- أُنظر إليهم، هل تستطيع أن تحس معهم بالأمان؟ هم من صنعوا أكاذيب المدينة، إنهم لا يخجلون من عُرِيهم الأخلاقي. ثم إنهم غير قادرين على اختراع نموذج تسير عليه مدينتهم، هم عاجزون عن الانتقال بها من نمط انتهى إلى نسق حداثي يرقِّيهم ويرفع من شأنهم.

يتحدث حين سحب أحدهم، بدون استئذان، الكرسي الثالث الفارغ من الطاولة التي نجلس إليها. غضب صديقي لذلك، علّق قائلًا:

- أُنظر كيف يتصرفون بقلة أدب، بالرغم من أن النسق الذي تربى عليه جيلنا لم يكن يخلو من التربية على الأخلاق. لقد سحبوا مادة الأخلاق من البرامج المدرسية !

قلت وأنا أسحب كرسيًا من مسنده:

- وما يدريك لعلهم يتحدثون عنا بمثل ما تتحدث أنت عنهم؟ أنا مقتنع بأننا بعيدون عن المدينة المواطنة التي نحتاجها، هذا صحيح، لكن قريتك التي تعتد بها هي الأخرى أبعد كثيرًا عن القرية الفاضلة التي على بالك.

قال وهو يزايد علي في الكلام:

- وددت، وأنت تستعد للجلوس على هذا الكرسي البلاستيكي البشع، لو أعرف شعورك إزاء حرمان مؤخرتك من الجلوس على العشب الأخضر هناك عند الساقية التي تخترق القرية.

قلت وقد استويت في جلوسي:

- قل لي ماذا تريد بالضبط؟ هل أنت طوباوي يحلم بمدينة منازلها بدون أبواب وحيطانها من زجاج وشوارعها معبّدة بالعشب الأخضر عوض الإسفلت الأسود؟

سكت قليلًا ثم نظر إلي وقال:

- هل أكون طوباويًا لأنني أحلم فقط برصيف جميل، واسع ونظيف... وعشب يانع يرافق جنبات الشوارع وإسْفَلْتٍ لا يشكو من ثقوب؟

لم أكن أرغب في إنهاء محاورة بدت لي مفيدة وأنا أنبّهه إلى أنني جئتُ وكلِّي شوق لمتابعة فصول روايته. بالتأكيد لم تعجبه

ملاحظتي، فموضوع محاورتنا مهم جدًّا بالنسبة إليه، لكنه ردّ وهو يلاطفني:

- أهو صراعي مع "الطفل مومو ح" يثير اهتمامك أكثر من موضوع المدينة والقرية اللتين نحتاجهما؟

صادقًا أجبتُ:

- الموضوعان واحدٌ يا صديقي، الصراع يتعلق بقضايا هامة من بينها خيار الهجرة، والقرار مرتبط بالقرية والمدينة وقصتك مثيرة للاهتمام.

أملي ألّا تزعجك روايتي وأن ترافقني حتى النهاية. كذلك قال وهو يستعد لمتابعة سرده تفاصيل صراعاته.

قال وهو يرتّب تلابيب جلبابه:

- بعد أسابيع طويلة من الانتظار... أخِي رنّ. أكون كاذبًا إن ادعيت أنني لم أكن أنتظره، خلتُه نسيني، لكنه عاودني بالمهاتفة، كانت تعبئته منطقية هذه المرة.

أخيرًا... رَنَّ هاتفي المكسور الخاطر، قلتُ:

- صوت من على الخط نَطّ؟

قال:

- أنا أنت الذي كنتَه ونسيتَه، أنا مومو ح الطفل... عزاؤُنا واحد في "أسد الصحراء".

وبعد أن سألته: "من أنت يا مُتمايِن الودّ؟" رد علي قائلًا بأنه هو الموضع الذي تُرْفَأُ فيه أحزاني... وطلب مني أن أدع أُذُني تعانق صوت مواساته لعلّي أرتاح فأنسى كما نسيتُه.

أفصحتُ له عن رأيي بأنه هو الحزن الذي يتحرش ببقايا أَفراحي... لكنه تجاهل رأيي وقال: "الحق أنك أناني استحوذت على البِر كله وجمعت الرضا من كل أطرافه".

قلت:

- "تاللّه إنك لفي ضلالك القديم"...

قال وهو يسألني:

- ماذا أَنت فاعل الآن وقد صرت يتيمًا مثلي؟

أكدت له كون "مأساتي أنني كنتُ يومًا طفلًا" كما يدّعي... هو صحيح أنني ما أحسست يومًا أنني كنت طفلًا، لكنني لا أفهم سبب محاورته، لو لم أَكُنه ما كنتُ مضطرًّا للتواصل معه اليوم.

قال:

- أنتَ كنتَني فعلًا، لكنك خنتَني حين بدأَ الشك يراود عقلك الطائش.

أكدتُ له أنه ربما يكون صادقًا، فقد أكون كنتُه وقت كان جدّي العاجز يسكنُه، ولم يكن يفكر.

قال:

- ولماذا أُفكر؟ كنتُ أثق فقط بما حكى لي جدّي ممّا ورثه عن أجداده الأولين ...

قلتُ:

- هذا كان خلافٌ بيني وبينك...

رد متهِمًا إياي بأنني تركته وهو لا يستطيع فك الخط ولا عدَّ الخراف، فبحث في الفراغ فما وجد غير الأَشغال الشاقة تُمسك رمقه.

أكدت له أنني ما تركتُه... بل حملتُه وما زلت أُعاني من تبعات حمله. لكنه رد بأنهم أطفأوا النور وصبغوا الحيطان بالأسوَد وأغْلقَ عليه الأمرُ يوم أَقفلوها... وكنتُ أنا أولقًا عاقًّا حين رضيت بذلك.

قلت :

- بل أنت من يصبغ الحديث... هُم أَقفلوها لأنها ما عادت تُدرُّ التّعلُّم، هي بالكاد كانت تدّعي التمدرس المتحفي في عالم تجدَّد كُلية... فبقيتْ خارج النسق الجديد.

قَال:

- ربما تغير نسق جدّك... لكنه ما زال حاضرًا يفرض تلاوينه.

مصرًّا واجهتُه قائلًا بأن كلمات جدّي ما عاد لها مكان في أَي مكان... هي فَنِيت وانتهت.

لم يعجبه قولي فردّ متهكمًا كمن يرغب في إنهاء الحوار:

- يا ذا المعرفة، قد تغيب عنك أشياء كثيرة... لقد نفِد الكلام.

قلتُ:

- لم ينفد الكلام بعد... هي فقط منهجية القمع التي أخذتَها عن جدّي لمواجهة الأسئلة التي لا تملك لها جوابًا.

قال معاتبًا وراغبًا:

- من بين أحجار تاحفورت أُناديك لعلك تصحو... "وَا الرّْجوع لْلَّاهْ".

قلت محتجًّا:

- هل أنت تفتي بما يجب علي أن أُريده؟

قال:

- ما عدت ترضى بالتفكير وفقًا لنمط جدك... لكن، قل لي: كيف تدّعي الاختلاف وقد صرت تُلبِس نفاقك لبُوس التوافق يوم اخترت التراضي والتغاضي... وسلكت مسلك الصمت إزاء غياب الاهتمام بالمصلحة العامة؟

اِحتججت عليه منبهًا إياه بأنه ليس من حقه أن يتهمني بالتواطؤ مع الفساد؟ لكنه زاد مراوغًا وهو يقول إن مشكلتي تكمن في كوني لا أستطيع إنتاج نمط جديد... ثم إِنه ليس متأكدًا من أن ما أتحدث عنه هو ما أقوله وأفكر فيه فعلًا؟

قلت:

- إنك تريد أَن تُقوّلني ما لم أَقله...

وظهر أنه لم يفهمني حين أوّل كلامي خطأ وهو يواجهني بما قلته في سياق آخر يتعلق بكوني أريد زعزعة السائد من العادات؟

وحيث أن المكالمة تجاوزت مدتُها الحدَّ المقبول صرت أبحث عن سبب معقول لإنهائها، فقلت بحدة لا تخلو من تصعيد:

- بل أنت من يتهمني بزعزعة تفكير مريد المُسلَّمات.

لكن الشيطان الصغير الذي يسكنه أبى إلا أن يرد على التصعيد بمعاندة استفزازية وهو يقول:

- إِنك لأَنت الخوِّيف مومومح... وإنه ليحزنني أن أَراك تزداد خوفًا كلّما سلكت دروب البحث عن الحقيقة.

قلت:

- كل ما أُريده هو بناء مومومح من طرف مومومح...

ثم استبقت رده معلنًا عن إنهاء المكالمة قائلًا: طاب مساؤك.

لكنه تنبّه إلى خطتي فقال ملتمسًا:

- من فضلك انتظر قليلًا، ألا تسمع خشخشة بالخط؟

خرير قوي وصوت كوقع خطى تمشي فوق بقايا زجاج...

قال:

- إنها مرآتك التي كسرتَها حذر الفضيحة، أنت خفت من وقوفك أمامها حتى لا تراني... لملِم أطراف مرآتك ثم أمعن النظر... إنها "تَاصبَّابْثْ"، ذاك المكان الوَجَن... وَتين تاحفورت الوَاتِن، أتسمع خرير مياهها الذي كان يملأُ نفسك بالفرح... أنسيت عينها الثَّرَّة وصبيبها الثجاج؟ كانت لك أُمًّا رؤومًا تنظفك وتسقيك... فما سلكَك في نكران فضلها عليك أيها الأولق العاق؟!

حاولتُ الرد لكنه قال مقاطعًا:

- صَهْ، ماذا عساك تقول؟ تذكّر واطرق السمع فقط.

ترك الخط مفتوحًا وانسحب. بعد ثوان أسلمت المكالمة الروح، فصرت أحدث نفسي وقد تأكدت من أنه على حق مَن قال: وما (العشق) إلا (للمكانِ) الأول، لكن...

ولكن ماذا؟ أهي ضائقة نفسية أصابتني وقتلت لدي الذائقة الجمالية التي جعلتني أصدح بعشقي للحجر المقدس الذي سقطت عليه رأسي بتاحفورت؟ أم هو سخطي وأنا أرى (الصَّارِيجْ أُوَّادًا) الصهريج التحتاني عبر الصور وقد استوى ترابًا ليصير موقفًا للسيارات؟

بُثّي لوعتك يا نفسي... واكتب وتملَّ عمرك يا مومو‌ح، واستمتع بصور أُم قرى الأعالي... فإن لها رُواءً يغري الأرواح

السائحة. ثم إنني لن أستطيع أن أحيا إذا غاب عني الحنين إلى مطارح صباي؟

في جميع الأحوال، إنني واثق من كون قريتي هي الربع الخالد الذي يفنى فيه مومو ح، وأن الزمان قد طبعني بميْسمها رغم غيابي الطويل عنها، ومحاولتي نسيان غضيض طفولتي البئيسة.

بعد ساعة أو يزيد قليلًا، عاودني المدعي بالمهاتفة. فتخيلته أمامي وأنا أصيح في وجهه:

- أيها الصائح الخفي... ما لرناتك لا تنتهي؟

قال:

- أنا الرنين... أحمل إليك حنين السنين الخوالي.

قلت:

- "تكلم حتى أراك"... يا صوتي الحزين.

قال:

- لن تراني، لقد تشتتت بك سبل الأصوات بمهجرك حتى أنستك صوت أُمك، عد إلى حيث الصفاء، إلى الأرض التي تحمل ميسم هويتك، إليها مرجعك يا من أضعت نفسك في البحث عن الإنسانية الفراغ.

وحول سؤالي، كيف يريدني أن أعود وقد تحررتُ من الخوف المنبعث من رمادية أحجار القرية؟ أجاب ضاحكًا بسؤال آخر وهو يريد أن يعرف إن كنت قد صرت ذاتًا حرة هناك حيث أنا... مؤكدًا أنني بالكاد عبد مستهلك أهوى الترقي في سلاليم هرمية حاجياتي البدائية.

قلت:

- هل صرت أنت سيد نفسك ببقائك خلف بقرة أُم مومَوح؟

قال:

- هل وجدت أنت إنسانيتك التي هاجرت من أجلها؟ لا أعتقد أن لها ماهية... عُد، إن لدي شيئًا من بقايا هويتك يغنيك عن كل شيء. ألست أنت القائل: (ما تذكرت يومًا مرَّ بي دون أن أتذكر تاحفورت)؟

ورغم أنني أجبت ببلى، إلا أنه رد مقاطعًا بأنه فهم الآن... ليس بديهيًّا أن تكون مواقفي كلها تنتمي إلى عالم مومَوح.

وحول سؤالي إن كان يعتقد أنّ مومَوح صار اثنين، أجاب بأن الأمر بالنسبة إليه هو كذلك منذ خيانتي الكبرى بركوبي حافلة حمّادي...

قلت:

- ذاك سياق قديم... أما الآن فقد طاش صوابي وأنا أرى الساقية متمردة على التراب تراقص الإسمنت المسلح على أنغام صبيب قوي يمنع الصِّيصان من الانتقال إلى الضفة الأخرى حيث المطارح المُغذّية.

الآن، وقد جاءت الكهرباء إلى القرية... ما الذي رافقها؟ لا شيء، سوى أنها أضاءت الطريق ليلًا للخنازير لمهاجمة حقول القرية.

وزدت قائلًا، إنه لا لوْم علي إذًا حين آثَرتُ الصمت والإِنزواء لأنني لم أعد أجد للقرية أي دفء بعد اندثار الدار. مات المكان حين رحلت الأرواح التي كانت تؤثثه، فصارت القرية مهجورة وحزينة.

لكنه رد بأن روحي هي التي انقسمت إلى شظايا بفعل رداءتي التي جعلتني لا أرى... مؤكدًا على أن المكان بالقرية غير المكان بالمدينة. ثم إن كل شيء يتغير. واسترسل قائلًا:

- لقد تغيرت منذ أن صرت راغبًا عن الأخضر المُدهامّ لشجر الزيتون بقريتك، مقابل افتتانك باللون الأبيض لحيطان مدينة الزحام.

ثم أردف:

-في كل الأحوال، أنت غير متأكد من أنك بلغت أمرك بركوبك حديد حمّادي. إلى حدود الساعة، لم تتم الاستجابة للدعاء الذي طلب منك جدّك أن ترفعه إلى خالقك وأنت تدخل عالم غربتك.

أتذْكر كيف كنت تردد بعد جدّك: "ربي إني أسألك خير هذه البلدة، وخير أهلها، وخير ما فيها، وأعود بك من شرها، وشر أهلها، وشر ما فيها"؟

قلت:

-كنت أردد خلفه كالببغاء، لم أفهم وقتها ما الدعاء، ولم أستوعب فحوى محتواه. لو كان أسلوب دعاء جدّي سليمًا لكنت بلغت أمري. أما بخصوص اللونين فلم تكن لي حرية الاختيار. أنا خرجت لاجئًا، ليس بسبب الفقر فحسب، بل هاربًا من الجهل وقساوة تبعاته.

صمَت للحظة كأنه يفكر، ثم سألني عن رأيي في رداءتي التي جعلتني لا أرى الفرق بين القرية والمدينة؟ أجبت قائلًا:

- الفرق هو بين الأمس واليوم... ثم إن عدم الاهتمام بالمجال القروي جعل البادية تهاجم المدينة من خلال الهجرة، وعبر تأثير السلوك البدوي في المجال الحضري عوض جعل السلوكات الحضرية تنتقل إلى القرى لتثبيت الساكنة هناك.

أكدت له أنني أرى جيدًا... وأن الفضاء قد تغير بعد أن رحل الإنسان، وتأثير المكان في الإنسان معلوم. وفي جميع الأحوال فإن عشقي لن يكون إلا للمكان الأول.

- أنا وأنت ما عدنا توأَمًا، أنا أعشق الزمان وأنت تعشق المكان القديم... كذلك قال، قبل أن أرد عليه بأننا عاشقان لامرأة واحدة، هي تاحفورت... لا تبتئس، سأزورها قريبًا.

قال:

-أهو وعد منك لي، أم أنه التزام منك تجاه تاحفورتْ؟ أعودتك واقع، أم هي سحابة جَفْل وحديث خُرافة؟

قلت:

- أنا آت والسلام.

5

في الجلسات التي توالت يوميًا بنفس المقهى على مدى أسابيع، تواترت أحداث رواية صديقي وتلاحقت وقائعُها في تسلسل مترابط يجعلني لا أنساها ما حييت. لقد حفِظ ذهني ما أودعته إياه من تفاصيل، فكسبت بذلك شرعية تنصيب نفسي راويًا لسرد قصة صديقي.

لم يكن هينًا على موموح اتخاذ قرار زيارة قريته، هو ليس متأكدًا مما يعتمل بنفسه من أحاسيس... قد يكون مزيجًا من السعادة بعودته إلى مهد طفولته وفاءً لما أوجبَه على نفسه، ومن الاستشعار بالخوف من موقف القرية وأهلها مما كان منه من خيانة تفاقمت بظرف الغياب الطويل. وربما كانت خليطًا من الألم وتأنيب الضمير وكأنه أتى بإِحدى الكبائر... كانت كل تلك الأحاسيس بطعم عذابات الحنين اللذيذة.

ثم أكد لي أنه يجد نفسه غير قادر على إنتاج أجوبة على أسئلة كثيرة تطرح عليه نفسها بحدة... كم يود لو تأكد قبل الزيارة من أن العودة إلى القرية هي عودة إلى نفس المكان الأول. كم يتمنى لو يُعطى الفرصة ليحتفل بالمكان... فهل سيجد المكان كما كان؟ هل ما زالت القرية تتوفر على مقوماتها القديمة التي ستجعلها تحتفل بقدوم مومو ح؟

مو مو ح، بعد أن أعيته محاورة "الطفل موموح"، قرر زيارة قريته للقاء طفولته، وللبحث عن أجوبة مقنعة للأسئلة التي تؤرّقه.

غادر موموح مدينة "أكْلْزِيمْ" والشمس تستعد للميلان جهة الغرب... ليدخل مدينة "تيزي" بعد زوال يوم جميل سماؤه صافية وشمسه ساطعة.

من خلال بوابة الممر المعلوم... وعبر القناطر البيضاء فوق وتين حوض إيناوْن، ومن على الصخرة العصية تطل غزالة "تمازغا" من بين قمم هي أشهر من نار على علَم.

كل شيء جميل ب "تيزي".

تيزي الجديدة... أو "تيزي أُوَّادًّا" لمن أراد أن يُذكِّر موموح بآلام أسفل الظهر الناتجة عن نومه على الأرض فوق سريره الإيكولوجي (حصيرة من سيقان نبتة الحلفاء من صنع أُمّه) ببيته الترابي ب "الرَّبَايْزْ" بحي "بيت غْلام".

يحكي صديقي عن دخوله مدينة "تيزي الجديدة" ويؤكد بأن "الطفل موموح" لم يكن أبدًا على باله وقت وصوله، وأنه لم يفهم دواعي التخاطر الروحي الذي جعل الطفل يهاتفه في ذلك الوقت

بالذات. لكن موموح لا يجيب، كان يسوق، ثم إنه كان مشغولًا بالتفكير في مسار دخوله.

كان طبيعيًا أن يقف موموح أمام البناية أو الوجهة الوحيدة التي ركب من أجلها حافلة حمّادي. ثانوية علي بن بَرِّي... هو صحيح، المؤسسة علامة بارزة من العمران الاستعماري بمدينة "تيزي"، لكنها في الحقيقة تشكيل ذو تأثير كبير في مجالي التربية والتأهيل. يؤكد موموح وهو يحكي أن تأثير هذه المعلمة ما زال قائمًا في وجدانه، وأن لثانوية علي بن بَرِّي مكانة خاصة بقلبه منذ أن صارت وجهة ساهمت في الترقية الاجتماعية لأسر المنطقة.

أوقف موموح سيارته، ترجّل، ثم وقف احترامًا للمكان.

لم يكن من الممكن ألّا يتذكر أوّل مرة ولج فيها الثانوية، حيث اصطفّ موموح مع أصدقاءه الجدد في طابور الصباح عند باب الفصل... كلهم غرباء، ولا واحد من ركاب حافلة حمّادي بينهم.

لم يلق عليه التحية أحد رغم أنه كان أول المتواجدين... اِستهجن موموح الأمر ولم يفهم.

جلس إلى الطاولة الأولى كما كان يفعل بمدرسة تاحفُورْتْ... أخذ يتفحص الصورة المثبتة فوق السبورة، كانت للملك المتوفى صديق القمر، حين انتبه إلى من جلس إلى طاولته وألقى التحية، قالت: "صباح الخير، أنا "نزهة"... رد موموح التحية وقال: "أنا اسمي محمَّد".

لأول مرة ينطق موموح اسمه الحقيقي المثبت بالحالة المدنية... فأحس بشعور غريب، شعور من تنازل عن شيء يخصه.

كانت "نزهة"، كغالبية فتيات مدينة "تِيزِي"، فتاة جميلة بحسن فوق العادة، وبشعر مسبَّل على الأَكتاف، وبلباس إفرنجي أنيق... فاستعذب مومو ح رفقته الجديدة.

بالكاد يستطيع مومو ح الإجابة بلا أو بنعم على أسئلة "نَزهة" حول أسرته وعن محل سكناه بِ "تيزي"... فلما علمت حقيقة مومو ح قالت: "إنك تستحق منحة تخوّلك العيش بالداخلية، فما الذي منعك من الاستفادة من هذا الحق؟

رغم أن مومو ح لم يفهم شيئًا مما قالته رفيقته في الفصل فإنه لم يجرؤ على استفسارها عما تقصده.

بعد فترة تبين لمومو ح أن أصدقاءه بالفصل ينقسمون إلى عدة فئات... فئة من "تيزي تْنّْجْ" تعتبر أنها تمثل "تيزي الحقيقية"، وكانت أكثر استظهارًا لعجرفة ثقافية غير مفهومة، وفئة ثانية من "تيزي أُوَّادًّا" تتسم بعدوانية واضحة، وفئة هي خليط من الفئتين السابقتين ومن أطفال قدموا من النواحي، وهي فئة تتسم باللطف وبالصفاء الذهني لكنّها أكثر معاناة من المشكلات التوافقية.

لم يكن مومو ح وقتها قد نسي الاستقبال التهكمي لأطفال "تيزي" وهم يصيحون: "وَا لْعرُوبِيًّا"... ولم تكن رفقة "نزهة" لتحميه من شظايا عدوانية الجمهور المحلي، فصار يبحث في عيون رفاقه وفي لكنتهم عن أمازيغية محتملة.

سيلتقي مومو ح طبعًا في المستويات الدراسية الموالية بثانوية علي بن بَرِّي بعيون تشبهه وبتلاميذ يرقصون على الألحان الأمازيغية.

يتقدم مومو ح مشيًا متجهًا إلى الجانب الآخر من الثانوية، حيث الباب الثانوي الخاص بالتلاميذ. لم يكن المرور على الباب مهمّا، لكن مومو ح حرص على الوقوف أمامه لحاجة في نفسه قضاها حين تذكر ذلك اليوم المشؤوم، والموشوم على لوح معاناته الكبرى.

ما زالت دقات الجرس ترن في أذني مومو ح... وقد وضع كتاب التلاوة بالمحفظة، ثم تحسس بيده وجود القلم والمسطرة بها.

لم يكن مومو ح يتوفر على أدوات أخرى. كان سعيدًا بِ"سْتِيلُو"، هذا القلم الجاف الذي أعلن عن ترقِيته إلى المستوى الإعدادي، ليترك بذلك الريشة والمحبرة والمنشفة... نعم كان سعيدًا رغم طرده المتكرر من القسم بسبب غياب الأدوات الأخرى.

يتذكر مومو ح جيدًا كيف خرج مسرعًا من الثانوية... ليستيقظ من غيبوبته وهو ملقىً على السرير بمستشفى "ابْنُ بَاجَة."

لأول مرة يجد مومو ح نفسه نائمًا على سرير... سرير مريح وحجرة دافئة رغم الألم والخوف.

يُنادي مومو ح على أمّه باكيًا ليستفسرها عما وقع... فلا تجيب.

حضر طبيب فرنسي مصحوبًا بممرضة، أخذ الملاك "الكافر" يد مومو ح برفق وحنية فائقين، وقال مبتسمًا: "لا تحزن، ستبقى بيننا بعض الوقت لنعتني بساقك، وسيأتي أهلك لزيارتك قريبًا".

كسر كلي لعظمتي الساق اليمنى ورضوض وجروح بالجِسم... هي إصابات مومو ح من جراء صدمه فوق الرصيف من طرف سيارة فقد سائقها السيطرة عليها... قتيلة وثلاثة ذكور جرحى، هي حصيلة الهجوم على رصيف عاجٍّ بالتلاميذ في ذروة المغادرة،

هجوم مفاجئ لم ينهه سوى السور الواقي لملاعب كرة التنس القريبة من الثانوية.

يتلقى موموح زيارة أهله، وأساتذته، وأصدقاءه بالفصل... فيحس بالأمان. شهر كامِل بالمستشفى، وشهر آخر كفترة نقاهة ب"تيزي" عند سيدة من العائلة.

عانقه أستاذه الفرنسي وهو بين أصدقاءه بباب القسم عند رجوعه وهنأه على سلامته، فاغرورقت عينا موموح... "كافر" آخر يشفق من حاله... فيسأل نفسه: أليس أبناء الرومية (الطبيب والأستاذ) من تركة الاستعمار الذي فرض سخرة "رَبْعِيَّامْ" على أهل موموح؟

بدأ الدرس في التعبِيرِ الشفوِي حول موضوع السينما... لم يشارك موموح، اِنتبه الأستاذ إلى الأمر، قال: ما بك يا موموح لا تشاركنا الموضوع؟ قال موموح: لم يسبق لي سيّدي أن دخلت قاعة السينما...

بهت "الكافر" قبل أن يستدرك مقاطعًا وشوشة المتهكمين من أبناء "المسلمين"، وقال: "طيِب... سيحدثنا صديقكم موموح عن المستشفى حيث قضى بعض الوقت، فأنصتوا إليه من فضلكم.

منذ حلوله بزحام "تيزي" وموموح يتلقى الدعم المعنوي من هؤلاء "الكفار" من أبناء الروم، القادمين من وراء البحار، والذين يخضعون ويتصرفون وفقًا لنسق آخر مختلف!

نظر موموح من خلال الباب في اتجاه وسط الساحة، ما عاد هناك قسمان كان بناؤهما من الخشب الخالص... لأحدهما قصة رائعة في تحرير الإنسان والتربية على نسق جديد.

يتذكر مومـوح كيف كان صوت طرقات حذاء "مْسْيُو بُولْيُو" Poglio ملفتًا على أرضية القسم الخشبية، صوت يدق في الأرجاءِ وكأن له نغمات خاصة... توقف وهو في آخر الصف خلف التلاميذ، نظر يمنة ويسرة، ثم قال: "من به قمل"؟ Qui a les poux?

تفاجأ موموح بسؤال الأستاذ، ما جعله لا يستوعب فحواه في البداية رغم وضوحه.

رغم طرقات حذاءه، حلج الأستاذ الفرنسي في مشيته جيئة وذهابًا بين صفوف القسم على غير عادته وكأنه يمشي بصمت... اِنتظر طويلًا، لكنه لم يتلق جوابًا... صار موموح وأصدقاؤه وكأن على رؤوسهم الطير.

أَعاد الكرة وهو أمام الجميع وجهًا لوجه... فووجه بإطراق للرؤوس وكأنه قال كلامًا فاحشًا.

تأكد الإفرنجي أنه أمام عصيان ثقافي حقيقي... فوزع نظرات اللوم على الكل ثم قال:

- أنا... كان بي قمل وأنا صغير...

كان "اعتراف" الأستاذ بمثابة قنبلة ثقافية ارتطمت بعقل موموح: رومي به قمل؟! تحرر موموح من عقدته وتيقن أن الجرأة لا تقع في قلب كاذب، وأن قول الحق شجاعة، فرفع يده معلنًا عن جرمه، وقال:

- أنا... بي قمل سيّدي.

بقدر ما انبهر أصدقاء موموح باعتراف ابن الرومية وبثقته العالية في النفس، بقدر ما استهجن بعضهم "وقاحة" صديقهِم وجرأته "الخبيثة" بقبوله الخوض في قضية هي من "طابوهات" الأمة.

هل أحس مومّوح بالغيرة وهو يرى فرنسيًا يتقاسمه موروثًا، حسبه فتى تاحفُورتْ في الملكية الحصرية لأهله؟ أم تراه أحس بالفرحة وهو يكتشف أن ولد الرومية يعاني هو الآخر من غزو الحشرات في تعادل يريح مومّوح؟

فرضية التعادل المريح هي الأقرب إلى الحقيقة.

رفع آخرون أصابعهم، فانقسم الفصل إلى فسطاطين... اِبتسم "الكافر"، وهو يحاول تهدئة فصل سكت عن الحق حين حاول تغطية شمس قمله بالغربال، وأخذته حمية الجاهلية حين انفضحت مؤامرة السكوت.

بعد تلك الموقعة، اِرتاح مومّوح، وسعد بتحريره من عقدته من طرف المستعمر "الكافر"... وما عاد يهتم بالحرج الذي يسببه له ظهور صديقاته الحشرات برأسه، أو فوق ملابسه... فصار أكثر تركيزًا بالفصل.

استحلى مومّوح وقفته التفقدية أمام باب الثانوية، اِنتبه على صوت رجل خمسيني يحييه ويستأذنه ليفسح له حتى يفتح الباب ويدخل إلى سكنه الوظيفي بالثانوية، مشيرًا إلى أنه المسؤول عن حراسة المؤسسة. تنحى مومّوح جانبًا، أولج الرجل المفتاح في القفل، فتح الباب الحديدي، ثم دخل وأقفله خلفه. لكن فتى تاحفورت أسرع إلى استفساره قبل أن يبتعد، قائلًا:

- من فضلك سيدي، هل يمكنني أن أطلب منك خدمة؟

اِستدار الحارس، ثم ردّ:

- تفضل سيدي.

قال مومو ح وقد غمره الحماس:

- كنت أدرس بهذه الثانوية في ستينيات القرن الماضي، لم أعد لزيارتها منذ أن غادرتها بعد حصولي على شهادة البكالوريا. هل تسمح لي يا سيدي بالدخول إلى المؤسسة لإلقاء نظرة سريعة على الفضاء الذي كنت أدرس به، وذلك لقضاء حاجة في نفسي فرضها علي الحنين إلى المكان؟

عاد الحارس ليفتح الباب، ودعا موموح إلى الدخول وهو يعبر عن سعادته بلقاء تلميذ من القدماء هزه الشوق إلى ماضيه المدرسي بالثانوية.

صحب موموح الحارس إلى الداخل ولسانه يلهج بالشكر والامتنان.

قال الحارس:

- سأتركك الآن، سألحق بك بعد حين، فضاؤك المدرسي القديم أمامك، نقِّل عيونك حيث شئت بين الأقسام، إنها مفتوحة.

اِستحضر موموح، منذ ولوجه ساحة المؤسسة، الدور الهام الذي كان لهذا الحرم التربوي فيما آلت إليه أموره. ما زال فتى تاحفورت يتذكر جيدًا تصميم المكان وموقع الأقسام وأرقامها. اِنطلق قاصدًا قسمًا بعينه، توقف لبضع ثوان أمام باب الفصل، رفع رأسه قليلًا، أسعده أن يرى اللوحة التي تحمل رقم 4 ما تزال صامدة كما تركها.

أحس موموح وهو يفتح الباب بالذكريات التي تسكن كل زوايا القسم وكأنها تهاجمه دفعة واحدة. شعر وكأنه يلج مكانًا مقدسًا. وقف أمام السبورة يتذكر كل اللحظات وكأنها حدثت بالأمس.

رن الهاتف، أجاب مومووح بِ "ألو"، ردّ المهاتف:

- "دع قلبك يقر قراره"... ما الذي حملك على فتح باب أُغلق منذ عقود؟ أعلم أن أمر التربية يهمك، وأعرف أن لك موقفًا مما آل إليه وضع التعليم ببلادنا. ثم إن مسارك الدراسي هو الذي جعلك تغفر لأهلك إركابك حافلة حمّادي حين تيقنت أن التعليم هو طريق المستقبل. رغم ذلك، لا أجد لحنينك إلى حيث تقف الآن معنى.

ردّ مومووح قائلًا:

- هو صحيح أنني ولجت المكان لأراجع صفحة طواها النسيان، لكن المسعى كان ضروريًا، لأن المكان مهم جدًّا بالنسبة لي. هنا تعلّمت أن الهجرة هي بداية النجاحات العظيمة... كان من الممكن ألا أحقق ما صرت إليه لو أنني لم أجلس إلى إحدى طاولات هذا الفصل... ولو لم أهاجر مرة أخرى.

قال العقل المشاغب:

- قرأت مذكراتك، لكنني لم أجد بها لك حديثًا تطرق إلى الأحداث التي جعلت من هذا القسم مكانًا يكاد يكون مقدسًا بالنسبة لك. هل لذاكرتك أن تستحضر حدثًا هامًّا عشته بهذا الفصل وكان له بالغ الأثر في مسارك؟

اِنقطع الخط حين انتبه مومووح على صوت الحارس يستفسره قائلًا:

- لمذا هذا القسم بالضبط؟ ألم تكن جميع الفصول تتناوب على كل الأقسام في ذلك الزمان؟ فما الذي اختص به هذا الفضاء حتى تقصده دون غيره؟

ردّ مومووح:

- بلى، ولكن لهذا القسم قصة خاصة تميزه عن الباقي... واقعة تلخص واقع التعليم عندنا.

جلس مومو ح إلى إحدى الطاولات وطفق يحكي...

اِنتظم التلاميذ مثنى مثنى أمام القسم قبل ان يعطي أستاذ الأدب العربي إشارة الولوج. دخل الجميع، ساد الصمت بعد أن انقطع صخب الدخول والجلوس. وقف الأستاذ أمام السبورة، رفع عقيرته يستظهر بيت الخنساء:

يذكرني طلوع الشمس صخرًا وأذكره لكل غروب شمس.

ثم قال يسأل الفصل:

- لماذا يُذكر طلوع الشمس الخنساءَ أخاها صخرًا؟

رفع مومو ح يده، أشار إليه الأستاذ بأن يجيب، وقف التلميذ وقال:

- ربما لأن أخاها صخرًا كان جميلًا...

ضحك الأستاذ ملء وجهه متهكمًا وقال:

- الله، الله... من أين جئتنا بهذا التفسير الفريد أيها النابغة؟

رد مومو ح موضحًا:

- أعتذر سيدي، لكنه ليس تفسيرًا، هو قراءة شخصية قابلة للصواب والخطأ. هل يمكنك سيدي أن تمدّنا برأيك في تأويلي هذا؟

لم يعد الأستاذ ضاحكًا، اِصطبغ وجهه بالحزم وقال مخاطبًا مومو ح:

- اِجلس... إنه من قلة الحياء أن يواجه التلاميذ أستاذهم بالأسئلة. أنا من يفسر، وأنا من يطرح الأسئلة يا عالم التأويل المبجل.

وقف موموح، ردّ قائلًا:

- ليس العلم وقفًا على العلماء يا سيدي. يمكن لأي شخص أن يدلي برأيه.

تدخل التلميذ عبد الكريم، صديق موموح، يسأل الأستاذ رافعًا كتاب الأدب العربي:

- أليس من حق التلاميذ أن يطرحوا الأسئلة، ويقترحوا قراءات مختلفة عما هو مدوّن في هذا الكتاب؟

قال الأستاذ بصيغة القمع وهو يواجه الفصل كله:

- اِسمعوا... التفسير الصائب الوحيد هو المدوّن في الكتاب الذي بين أيديكم. أما هذه الجرأة التي أظهرها صديقيكما فهي من باب قلة الاحترام للأستاذ.

وقف موموح معلقًا على ما قاله الأستاذ:

- عفوًا سيدي، لم أقلل من احترامي لك، أنا أحترمك وأبجلك، أنا أسأل فقط لأعرف وأفهم.

غاضبًا يتدخل الأستاذ مقاطعًا:

- بدأت بقلة الحياء، ثم بقلة الاحترام، وبعدها تتحدّاني بالتعليق على كلامي... يظهر أن والديك لم يحسنا تربيتك، لكنني سأتكفل بذلك. اُخرج من فصلي، أنت مطرود.

جمع موموح أدواته، ثم ترك القسم.

بتلقائية جماعية انسحب جميع تلاميذ الفصل معلنين عن تضامنهم مع زميلهم المطرود. تقدم التلميذ عبد الكريم رفاقه، وقال:

- من فضلكم، تقدموا بنظام وانتظام في اتجاه قاعة المطالعة.

اِنتشر الخبر بالثانوية انتشار النار في الهشيم، تقدم الأستاذ إلى الإدارة بتقرير مفصل حول الواقعة. قرر على إثره المدير رفع الأمر إلى المجلس التأديبي، حيث سيمثل مومو ح بسبب قلة الاحترام للأستاذ وعدم الانضباط المفضي إلى خلق جو من البلبلة يخل بالعملية التربوية.

علّق الحارس مستنكرًا: "إنه الظلم بعينه".

وقف المتهم بين أيدي أساتذته، وشوشة بالصف حيث يجلس الأساتذة الفرنسيون الذين استمع أحدهم خارج الثانوية إلى رواية موموح، وأبلغ زملاءه الآخرين بحقيقة ما وقع.

يسأل الناظر الذي يرأس المجلس التلميذَ موموح بصيغة الاتهام:

- ما الذي دهاك حتى تقلل من الاحترام لأستاذك، ألا تعلم أنه كاد أن يكون رسولَا؟

ردّ موموح بسؤال:

- عفوًا سيدي... أهو سؤال أم تهمة؟!

قال الناظر:

- أنا من يطرح الأسئلة، أجبني ولا تسأل.

قال موموح:

- حسنًا، سأجيب سيدي. لم يصدر مني ما يقلل من احترامي لأستاذي المحترم. في إطار إجابتي على سؤال طرحه الأستاذ، أبديت رأيًا شخصيًا، ثم سألته عن تقييمه لرأيي. تهكم مني، وقال بأنه وحده من يطرح الأسئلة، وأضاف بأن لا اجتهاد مع وجود نص مدوّن في الكتاب المدرسي.

لاحظ مومو أن هناك شبه مداولات قبل الأوان بالجانب الفرنسي، ويسترسل موضحًا:

ـ كيف يمنعنا أستاذنا من طرح الأسئلة؟! أليس السؤال هو أصل كل شيء، كيف تريدوننا أن نفهم وأنتم تحجبون عنا اكتساب مهارات طرح السؤال؟ الذي لا يسأل لن يتعلم أبدًا. أما تقليل الاحترام للأستاذ فأترك تقييم الأمر وتأويل التهمة لمجلسكم الموقر.

وما الذي جرى بعد ذلك؟ يسأل الحارس.

رد موموح بأن الناظر أذن له بالانصراف، وأن مداولات المجلس أفضت في النهاية إلى ملتمس قدّمه أستاذ الأدب العربي لإعفائه من تدريس فصل موموح وعبد الكريم.

ودع موموح الحارس وشكره عن لطفه ومساعدته.

أنهى موموح مروره وطوافه التذكُّري، يهاتفه الطفل المشاغب في الوقت المناسب ليدعوه إلى زيارة بعض الأماكن بعينها.

رن هاتف موموح، يجيب:

- ألو...

قال المشاغب:

- "وما الحب إلا للحبيب الأول"... طبعًا، أنت ذاهب إلى هناك، إلى "الرِّبايْز" لتبحث عن الطلل المفقود، لقد غبتَ طويلًا يا عزيزي فانمحى ولن تراه ولو كرؤية "بقايا الوشم على ظاهر اليد".

يرد موموح بعنف:

- أنفدت منك كل تلاوين شغبك ولجأت إلى فنون المعاكسة؟ كيف لك أن تعرف اسم الحي الذي ذكرته؟ أم أنك صرت تعلم الغيب

وما يخفى؟ أنا بموقع لا يمكن أن تكون قد رأيته ما دمت تقول إنك لم تغادر تاحفورتْ.

يضحك الطفل مقهقهًا... ثم يعلق:

- هو صحيح أنني لم أنل من العلم ما نلتَه، لكنني نلت ابتدائيتي بتاحفورت، ما مكنني من الاطلاع على مذكراتك حيث قرأت كل ما دونتَه بها من خيباتك. بالمناسبة، لا تنس المرور على "جناناتْ تيزي"... حيّك "الأوّلاني"، ومُرَّ على محل الأكلات الخفيفة للعمّ "حَشُّوشْ" ب"أحرّاشْ" فقد كان له الأثر الطيب على ما صارت إليه أحوالك.

أوقف موموح سيارته بالشارع الكبير المحاذي للحي المسجل بذاكرته تحت اسم "جناناتْ تيزي". يمشي، فيستعرض الصور القديمة للحي الذي هو بصدد زيارته. فضاء كان، فيما مضى، موقعًا خاصًّا بكل المقاييس... اِسم جميل كان في البدء يحمل دلالة توحي بالماء والخضرة، قبل أن يحمله ماخور صفيحي تمارَس به الرذيلة أمام "ابن عَدِّي" مُغمَض العينين. حي "جنانات تيزي"... مجموعة حقول ترويها ساقية كما هو حال "لْمْرَاجْعْ" بتاحفورت، على الدوام خضراء تتخللها بعض أَشجار الزيتون وطريق ترابية ضيقة للراجلين فقط.

يتذكر موموح كيف استقر بملجئه الجديد الذي يفتقر إلى الربط بشبكتي الكهرباء والماء، وبدأ يتعرف على محيطه...

- "مرحبًا... اِسمي "هبة"، إن احتجتم لأي شيء فأنا وأمّي في الخدمة"، هكذا قالت جارة موموح الجديدة...

كان لوقع الاسم على طبلة أُذن مومو ح اهتزازات بطعم الغرابة اللذيذ... فأحس بالخجل ولم يردّ.

لم ينتبه مومو ح لجمال "هِبَة"... وبقدر ما راعته انسيابية تواصلها السهل، بقدر ما لام نفسه على عدم قدرته على ردّ التحية.

عاص الكلام... فخضع مومو ح لحيرة طارئة جعلته تحت وطأة مفهوم جديد يغيِّر أَسس العلاقة بين الذكور والإناث...

صعب على مومو ح استيعاب انقلاب الأدوار: ظاهر يفيد أن الفتاة تجيد كل شيء وأنها بعيدة عن التصنع والخجل، وشيء خفي أصاب الفتى بحُبْسة وعقدة شلّت لسانه.

كان مومو ح في أمس الحاجة إلى إخفاء خجله، فالتحق ببيته الترابي الذي كان بناؤه أقل جودة من منزل عائلته بتاحفورت، بيت سقفه من رقائق الصفيح لا يحمي من أحوال الطقس.

كان صوت نقر قطرات الماء "تَامْقِّيتْ" من السقف على أرض "تادَّارْتْ" بِتاحفُورت رومانسيًا يصبغ فضاء المنزل بروح الطبيعة... كان مومو ح يستعذب ذلك كثيرًا، فصار لا يطيق اصطدام زخات المطر بصفائح القصدير على سطح مسكنه الجديد، صوت يجعله يشعر وكأنه يعيش داخل طبل.

لم يفهم مومو ح دواعي تخصيص غرفة لقضاء الحاجة داخل "برّاكته"، لقد أَلف اللجوء إلى الخلاء والتّواري خلف جذوع أَشجار الزيتون... اِستقبح وجود المرحاض واستقذر المكان لنجاسته. فهم مومو ح بعد مدة مصدر الروائح الكريهة التي تستوطن الحي على الدوام.

كيف سيقبل موموح بالعيش بمسكن يربطه بيت الراحة بشبكة "الواد الحار"؟ وهل من التحضر والترقية الإِجتماعية أَن تسبح المدينة وينام سكانها فوق بحر لُجّيٍّ تغذّيه قنوات الصرف "الصحي"؟ وهل يستطيع موموح تحمّل كل هذا التحوُّل من البساطة إِلى التعقيد؟

أنهى موموح تفلسفه ليتداعى مع رفاقه الأَكَلَة على صحن من القصدير أَبيض اللون أُفرِغت به، حتى امتلأ، شعريّة أَعدّها أَحدهم طبخًا بالحليب... فعمّ البيتَ صليلُ الملاعق المعدنية في تدافع تنافسي لأَطفال ألفوا الأكل في هدوء الملاعق الخشبية.

يستيظ موموح ورفاقه باكرًا، يوم حافل بالأنشطة ينتظرهم، فيجلس "عَلِي" على ركبتيه، يسحب دقيق القمح من كيس أبيض... ودون أن ينخله يفرغه في إناء ويبدأ العجن... تتمّ عملية العجن بالتناوب كل يومين كما هو الحال بالنسبة لِإيصال طبق الخبز "الوَصلَة" إلى الفرن التقليدي "الفَرَّانْ" وإرجاعها منه وفقًا لاستعمال الزمن الخاص بكل واحد من أفراد المجموعة.

ينطلق الأطفال متأبطين محافظهم للالتحاق بثانوية علي بن برّي.

بين العجن و"الوَصلَةِ" وحمل الماء بالسّطل القزديري من "السَّبَّالَةِ" العمومية، وبين تدبير الزمن المدرسي، يعيش أطفال تاحفورتْ حياتهم وهم يتقلّبون على رمضاء الضّنك والبؤس.

تنتظر المجموعة حلول بداية الأسبوع بفارغ الصبر... يلتئم سوق "الْبِيرُو" كل إثنين، وهو سوق يتمّ تموينه بالمواد الأساسية من طرف أرباب الشاحنات من التجار المتخصصين في الأَسواق

القروية... إنها المناسبة الوحيدة التي تستغلها عائلات قرى الأعالي لتموين أَطفالها بـِ "تيزي" بالمئونة.

إنها الثامنة والنصف مساء... ولا يزال مومروح وصحبه بـِ "تيزي نْتّْجْ" أمام مرآب لشاحنات الأسواق قبالةَ السوق البلدي بساحة "أحرَّاشْ" في انتظار وصول شاحنتي السيّد "البَشِير" والسيد "المُخْتار" القادمتين من "الْبِيرُو".

مُدٌّ من الدقيق وعشرة دراهم... هو كل ما تلقّته المجموعة المكونة من أربعة أطفال كتموين للفترة القادمة.

جلس مومروح على حصيرته الخاصة وأنجز واجباته المدرسية، ثم طفق يفكر فيما قالته "نَزْهَة"...

فهم مومروح منذ الوهلة الأولَى أن التوازن المتحرك والانتشار التدريجي هو الوحيد الكفيل بمساعدته على حلحلة مشاكله، وتجاوز صعوباته، وتحمل تناقضات حياته الجديدة...

هل سيقرر الفتى التسليم بأن كل تغيير في علاقة الإنسان بالبيئة والمكان يعني القبول بأشياء غريبة قد تتناقض مع مبادئه؟ وهل سيقبل مومروح يا ترى بالمشاركة في لعبة أهل المدينة... هو لن يقبل بالكذب على نفسه ولو كان ذلك من شأنه أن يسهّل عليه ظروف حياته أو ثمنًا للتكيف مع محيط لم يختره.

الوضع الجديد يفرض إِذًا عزمًا على الثبات لمواجهة ضغط عالم "تيزي" الجديد... ما يقتضي مسك العصا من الوسط في اتّزان له وجهان: الأول يستلزم الحفاظ على ما حصل عليه مومروح من جدّه من مؤثرات قديمة، والثاني أن يتطور مومروح بأسلوب متدرج.

أخلاق موموح ولباسه، لكنته وعُجمة لسانه، صعوبة إفصاحه بالعربية، وتسريحة شعره... هي أمور لا تساعده على تنفيذ استراتيجيته.

رغم لطف "هِبَة" وعطف "نَزْهة" وظرافة الأساتذة الفرنسيّين لم يستطع موموح أن يهزم خوفه وتوتره المزمنين، فصار حذرًا وحريصًا في مواقفه ومُفرملًا لذكائه. لكن، كما يقال... "قد يُؤْذى الإنسان الحريص مِن حيث اطمأَنّ".

ما عاد بالكيس دقيق... فاضطر الفتية إلى اقتناء خبز السوق "الكُومِير"... هي أول مرة يتذوّق موموح طعم هذا الخبز الرومي العجيب الذي ذكّره ببياض خبز التغذية المدرسية، ليتدرج فتى "تاحفورتْ" بين خبز الشعير وخبزِ القمحِ ثمّ نوع "الكُومِير".

وفي نفس السياق تدرج رفاق موموح بين "البلبولة" و"الدّْوَاز" ثم "البيضْ أُو مَطِيشَة" أوْ "مَطِيشَة بالبِيضْ" أكلة الكادحين بامتياز... فتضحك "نَزْهَة" من موموح ببراءة من اللون الأَصفر الذي بدا فاقعًا على الإبهام والسبابة والوسطى بفعل صباغة الزعفران الغذائي حين رفع يده ليجيب على سؤال الأستاذ...

حل يوم الأحد، فقرر الفتية التدرج بطريقة أخرى بالذهاب إلى حمّام "البَاشَا" بِ "تيزي نُّتّْجْ" وما أدراك ما حمَّام "البَاشَا"... فضاء شاعري بِ "القبّ والقرقابة" الخشبين، وبروائح الغاسول والشاي في كؤوس خاصة...

بين الاستحمام بالماء البارِد ب "الدُّوشِ" العمومي تحت شلال "تاصبَّابْتْ" بالهواء الطلق وبين ولوج حمّام ذي شهرة عالَمية لأول

مرة في حياته، يتحرك مومو ح بتدرج حذر بين الدرجات الحرارية المختلفة لغرف الحمّام... يأخذ موموح الليفة "الْكِيسْ" ويفرك جسمه ليُخرج خلاياه الميتة المتراكمة منذ زمن بعيد.

بين "الكسَّال" الذي أذابت سخونة الحمَّام جسمه النحيف، و"القُبِّ" المسكين الذي صار اسمه يُطلق على الاغبياء من التلاميذ، استسلم موموح ورفاقه لحلاوة الاسترخاء. استرخاء لن يكون كافيًا لمساعدة أطفال بعمر الزهور... رمى بهم مطلب الترقية الاجتماعية لوحدهم بالزحام، وحكم عليهم بضرورة حلحلة صعوبات الحياة والتوفيق بينها وبين عقبات التفوق الدّراسي ومتطلباته... حلحلة تستلزم التنازل على كثير من الأشياء.

نام موموح في أحضان واقع يتغير... تحوُّل يحاول فتى تاحفورت فهمه، لكن... بتفكير قديم. هل كان موموح حين رمت به حافلة حمّادي بمدينة "تيزي" يظن أن أهله سيستودعونه حي "جنانات تيزي"، رغم طبيعة الأنشطة التي كانت تمارس بحواشي ساقيته؟

كيف له أن يعي ذلك وقتها وهو يحل ب "تيزي" لأول مرة؟ كيف له أن يستوعب، وقد تاه بصر البدوي الصغير بين البياضِ المخيم على المدينة وبين الأسلاك المعلقة في الهواء بانتظام على طول طريقٍ، ليست كطريقه التي تحمله إلى أعالي "بُويْبْلان"، حيث يرتد البصر من نصاعة البياض الوحيد الذي يعرفه، وحيث تتسامق أشجار الأرز في تلقائية طبيعية؟ كان همه الوحيد هو محاولة استيعاب دواعي البون الشاسع بين فضائين. واحد تطرح به وسائل النقل صعوبة حقيقية، وآخر تعج شوارعه بالسيارات.

يتذكر مومَوح جيدًا كيف شُدِه ابن قريته شدْهًا وهو ينظر إلى البنيان كيف رُصَّت حيطانُه، وإلى الأشجار كيف تصافَّت وانتظمت، وإلى الأطْوِرة كيف رُصفت واستوت، وإلى الأبواب والنوافذ كيف تساوت وتماثلت...

يرنُّ الهاتف... يجيب موموح:

-ألُو...

يردُّ البدوي الصغير الذي يتابع في تخاطر مثير:

- أيَغشاك الندم وأنت تتذكّر نزولك من حافلة حمَّادي؟ حسِبتَ يومها أنّ ما كان مِن خوفك قد مضى وانتهى بركوبك الحافلة. ليت الفرصة تعود حتى ترفض النزول، أليس كذلك؟

لم يرُد موموح لأنه كان يستمتع بشريط الذكريات التي رافقت حلوله ب "تيزي" حين وضع كل علامات بُدائيّته فوق الدّرج الأَخير عند أَسفل المنحدر المعلوم "بابْ الجَّمْعة"، حيث جلس ليأخذ له نفَسًا لعله يقوى به على مواجهة هذا الوَفْر من التحضُّر.

يبحث موموح عن الساقية التي كانت تؤطر "بَراريك" الحي الصفيحي، فتتيه سارِيّتُه بين الأَزقة الجديدة التي غيبت الماء، والخضرة، والأشجار التي رحبت به ذات وُلُوجه إقامته الترابية بصفيح "ساخن" اسمه "جنَانَاتْ تيزي"...

ما عادت هناك بيوت أُقيمت من صفائح القصدير لها أبواب صنعت من رقائق الصفيح كُتب عليها بخط رديء "ممنوع الدقَّانْ"... كانت الأبواب على الدوام مشرعة، تقف على عتباتها فتيات الهوى يعرضن سلعتهن في لباس خفيف يظهر مفاتنهن.

يرن الهاتف مرة أخرى:

- من فضلك لا تزعجني فأنا منشغل ببعض أموري، يقول موموح.

يرد الطفل المشاغب بصيغة تهكمية وانتقامية:

- اِدفن رأسك في التراب كلما تذكّرت أنك أقمت بين "صاحبات الرايات الحمر" بِ "جنَانَاتْ تيزي" حيث قُرِعت صَفاتُك، واحمد ربك إذ حفظك ولم تُصب بالجنون بسبب أَجْنانِ جِنانِ "تيزي" حيث تُعرض الأجساد بسوق المتعة المحرَّمة وحيث يغُض مجتمعك "المتمدن" الطرف عن صناعة نكاح الرهط المنظم كضريبة على الترقية الاِجتماعية التي ذهبت تبحث عنها. إنه نسق جديد... وأي نسق!

يبتسم موموح ضاحكًا ويقول مستنكرًا:

- أتظن أني فُصلت عن تاحفورتْ، الأرض الأمّ، كما يُقطع فسيلُ النخلة ليُغرس بأرض غائبة عن القلب فقط لأنني أريد حرث العاجلة؟ أتعتقد أنني تنازلت ونزلت من الأعالي من أجل جِنان "جْناناتْ" تيزي؟

يرد الهاتف وقد اصطبغ صوته بالجدية:

- آهٍ يا موموح، لو أَحببتَ وقتها أن تصير راعيًا تتتبّع بقطعان أهلك المراتعَ الخصبة بالأعالي لَوُفيت حقك من الدنيا... آهٍ، لو بقيت هنا على الدوام ماشيًا خلف بقرتنا شاديًا تردّد (إزْلان) قبيلتك لَنِلت شرف سماع رجع صوتك تحكيه صخور قريتك، وعشت سعيدًا بعيدًا عن عِثار المدينة وأجنانها...

يرد موموح مقاطعًا:

- أمنياتك جميلة... لكن، قل لي، هل كنتُ أستطيع، لو حققت رغباتك، أن أساهم في حل الصعوبات التي تقلق أهلي وأنا خلف القطيع؟ لقد رضيتُ بما لا أستطيع قبوله حتى يحصل الأفضل، ورفضت أن أخاف على عملة جدِّي القديمة من الضوء... فجدّي الفقيه لم يكن يستطيع القبض على واقع القرية.

- ألُو ألُو... ينقطع الخط لتنتهي بذلك المكالمة.

وقف مومو ح أمام فندق متوسط الفخامة، لم يتمكن من عد "كَروَاتِه" عفوًا نجومه، نزلٌ صار يتوسط الفضاء المسجل بذاكرة موموح على أنه حي "جنانات تيزي". ينظر على يمينه ثم على يساره، يبحث له عن بناية قديمة وعن العلامات المثبتة في ذاكرته لعله يهتدي بها ليجد ضالته. لا شيء.

كان الجو جميلًا. سيارات كثيرة بالموقف أمام الفندق، عجوز جالسة على الرصيف تحاول بين حين وحين الرفع من صوتها الخفيت لتستجدي المارة.

اِستوقف موموح شابًّا كان مارًّا أمام باب الفندق، سأله عما صار إليه حي "جناناتْ تيزي" الذي كانت ساقيته تخترق المكان؟ تفاجأ الشاب بالسؤال، رد بسؤال حول الحي الذي يقصده موموح، مؤكدًا أنه لم يسبق له أن سمع بحي يحمل هذا الاسم بمدينة "تيزي"، اِعتذر وتابع المشي.

اِستدار موموح على صوت العجوز المتسولة التي تجلس غير بعيد وهي تخاطبه متهكمة من اختياره استفسار شاب عن حي ما عاد موجودًا منذ عقود، قالت:

- كيف تسأل الشاب عن حي انقرض وعن ساقية جفت واندثرت قبل مجيئه إلى هذا العالم؟

اِقتربمومح من العجوز، كانت في الثمانينات من عمرها، قليلة الروح، تغلبت عليها الشيخوخة. على الرغم من تجاعيد الزمن الواضحة على وجهها، وأخاديده التي تعدّ بها سنوات عذابها، والشعيرات البيضاء التي أطلت في غفلة منها على أذنيها، فقد ظهرت عليها ملامح جمال ولّى. اِستسلمت لمرور الأيام، صارت غير مكترثة بمظهرها، فبدت ملابسها رثة وخشنة.

كانت تضع إلى جانبها على الأرض أغراضها، كأنها مستعدة للسفر، رزمة ببعض ملابسها ملفوفة في ثوب قديم بألوان الوطن... راية قديمة باهتٌ لونها، فبدى الموقف كأنها تحمل الوطن عوض أن يحملها.

اِستفسرها مومح في غير اكتراث، كيف لها أن تكون متأكدة مما قالت وهي المتسولة التي لا تهتم سوى بحالها؟ أجابت بأنها تعرف جيدًا أرجاء الحي الذي يستكشف عنه، تمامًا كما يعرف كثيرٌ من كبار السن ب "تيزي" تضاريس جسدها.

بدا الأمر غريبًا ومهمًّا يغري بالمتابعة، جلس إليها على حافة طوار موقف السيارات حين بدأت تحكي.

"أنا للّا مليكة، كنت في شبابي، منذ انتقالي من قريتي إلى مدينة تيزي، ملكة الساقية التي تسأل عنها قبل أن ينتزعوا مني مملكتي. كنت أملك ثلاث "برّاكات" أسكن بإحداها وأكري الاثنتين الأخريين للبنات زميلاتي في الحرفة".

"قبل ذلك، كنت من منتسبات الماخور الذي أقامته سلطات الحماية وفقًا لنموذج عصري في مستوى فندق بنجمة واحدة. منتسبات الماخور أغلبهن من الوافدات من البادية. أتذكر جيدًا اليوم الذي جاء أحد المسؤولين بزيه الرسمي. وقف بالباب الرئيسي للماخور، نادى على رئيسة النقابة باسمها، خرجت إليه عارية الرأس بلباس العمل. قال كأنه يبلغها أمرًا:

- أنا أخبرك، وعليك أن تخبري البنات الحاضرات والغائبات بأن السلطات قررت الإغلاق النهائي للماخور.

هم المسؤول بالانصراف حين استوقفته الرئيسة قائلة بصيغة الاحتجاج:

- الأمر لا يستقيم يا سيدي المسؤول، كيف تغلقون الماخور؟ إنه مورد رزق البنات الوحيد.

رد المسؤول بسرعة قبل أن ينصرف:

- لأن خدمات الماخور تتناقض وقيم الوطن المستقل.

جو مكهرب أمام بناية الماخور، بنات يمشين ويجئن يعبرن عن سخطهن وقلقهن، ورئيسة نقابة خدمات الماخور تراجع البلاغ الذي سيصدر للتعبير عن رفض المهنة للقرار. حضر ممثل السلطة بعد أن ذاع خبر نية النقابة عقد تجمع احتجاجي، قال يخاطب الرئيسة:

- اِسمعي، وأخبري جميع البنات بإعلامي هذا... كل تجمع غير مرخص به ممنوع، وعلى الجميع أن يتحمل تبعات أي خرق للقانون.

كل ما نتج عن المفاوضات هو إعلان ممثل السلطة عن منح منتسبات الماخور مهلة أسبوعين لمغادرة المكان وإفراغه. كان معي وقتها أحد زبائني، فتدخل ليطمئنني قائلًا:

- لا تهتمي بالأمر، لها "حلّال"... أنت تعلمين أن مثل هذه القرارات تنتج عنها صعوبات، فترافقها في كثير من الأحيان فوضى خلّاقة ضرورية لحلحلتها.

قلت:

- كيف ذلك؟

قال:

- سأدلك على سمسار متخصص، وأتمنى ألّا تُفوّتي فرصتك في الماخور الجديد الذي استنبته أحد أباطرة البناء العشوائي.

بعد يومين، ذهبت إلى مكتب السمسار "ولد عريشة"...

- اِجلسي من فضلك. قال السمسار وقد أغمض عينه اليسرى لتفادي دخان سيجارته التي لا تغادر شفتيه.

رجل طويل، كثير الكلام، بابتسامة صفراء لا تفارق وجهه، يجلس إلى طاولة مستطيلة مغطاة بغلاف بلاستيكي، ترافقها ثلاثة كراسي خشبية تآكلت جنباتها. على الطاولة بضع ورقات بيضاء، ونسختين من ورق الكاربون الأسود، وقلم أزرق ظهر من مستوى مداده أنه سيسلم الروح. أضفت الآلة الكاتبة التي تتوسط الطاولة بعضًا من الرسمية على المرآب/المكتب.

- لم يبق لدى "الحاج عزوز مُولْ الكُعدة" سوى ثلاث "برّاكات"، أنت "مرضية الوالدين"، يجب عليك أن تطرقي الحديد

"مَا حدُّو سْخُونْ". يؤكد "ولد عريشة" بثقة لا تترك مجالًا للمبالغة أو الشك.

- السلام عليكم. ألقى التحية رجل خمسيني عند ولوجه المكتب. سحب كرسيًّا، ثم جلس.

- أهلًا سِيدْ "الشيخ"، مرحبًا. رد السمسار دون أن ينظر إلى الزائر الذي بادره بالسؤال قائلًا:

- (كِي دَايْر السُّوقْ؟ كايْنْ شِي بْهايْمْ؟).

- (ما خاصّْ خِير). يجيب السمسار.

اِنصرف الخمسيني مشيرًا إلى أنه سيعود بعد حين.

يخاطبني السمسار قائلًا:

- كل شيء رسمي، (شْفتِي بعينِيكْ، ما كايْنْشْ اللَّعبْ).

أراد أن يقنعني بأن الأمور تتم بمباركة شخص رسمي، قال إنه "الشيخ"، لكنني لم أتيقن من الأمر وقتها، ولم أنتبه إلى المقلب بالرغم من أن دخول "الشيخ المفترض" كان غريبًا بميكانيكيته.

كان الموقف مصطنعًا. ثم إن الإنسان لا يفكر أمام انعدام فرصة الاختيار وضغط الحاجة. ابتلعت الطعم حين قررت أن الفرصة المتاحة هي الأفضل لي.

أديت ثمن تفويت البقع الثلاث "طَانَانْ" بين يدي السمسار من المبلغ الذي وفرته من مداخيل نشاطي بالماخور... وتلك قصة أخرى.

فجأة... وضعت مليكة يدها على رزمتها وهبّت للقيام. قالت وقد أصابها الفزع:

- إنهم قادمون، من فضلك ساعدني على الوقوف لأغادر حتى لا يقبضوا علي. إنهم إن تمكنوا مني سيلقون بي بدار العجزة، أفضل أن أموت على أن أذهب إلى هناك. لا أعرف ابن العاهرة الذي أوحى إليه عجزه بفكرة إحداث دار للعجزة، ولم يجعله يتفوق في اختيار اسم ملائم.

حل بالمكان عونان من القوة العمومية بلباس رسمي. تدخل موموح ليؤكد أن المتسولة برفقته. تفهم العونان الأمر. كانا لطيفين، لكنهما أصرّا على مغادرة المتسولة لجنبات الفندق.

ساعد فتى تاحفورت مليكة على الوقوف، أسندها وذهب بها إلى شرفة المقهى المحاذي للفندق. أجلسها، أشار إلى ضرورة دخوله إلى المقهى لحاجته إلى دورة المياه... وسيعود.

بعد هنيهة، يخرج موموح من المقهى ليجد النادل يصرخ في وجه مليكة ويجرجرها محاولًا إبعادها عن شرفة المقهى. دفع بها إلى الرصيف، سقطت المسكينة وهي تمسك برزمتها، وتحمي بها وجهها، وتئن من جراء الرضوض التي أصيبت بها.

هب موموح مسرعًا، يصرخ من بعيد في اتجاه النادل:

- أُتركها، أُتركها... حرام عليك، ليس من حقك أن تعاملها بعنف، إنها عجوز بالكاد تستطيع الحركة، كان حريًّا بك أن تساعدها عوض تعنيفها... ثم إنها معي، أنا الذي أجلستها بالشرفة.

اِنسحب النادل، جلس موموح ومليكة بشرفة المقهى.

- ماذا تشربين؟ قال موموح. أجابت مليكة:

- لن أحرجك أكثر، لن يقبلوا بتقديم خدماتهم لمتسولة مثلي.

نادى مومــوح علـى النـادل، أبلغـه طلبيـة لشخصـين، بـراد شـاي وفنجان قهوة بالحليب.

دقق موموح النظـر فـي ظـل شخص حجب عنـه ضـوء الشمس، رفع رأسه يتابع الموقف. خاطب الواقف مليكة ممازحًا:

- أهلًا، ألا تخشـين أن أُصـاب بـالغيرة بسـبب جلوسـك إلـى رفيقك الجديد؟

ردّت مليكة وتبسمت ضاحكة:

- لم أركَ منذ مدة، أين غطستَ يا "وَلْدْ اللذِين"؟

ثم نظرت إلى موموح وقدمت له أحد زبائنها المخلصين الذين حفظـوا الـود وصـانوا العهـد. إنـه السـيد حمّـاد، سـبعيني ارتـبط بصـداقة متينة بمليكة منذ زمن الشباب، يعرف عنها كل شيء، ويعلم تفاصيل حياتهـا بكـل جوانبهـا. رجـل طويـل القامـة بلحيـة متوسـطة، يضـع علـى رأسه رزة صفراء، ويلبس لباس أهل وزان.

- مرحبًـا، تفضـل سـيدي بـالجلوس. قالهـا مومـوح وقـد وقـف ليسلم على حمّاد.

رد حمّاد التحية شاكرًا موموح ومعاكسًا مليكة وهو يسألها هل معها نقود لأداء ثمن مشروبات ضيفيها؟

ضحك الجميع...

- إنـه مـن الجبـل، هـاجر إلـى مدينـة "أكْلْزِيمْ" حيـث اشـتغل فـي التعليم قبل ان ينتقل إلى مدينة "تيزي". هكذا قالت مليكة عن حمّاد وهي تخاطب موموح.

- جميعنـا مـن الجبـل ومـن العـالم القـروي قبـل أن تسـتهوينا المدينـة بمـا يوافـق هوانـا. أنـا مـن بُويْبْلان، أهـتم بدراسـة الأنسـاق والنماذج الاقتصادية وبدواعي الهجرة وتبعاتها. ردّ موموح.

أخبرت مليكة حمّاد بأن مومو جاء يبحث عن الساقية القديمة بحي "جناناتْ تيزي".

- وماذا يهمك من أمر الساقية، ومن مصير حي "جناناتْ تيزي"؟ أكنت من مريدي "برّاكاته" الصفيحية؟ يقول حمّاد سائلًا موموح.

ردّ موموح بأنه كان يسكن الحي في ستينيات القرن الماضي، قبل أن يغادر "تيزي" إلى فضاءات أخرى قصد الدراسات العليا. عاد لأول مرة معتمرًا، ويهمه أن يعرف كيف انقرض الحي وجفّت الساقية، ودواعي ذلك وعلاقته بتطور النسق.

- "تنْفْعكْ الزيارة". الآن فهمت... كنت قبل قليل أسأل نفسي عما يمكن أن يجمع بين شخص يبدو محترمًا وعجوز متسولة. علّق حمّاد مقهقهًا.

ردّت مليكة بصيغة التهكم تشكر حمّاد وتنبهه إلى أن المتسولة إياها كانت عشيقته ذات زمان. ثم أشارت إلى أنها كانت، قبل وصوله، تجيب على أسئلة موموح حول أسباب هروبها من قريتها، وتحكي له عن مقلب شراء "البرّاكات الثلاث"، حين حل بالمكان عونان من القوة العمومية، فسكتت مليكة عن الكلام غير المباح.

يتبادل موموح وحمّاد النظرات، يعم الصمت لثوان، ثم يسأله موموح عن حقيقة مليكة وعلاقتها بحي "جنانات تيزي".

نظر حمّاد في العمق الغائر لعيني صديقته مليكة، فاغرًا فمه أخذ يفرك خدّه بسبابة يده اليسرى كأنه يتألم... يؤكد أنه عايش تطورات حي "جنانات تيزي"، وكان شاهدًا على معاناة مليكة، ويعرف حياتها المهنية في كل تفاصيلها. إن حياتها تغيرت رأسًا

على عقب يوم ضاع حقها بين الوعد بتعويض المنزوع ب "بقعة" بإحدى التجزئات الرسمية، وبين جشع "الحاج عزوز مُولْ الكَعدة". لم يكن للوعد أن يصير دَيْنًا في عنق الحر حين تأكد للسلطات أنها لا تملك أي حجة توثق لعملية شرائها ل "لبرّاكات"، التي تبين أنها مسجلة بالمحافظة العقارية باسم الحاج عزوز منذ فترة.

وبين الحديث عن البيئة، والقول بالانتقال إلى نسق عمراني جديد يخدم التمدن، لم يتوانوا في محو رئة المدينة والقضاء على المساحات الخضراء، فأفضى الأمر في أحسن الأحوال إلى ظهور مبانٍ مصندقة بدون انسجام وجمالية من حيث حجمها ومظهرها... كما ترى.

يواصل حمّاد شاهدًا على أنهم شردوها يوم جردوها من "برّاكاتها"، فصارت تجوب الشوارع والطرقات، وتحولت إلى طعم للصيادين على الأقدام وبالسيارات. بقيت على تلك الحال حتى خانها جسدها، غدرت بها الأيام فرمت بها حيث وجدتَها جالسة. كان أبناء الفاجرات من الزبائن والمريدين ينادونها في شبابها ب (مَلِيكَا لَلّا مَلِيكَا)، أما الآن فيكتفون بـِ (عِينْ مِيكَا).

يسأل مومومحُ حمّاد عن الأسباب التي دفعت مليكة إلى الهجرة من قريتها والإقامة بمدينة "تيزي"... يتفادى حمّاد الجواب قائلًا إنه يفضل أن تتولى مليكة الرد نظرًا لخصوصية الموضوع.

أغمضت المتسولة جفنيها قبل أن تفتحهما، أطرقت برأسها وأرخت عينيها إلى الأرض وهي تلاعب رسومات مربعات الرصيف بقطعة نقدية.

ترددت، ثم قالت متنهدة:

- قبل قدومي إلى عالم "تيزي"، كنت أعيش مع أسرتي بقريتنا التي تبعد عن المدينة بسبعين كيلو مترًا. أنا البنت الوحيدة من بين أربعة أبناء. صغيرة إخوتي ويتيمة الأم، كنت طفلة مدللة من طرف والدي، الذي كان يملك أراضي فلاحية شاسعة وقطعانًا من الأغنام والأبقار. كنا نسكن جميعًا مع إخوتي الثلاثة المتزوجين في منزل والدي، لكنني لم أستطع بناء علاقة مستقرة مع زوجاتهم اللائي أفسدن تعاملهن معي بسبب غيرتهن من الدلع الذي أحاطني به أبي. وضعٌ أساء إلى علاقتي بإخوتي.

توقفت هنيهة ثم واصلت:

- سمعتُ حليمة زوجة أخي الأكبر، مرات عديدة، توشوش له بالباطل وهي تحرضه ضدي. صبرت على الأمر احترامًا لأخي، لكنني صرت أرى منه غير ما اعتدته بحضور أبي.

عقّب مومو ح على قولها متسائلًا:

- لو كان يدري الحقيقة ما تمادى، ولو كان يعلم كيد النساء لتروّى في الأمر، أليس كذلك؟

أجابت مليكة بأن الفرضية خاطئة، كما سيتأكد ذلك من تطورات القضية.

ترقرق الدمع في عيني المتسولة، بدا أنها عاجزة عن التعبير. تعتذر وهي تتمنى أن تخلصها الدموع من توترها. تواصل متأثرة وهي تحكي عن موت أبيها.

كان الجو كئيبًا ذات صباح خريفي، تلبدت السماء بالغيوم حتى اسودّت وكأنها تعلن عن قدوم عاصفة. دخلت مليكة إلى غرفة أبيها

لتناوله الدواء... لم يرد الأب على تحية ابنته. فاجأتها برودة يده، وضعت يدها على كتفه، تحركها بحنية وهي تحاول إيقاظه. يهرع الجميع إلى الغرفة على صدى صرخة مليكة. أغمض الأب عينيه إلى الأبد... رحل عن هذه الدنيا وعمر مليكة لا يتجاوز ثلاثة عشر عامًا.

دارت الأيام، صارت مليكة يتيمة الأبوين، فقدت كل شيء، فوجدت نفسها وحيدة في مواجهة إخوتها وزوجاتهم.

بالكاد مرت ذكرى الأربعين على وفاة والدها حتى اجتمع إخوتها خلال لقاء مغلق ليتفقوا على ما اتفقوا عليه.

في اليوم الموالي للاجتماع، وبعد الفطور، طلب منها أخوها الأكبر أن ترافقه لمراقبة بعض العجول حديثي الولادة. بقدر ما استحسنت طلب أخيها مرافقتها له، بقدر ما استشعرت الخوف مما قد يكون إخوتها يخططون له.

وصلا حيث العجول، توقف أخوها فجأة، ووضع يده على كتفها بحنية غير معهودة وقال: "تعلمين أنني وإخوتك منشغلون بمستقبلك، وإنه ليحزننا أن نراك منعزلة ووحيدة، ونخاف عليك من الانكسار والاكتئاب. لذا، ارتأى إخوتك أن يزوّجوك". وزاد قائلًا بكل صفاقة ودون أن يرفّ له جفن: "إن العريس موجود، وموافق على الزواج بك. هو "بوجمعة" الذي يشتغل عندنا ويسهر على فلاحة حقولنا. إنه رجل طيب وخدوم، ولن تجد العائلة أفضل منه للاعتناء بك وللحفاظ على لمّ الشمل".

كذلك أفصح لها أخوها عن الأمر الذي جعله يدعوها لمرافقته.

اِنتظر ردّها طويلًا، قبل أن تبدي انزعاجها من الأمر. عبرت له عن امتعاضها، ورفضها، وأسفها على تفكير وتصرف إخوتها. أوضحت له وهي تحتج بشدة، أنها ما زالت قاصرًا لم تبلغ سن الزواج بعد، ثم إن السيد "بوجمعة" أشرف على الستين من عمره.

لم تكن تتصور أن أخاها، اِبن أبيها وأمها، سيرد على رأيها بتلك القساوة كلها وهو يقول غاضبًا:

- حسبتك ستحترمين قراري، وتفرحين لاهتمام إخوتك الذين يقدرون مصلحتك، لكن يظهر من ردّك أن المرحوم والدي تساهل في تربيتك وبالغ في تدليلك. اِتضح لي أنني سأكون مضطرًّا لإعادة تربيتك.

اِسمعيني جيدًا، أنا لا أقبل أن تكون في عائلتي بنات لهن رأي يخالف رأيي ولا يحترم عاداتنا وتقاليدنا. ثم إن زواجك سيؤمن شرف العائلة باعتباره ستر لك. ستتزوجين السيد "بوجمعة"، يعني أنك ستتزوجينه شئت أم أبيت. "اِنتهى الكلام".

قالت وقد فاضت عيناها: "يا أخي، أنا لن أتزوج "بوجمعة"، سأبقى حرة ومستقلة، أنتظر منكم فقط أن تُمدّوني بنصيبي من تركة أبي، هو مُناي وحلمي، سأدافع عن حقي أو أهلك دونه".

هجم عليها أخوها كالثور الهائج، صفعها على وجهها بقوة، سقطت أرضًا، ثم طفق يشبعها ركلًا ويجذبها من شعرها وهو يصرخ:

-ألا تستحيين من قولك الشنيع هذا؟ متى كانت النساء من بنات الأصول في قبيلتنا يتجرّأن ويطالبن إخوتهن بنصيبهن من الميراث؟

تركها مرمية عند باب حظيرة العجول، وانصرف يشتم اليوم الذي جاءت فيه إلى هذا العالم.

ما كان أخوها ليعنفها بتلك البشاعة لو لم يكن يتعرض هو الآخر لقهر زوجته. ثم إنه، بسبب غبائه، لم يعلم أنه طلب من أخته حاجة لا تُنال. كما أنها "كَدمْت في غير مَكْدَم" حين طالبته بنصيبها من تركة أبيها، بسبب جهلها بأن ذلك يتعارض مع الأصول والتقاليد المرعية.

تقليد جرت به العادة، حيث صار من العيب أن تتجرأ البنت وتطالب بحقها، بل هي مطالبة بالتنازل عنه بالرغم من أن "... للنساء نصيب ممّا ترك الوالدان والأقربون ممّا قلّ منه أو كثر نصيبًا مفروضًا".

بعد لأي، اِستطاعت مليكة أن تلملم جسمها الذي آلمته الكدمات. رفعت رأسها، وجدت العجول تنظر إليها مرعوبة وهي تكاد تنطق لتعبر عن تضامنها.

عادت إلى المنزل مهيضة الجناح، مكسورة الخاطر بالكاد تحملها قدماها. قبل دخولها ببضعة أمتار، رأت أخاها الأكبر بالداخل يلوح بيديه، وسمعته يصرخ دون أن تتبين ما يقول.

مرت على فناء الدار حيث كان الجميع واقفين كأنهم ينتظرون عودتها. لم يتحرك أحدهم ليسندها، فأحست كأنهم سعداء بما أصابها... فزادت آلامها. قررت، وهي ترمي بنفسها على فراشها، أن تغادر منزل عائلتها. لم تفكر وقتها في الوجهة التي ستقصدها، ولم تكن تتوفر على سنتيم واحد.

أخذت قسطًا من الراحة، ربما غفت قليلًا... مر وقت الغداء وقد نسيها الجميع. أطلت على الفناء من شق باب غرفتها، لم يعد هناك من أحد. اِنصرفوا إلى قيلولتهم. جمعت بعض أغراضها، خرجت متسللة لا تلوي على شيء. حاولت الركض لكنها لم تقْوَ، فصارت تستحث خطاها حتى تبتعد بسرعة. بعد المشي لبضع دقائق، اِستدارت، لم تعد ترى منزل عائلتها، فبلعت ريقها وتنفست الصعداء.

مشت الهوينى حتى بلغت طريق السيارات، وقفت بصعوبة على نقطة انطلاقة الفرار. دون أن تختار القارعة التي وقفت عليها، ودون أن تعي الوجهة التي ستقصدها، مدت يدها اليمنى عساها تستوقف سيارة تحملها إلى حيث لا تدري.

إنها الهجرة، أو الهروب، ربما كان القرار فرصة للتغيير بإنهاء العلاقة مع المكان، أم هو انتحار بقطع شرايين الروابط العائلية؟ في جميع الأحوال، فهمت مليكة أن لا حظّ لها في العيش بين إخوة سيفتشون بين ثنايا أنوثتها عن نقط ضعفها التي ستلقي عليها بكل الشرور.

بعد لأي، ومُضيّ وقت غير يسير، أحدثت سيارةٌ صوتًا مفزعًا في فرملة مفاجئة شقت طبلة أذن مليكة. وقفت بعيدًا، ثم رجعت القهقرة حتى وصلت أمامها. أطل منها شاب، قال:

- (وَا فِين غَادي الزِّينْ؟) إلى أين أنت ذاهبة أيتها الجميلة؟

بالكاد نطقت وقد ظهر عليها أنها ليست بخير، طلبت منه أن يحملها إلى حيث هو ذاهب. نزل الشاب من سيارته، ساعدها على الركوب، ثم أغلق الباب وانطلق.

اِنطلقت السيارة، فبدأت حياة جديدة...

اِستيقظت من غفوتها على صوت الشاب يطلب منها مسك أكلة خفيفة ملفوفة في ورق باهت البياض، مع قنينة صغيرة من مشروب غازي. قال وهو ينطلق من جديد:

- أنت متعبة جدًّا، وقفت قبل قليل بالمحطة، نزلت واشتريت الأكلات، ثم عدت ولم يوقظك كل ذلك! ...

شكرته. أحست كأنه ينتظر منها أن تسأله، لكنها لم تفعل، عادت إلى صمتها... وغفوتها.

أيقظها قبل الوصول ببضعة كيلو مترات، قالت وهي تفرك عينيها:

- هل وصلنا؟

رد بأنه ليس بعد. اِستغل الفرصة ليسألها بدوره، قال:

- ما قصتك؟ حالتك سيئة جدًّا، من فعل بك ما أنت عليه؟

أنصت إليها وهي تقص عليه مصيبتها بكل تفاصيلها المملة. أمام عنف المأساة، كان لا بدَّ مما ليس منه بُدٌّ... عبّر الشاب لمليكة عن استنكاره وتضامنه التامّين.

أوقف الشاب سيارته، لم يفكر ولم يتردد ثانية واحدة حين أنزل مليكة وأدخلها إلى منزل عائلته وهو يسندها. فاجأ المنظر أمّ الشاب، أسرعت لمساعدة مليكة على الجلوس على كرسي بفناء الدار.

جرجرت الأم ابنها من ذراعه ودخلت به إلى غرفتها. اِنتهى إلى مليكة بوضوح محتوى الحوار العاصف الذي دار بين الأم وابنها.

بعد حين، جاءت الأم بكأس من الماء، مدّته في اتجاه الفتاة، ثم قالت مستفسرة:

- من تكونين؟ وماذا تريدين من ولدي؟

ترد مليكة باكية:

- أنا ضيفة الله لليلة واحدة، لا تخافي سيدتي، أنا ضحية أضعف من أن أفكر في الإساءة لابنك أو استغلاله، ثم إنك ربيتِ وأحسنتِ التربية، سأنصرف غدًا قبل طلوع الشمس.

- ذلك أنسب للجميع. ردت الأم، وانصرفت.

باتت مليكة بين أحضان عائلة الشاب تنتظر على أحر من الجمر ظهور ضوء النهار. كانت الليلة فرصة لمليكة استعادت خلالها جزءًا من قواها.

مع تباشير الصباح، وقبل أن يستيقظ أهل المنزل، تسللت مليكة حافية القدمين تحمل حذاءها، فتحت الباب الخارجي وانسحبت في هدوء.

يعلق حمّاد وهو ينظر إلى موموح:

- إنها المرة الثانية التي وجدت مليكة نفسها مضطرة للخروج واللجوء إلى الهروب.

رد موموح على الرجل كما لو أن صداقة قديمة تجمع بينهما:

- إن للهروب لرهبة... كم سيدوم الهروب؟ ثم، إلى أين المفر؟

تتابع مليكة روايتها وهي تعلق على هروبها:

- خرجت لأنني لم أطق صبرًا، كان الشاب لطيفًا، لم أُرد إحراجه أمام عائلته. ثم إن الهروب هو أن تهجر الظلم، والهجرة هي أن تتمطى حتى تتنصل من مكان أو وضع لا يريحك. أما عن "إلى أين المفر؟"، فتلك رواية أخرى.

متأثرًا يسأل مومو‌ح المرأة المتسولة:

- كيف أدّى بك تغيير المكان إلى تغيير حياتك رأسًا على عقب، من فتاة مدللة إلى مومو‌س محترفة؟

ربت حمّاد على كتف مليكة قائلًا:

- كانت المأساة أكبر مما تستطيعه امرأة، وبالأحرى فتاة قاصر، لكن مليكة قبلت بالأمر وتعايشت معه.

قالت مليكة ترد على مومو‌ح:

- ما كل شيء يقال... ثم إنني لم أبرأ بعد من جراح تلك الفترة من حياتي. لكن، حتى أجيب على سؤالك، أود فقط أن أشير إلى أنني عانيت من كل الجرائم الجنسية الممكنة، من الاغتصاب، والاستغلال، والاستعباد الجنسي، والإكراه على البغاء، والعنف الجنسي...

"هل اخترتُ ممارسة الدعارة عن طيب خاطر؟ لا أعتقد ذلك، لأن ظروفي تقول بأنني لم أتجه إلى الدعارة لأسباب مرضية، أونفسية، أو مالية. لم يكن لدي خيار، لقد فُرضت علي تلك المهنة بسبب جهل أفراد عائلتي، وعندما أُكرهت على ممارستها، أصبح الخروج منها أمرًا صعبًا."

أطرقت لثوان، لم تستطع أن تسترسل، ثم أردفت قائلة:

- حجبت عني الدعارة البعد الإنساني لشخصيتي، والآن كمتسولة أحس أنني غدوت إنسانة بعد أن عشت كأداة عانت من جرائم ضد الإنسانية. والأنكى من كل ذلك، هو أنني لم ألتق أبدًا برجل يتحكم في تضاريس جسدي ويشعل رغبتي.

في منظر يوحي بالتأهب للسفر أوالاستعداد للرحيل، تضع مليكة يدها على رزمتها، وتخاطب مومو ح وهي تودعه:

- ما عاد حي "جنانات تيزي" قائمًا، طُمست كل معالمه، وصار المكان يحمل اسمًا آخر، يسكنه ناس آخرون، جاءت بهم حافلات ركبوها كما ركبتَ الحافلة التي جاءت بك من قريتك ذات هجرة، وكما حملتني سيارة شاب لطيف إلى بر الأمان ذات هروب.

6

رفع مومو ح رأسه، نظر جهة "تيزي نّْنّْجْ"، فضاء تحفه الأسوار من كل الجهات، منفتح على العالم من خلال أبوابه المتعددة. قرر فتى تاحفورت أن يطل على المكان بسرعة، له به ذكريات شتى.

يحكي مومو ح عن وقوفه عند محطة الحافة، عفوًا الحافلات، ب"تيزي نّْنّْجْ" بعد مرور خمسة عقود أو يزيد... لم يقف ليستمتع بما يوفره منظر "تيزي أُوَّادًّا" من جمال يدهش الناظرين، رغم الزحف البين للإسمنت المسلح بالبشاعة، لكنه ولّى ظهره جهة الشمال ليغرّز نظره في باب المرأب الذي كان يسكنه اللون الأحمر حصريًا، لون حافلات السيد "الشّامي".

وقف مومو ح يستعرض صور شريط بالأبيض والأسود لحافلة تفرغ حمولتها من أطفال يظهر من اندهاشهم أنهم ليسوا على بيّنة مما ينتظرهم بعالم يسكنه المجهول.

لم يُخْف مومو‍ح سعادته باستعادة شريط يرى من خلاله نفسه يمشي بين رفاقه الصغار من ركاب حافلة حمّادي، مبهورًا وهو يحمل حصيرته الصّغيرة التي لفَّتها أُمُّه بعناية فائقة.

كان لِحاف موموح جديدًا لم تستوْطنه البراغيث بعد، بساط وَرايْنِي إيكولوجي صنعته أمّه من مادة الحلفاء الرقيقة (آرْيْ)... هي حصيرة خضعت في نسجها لنفس التقنيات (أزْطَّا) التي تحاك بها الجلابيب والزرابي.

يتذكر موموح جيدًا كيف نزل مع رفاقه على شاكلة الطابور الهندي "en file indienne" من "تيزي نْتّْجْ" عبر منحدر الأَدراج يقصدون حي "جْناناتْ تِيزِي"... هم على الشاكلة يمشون لأنهم ألفوا رؤية الأغنام تمشي على نفس المنوال على طريق الثلج (ثْراتاسْثْ) بالأعالي.

لم ينس موموح كيف صار ورفاقه هزْأة لأطفال "تيزي" الذين تحلقوا في صخب مثير، للتفرُّج على ما حملته إليهم حافلة حمّادي من كائنات غريبة... أطفال أمازيغ بجلابيب "الضّامَة" يحملون أحلامهم، وأحمالهم، وأسرَّتهم النباتية كما يحمل الهنود الحمْر جراب حِرابهم على ظهورهم، تركوا خِدْر الأُسود بالأعالي، وجاؤوا ليقيموا بماخور صفيحي للبحث عن الحقيقة الأخرى.

"وَا لْعرُوبِيًّا"... إنها التهمة التي حملها صياح أَطفال "تيزي"، والتي لم يستوعب الصغار الأبرياء حمولتها إِلا بعد استقرارهم بالمدينة لفترة.

غادر موموح مدينة "تيزي" باكرًا بعد أن قضى بها الليل كله. خرج من حي "الكُوشْثْ" عند السفح حيث تسكن الهشاشة وتنبت الجمرات، مُشوّش الأفكار وقد اختلط عليه الأمر.

عبر المنعرج الأول انطلقت السيارة السوداء الفارهة تحمل من أخذه العزم على العودة لممارسة مهنة طفولته الأولى: الصعود متجهًا نحو الأعالي.

صعودًا عبر "إخْفْ أُوَّامانْ"، بداية سلسلة الأطلس المتوسط، يتفرج مومِوح على مدينة تيزي وعلى كل معالمها وهو يسوق بهدوء وتأن بين الماء، والخضرة، والأشجار المثمرة من الزيتون، والكرز، واللوز، والتين، والبرقوق.

بتمهل يعبر موموح المنتزه الواحة ونسمات الهواء العليل تداعب وجهه، وصوت انهمار الماء عبر الشلالات المتتابعة يغازل أذنيه... تؤدة جعلته يستجيب بتحكم لِإستدعاءات المنعرجات لمقود سيارته.

صعودًا، تغالب السيارة بسلاسة فائقة عدة منعرجات عبر حقول متراصة في طبقات انضم بعضها إلى بعض، فاخضوضرت أدراجُها وأرخت سواقيها الضروعَ وأدْرَأت بالماء.

لم يمنع التركيز على المنعرجات والتفرج على المنتجع موموح من أن يتذكّر بطله "حمّادي"، السائق الذي حمل أهالي قرى الأعالي إلى عالم "تيزي" العجيب. "حمّادي"، السائق الذي يلبس كالمعلمين، والذي يعيش بدون شارب رغم بنيته القوية. "حمّادي" الذي يسوق الحافلة عبر المرتفعات، والمنحدرات، والتلال، والوديان الجبلية كأنه يحملها "على كفّ عفريت".

كان "حمادي" أنيق الهندام، دائم الابتسامة، وذا أخلاق عالية، يشتغل كثيرًا لجعل الرحلة ممتعة وآمنة. لم يكن يدخن كأغلبية سائقي الحافلات والشاحنات.

لم يكن رفاق مومــوح يعرفون شيئًا عن الحافلات وعن سياقتها، لكنهم كانوا متأكدين من أن "حمّادي" سائق بمهارات عالية، وبخبرة تجعلهم مطمئنين مهما كانت الظروف المناخية.

وعلى الرغم من أنه لم يكن أمازيغيًا، فإن حمّادي كان يجتهد من أجل تواصل جيد مع ركاب كان أغلبهم يتحدث اللغة الأمازيغية فقط.

يستعد موموح للدخول إلى فضاء لُغة أُمّه، آيت وَرَايْنْ، حين تراءى له المضيق المعلوم...

حتى مفترَق الطُّرق عند "بابْ لَمْطِيقْ" ينحرف موموح بسيارته يسارًا في اتجاه "الْبِيرُو"، وقد ترك على يمينه الطريق المؤدية إلى منتجع "باب بويدير"، مركز بأجواء ساحرة للاصطياف... كل شيء جميل ب"باب بُويْدِير".

تنطلق سيارة موموح بين أشجار البلوط عبر منعرجات تتكرر وكأنها ترفض الانتهاء، فتبدو قمة "بُوهْدْلِي" على اليمين شامخة تعتد بتاريخها الثقيل، قمة تأوي أَجمل المغارات على الإطلاق: مغارة "إِيفْرِي أُوَّاطُو" أَو مغارة الريح.

كاللّبْدة على كتفي الأسد ظهرت الغابة المحيطة بجبل "بُوهْدْلِي" لتزيد من نصاعة رمادية قمّته التي تتحدى الطبيعة.

يخاطب موموح عبر نفسه جبل "بُوهْدْلِي" قائلًا:

- أهي التعرية بفعل سيلان الدم جعلت من قمتك كتلة رمادية تحكي عن صلابة من قضوا وقوفًا فوق صخورك؟ أم هو إباؤك يأبى إلا أن يعلن للعالم من خلال رمادية رأسك قدسية المكان؟

أم هي الأشجار انسحبت من فوق هامتك لتحيط بكتفيك إكرامًا لأرواح الشهداء؟

- عِمْت صباحًا جبل العز...

اِغرورقت عينا مومو معلنة عن ضعفه أمام جلال الموقف... فصار يحيي المكان ويتغنى بأمجاد أهله "العازْيِين" عبر أنشودته **"تامَازْغا"**:

دِي تْمْجَا نْ بُوشْفْر	بماسورة البندقية
نّْسْ يُوزّْلْ دَادَّا	التي طرد بها جدّي
لْعَازِي خُورُومْيْ...	المتمردُ المستعمرَ...
اَيْنّيغْ أَسَّاغْ نّْمْ دْ لّْغَا...	غنيتُ اسمَكِ أنشودةً...
تْشْسِيتْ تْمُورتْ نّْ يْنْغَا	حفظتْها الأرض التي أماتها
لَازْ دُوجُومّْيْ...	الجوع والإفطام...
دْ وْمْغَار يْتُّورَار.	ولَعِبُ المختار.
سْ تْگْرسَا وْنَارُوزْ	بمحراث الأمل
نّْسْ شْرزْنْتْ تِيخِينْ	الذي شقَّت به المحن
أنْطُوح نْ دَادَّا...	جبين جدّي...
اَيُورِيغْ أَسَّاغْ نّْمْ	كتبتُ اسمَكِ
خْ وُودْمْ نْ تْمْدَا...	على وجه البحيرة...
تِيسِيتّْ وّْدْرَار.	مرآة الجبل.

سْ تْغْزَّالْتْ نْ تايْرِي	بعصا الحُب
نّْسْ يْنْدْهْ	التي يهش بها
أُومْشْسَا نّْغْ إِمُوحَالْ...	راعينا على الأغنام...
أيْرشْمْغْ أَسَّاغْ نّْمْ	رسمتُ اسمَكِ
سْ قاع إِكْوْلانْ...	بكل الألوان...
خْ وُودْمْ أمْلَّالْ،	على المُحيّا الأبيض،
نْ تْسْلِيتّْ وّْنْزَار.	لعروس المطر.

كانت نسائم الجبل لينة ومختلفة توحي بولوج فضاء مختلف. لم يجعل التركيز على المنعرجات المتتابعة موموح يفقد التفكير في ذكرياته القديمة، وهو يافع يمشي فوق الثلج بين "البِيرُو" و"تيزي" رجوعًا من عطلة مدرسية تزامنت مع اضطرابات مناخية حالت دون استعمال وسائل النقل.

فجأة يرن الهاتف، يعلن موموح عن التوقف للرد على مُهاتفه.

- آلو... "أزُول".

قال الصوت المنبعث من خلف الشاشة الصغيرة:

- اِرفَع رأسك يا موموح، أُنظر على يمينك لعل أرواح أجدادك الذين سقطوا في المعركة تبارِك رجوعك. اِنزل من صنيعة الغرب، ومتع النظر فيما حولك من الأشجار والصخور، وابحث عن قمة جبل العز "بوهدلي"، ووَلِّ وجهك شطره، وحيِّ أرواح من ماتوا وقوفًا تحت اللهب.

رد موموح:

-أتعتقد يا هذا أنك اكتشفت أمريكا؟ لقد أَلِفَتْ مناخيري شياط الدم الذي يسكن الأحجار والأشجار ب "لْمْطِيقْ" كلما مررت من هنا... ثم إنني سِبط من قُتِل واقفًا بباب ورشة حدادته دفاعًا عن القبيلة، وأنا كذلك ابن من روَت جراحُه رمالَ الوطن عدة مرات...

قال:

-أتمُنُّ على الوطن بتضحيات أهلك؟

قلت:

-لا تُزايد علي...

اِنقطع الخط كالعادة.

يمر مومومح عبر "تامطغوسْتْ"... وقبل أن يطل على "بْني خْلُو"، يلقي نظرة على يساره عبر المنحدر، ليخص بالتحية منزلًا آواه وأصدقاءه الصغار في ليلة باردة ذات عودة على الأقدام من عطلة ماطرة من قريته إلى مدينة "تيزي"، غابت فيها حافلة حمّادي.

أرخى مومومح السمع لعله يسمع نباحًا أو صوتًا يعلن عن الحياة... فأجابه الهدوء المرافق للفراغ المخيم على الأرجاء، أجابه بصمت يطبق على الوادي كله. عمْتِ صباحًا دار آل "بْرَّاكْ"...

كان المرور مناسبة طلَلِيّة أذكت دهشة مومومح، وزادت من حسرته على ما يرى من بوادر انقراض قرىً كانت بالأمس القريب تعُجُّ بالحياة.

عبر "بني خلو"، و"زريان"، و"العنصر"، و"معقل"، قُرى مشتتة دورُها على جنبات الطريق، ومعلقة بين السفح والقمم المتتالية، يقود مومومح سيارته بلطف حتى يتمكن من النظر حوله،

ليرى أشكالًا هندسية صغيرة فوق الأرض انتُزعت من الغابة نزعًا، بالكاد تسمح بمزاولة فلاحة تقليدية لا تُسمن ولا تغني المنطقة من الحاجة. حقول ارتكزت على قواعد بُنيت من الأحجار، ودُعِّمت أركانها بأشجار مثمرة من الزيتون، والتين، والدوالي...

يصل مومَوح إلى الباب المفتوح على كل الجهات..."بَابْ أَكْوَاسْ"، وما أدراك ما "أَكْوَاسْ"، السوقُ ملتقى الطرق.

ترجَّل موموح ليلقي نظرة على مكان تدبُّ فيه الحياة يوم الأربعاء فقط. الأربعاء بالنسبة للمكان هو يوم غير عاد، أما الأيام الأخرى فهي كالفصول لا تحس بها أشباح المكان إلا من خلال النظر بعيدًا عبر ألوان السماء.

لا أحد هناك... إلا من أسوار تحيط بالسوق تآكلت، فظهرت كبقايا أطلال قلعة بنيت من الأحجار. حتى الكلاب الضالة التي تستوطن عادة الأسواق خلال أيام الأسبوع لا أثر لها. أما الحوانيت التي تؤثث الجهة الغربية للسوق فقد أمات بها إغلاق الأبواب كل حياة... فصار منظرها حزينًا، يحن إلى الحمرة المفقودة لقرميدها الذي تحمَّل مرور السنين وتعاقب الفصول، فصار باهتًا لا يكاد يُرى.

يستعد موموح لمغادرة رحبة السوق، حين انتهى إليه صوت خافت يحمل دندنات وغناء بأمازيغية صافية.

يحاول الاقتراب من المصدر، ثم يلقي السمع. صوت شجي ينضح بالحزن يتغني بأنشودة رائعة كتبها موموح في ذكرى رحيل والده الذي عانى في شبابه من قهر وطغيان أهل الحل والعقد "بالبِيرُو" في إطار فوضى سخرة "ربْعِيّامْ" التي فرضها المستعمر.

مايـنَّانْغْ تْيِيتْ آيَا "امْعْدّْفْ" يّْغْنَانْ؟
تْدّْجِيتْ آنْغْ نْسّْنْ...
غَاسْ إِي تارُوتّْ
خْ أُوِيْنّْ آنْغْ يْجْرَانْ...
دِي لُوطَا
يَامْ دِي وْدْرَار.

يْتّْرْنُونُّوسْ وَابْلْ دِي وْمْطَّا،
آمْ وْسْلْمْ يْتّْنْفْرَاكْ
دِي وْغْدِير مُودْرُوسْ وَّامَانْ،
يْرزْمْ إيمِي...
آمِيمْشْ يْقَّار.

يْتّْغْوِيوِيسْ وُولْ
دي وْمِيلُوسْ نْ تِيخِينْ،
آمْ وْحْدُورْ...
إِمْشْ إِيتْ تْقْبّْطْ تْوُّورْتْ
آكْدْ وْمْنار.

تستدعي الأنشودة شخصًا وصفته بِـ "أمْعْدّْفْ"، بسبب عدفه الذي جعل القبيلة تكره مجالها، لتسائله عمّا آلت إليه المنطقة من جراء تجاوزاته، عبر صور بليغة تحمل التشكّي الواضح والقديم لإعادة إطلاقه إبداعًا يذهب عميقًا في وجدان القبيلة حتى لا تنسى.

يتقدم موموح، ينظر يمنة ويسرة... على صدى خطواته يطبق السكون على المكان حين اختفت الدندنات فجأة.

خشخشة بين الأكوام حيث يراكم السوق نفاياته، يدقق مومو ح النظر حين تراءى له خيال انبعث من بين الأزبال التي كانت تُدثره، بدا كأنه فزاعة لطيور الحقول. رجل نحيف الجسم بادي الهزال، يفوق عمره الثمانين سنة، بوجه عليه شحوب الموتى، بملابس اصطبغت بألوان الوسخ، ففقدت صفة الثياب.

يقتحم موموح الصمت ويسأل الرجل:
- (مامش تييت أوْهَاوْ أوْلاهلْ)؟ كيف حالك يا ابن أهلي؟

يرد الرجل في تجاهل تام لمحدّثه:
- (آمْنّ أُور إِتْلْكّ إِي حْدّ)... كما ترى.

عن دواعي إقامته بين النفايات، يرد الأبله بعنف:
- اِهتم بشؤونك، وإلا أسمعتك ما لا يرضيك، أنا سعيد بحياتي بين الأزبال، لأنها بعيدة عن اهتمام البشر.

يسأله موموح إن كان يحس بالجوع. ينتبه الرجل، ينظر إلى موموح، يجيبه كمن تفاجأ بمحتوى السؤال:
- (مّيغْ أسَّا دْ أَكْوَاسْ)؟ أهواليوم يوم الأربعاء؟

حدّق موموح في الرجل دون أن يسحب عينيه عنه، فارتاب من نظراته، ربما كان مختلًّا عقليًّا. كما فهم من جوابه أن أسباب نحافته وشحوب وجهه ترجع إلى غياب وتباعد الوجبات.

يتعجب موموح ويحدث نفسه، كيف لشخص مختل عقليا أن يتغنى بأنشودة كلها طاقة وعي ونفاذ عابر للزمن؟ يستفسر الرجلَ عن قائل الأنشودة وعمّن يكون "أمْعدّفْ"، هل هو وصف أم اسم؟

-الأنشودة هي لموموح نّْغْ، أما "أمعدّْفْ" فهو وصف يشير إلى تجاوزات العهد البائد للقائد "سْكِيزُو". يجيب المختل ظاهريًا.

أردف فتى تاحفورت سائلًا عمن يكون موموح... يرد الرجل بعنف ظاهر وقد ولّى ظهره سائلَه:

- ما قدومك إلينا إذًا... إذا لم تكن تعرف موموح؟ موموح هو شاعرنا الذي تتغنى مجانين القبيلة بأشعاره.

- هل سبق لك أن التقيت به أو رأيته؟ يقول موموح.

أرسل الرجل ضحكة مجلجلة، ثم ردّ متهكمًا:

- موموح لا يُرى، لأنه جنّي لا يأتي إلينا، هو يكتفي بمخاطبتنا عبر الجنّية "رْقْبَّه" التي توحي إليه بأشعاره بأمازيغيته الفصحى (تازْدَّاكْْتْ).

ثم استرسل "الأحمق":

- إذا كان أمر "سْكِيزُو" يهمك كما تقول، بالتأكيد سيهمك كذلك شأن هذه النفايات التي هي مرقدي ومأواي... هي ما تبقى لي وللقبيلة من تركة الأجداد التي سلبها الجنّي "سْكِيزُو" وجنونه الذين سكنوا عقول ساكنة المنطقة منذ أن جاءوا يركبون "تْرْكُو" الغولة.

يسأل موموح عن حقيقة "سْكِيزُو"، أكان جنّيًا أم إنسانًا؟

- هو جنّي سلّطه الله على أهل "السِّيبَة" حتى يُخضعهم للقانون، لكنه طغى وتجبّر، فأخضعهم لنفسه. يؤكد رجل نفايات السوق على صدى ضحكاته غير العادية.

أراد موموح أن يتأكد من مستوى قوة الرجل العقلية، فمد في اتجاه الرجل بأوراق نقدية... رفض المساعدة بدعوى أن مثل هذه الأوراق لا قيمة لها في فضاء به خصاص في كل شيء.

تفرس مومُوح مستطلعًا في الرجل وقد دار في خلده أنه قد يكون أبلهًا، لكنه يعرف ما يُخرِج من أمّ دماغه. قال مومُوح في أمازيغية صافية وهو يحاول إقناع الأبله:

- (مْعنْ، تْلّيتْ آتْنْ تِيقْمْتْ شَا وَّاسّْ)... خذها، ستحتاج إليها يومًا.

رفض الرجل بإباء... أصر مومُوح، رد الأبله باستخفاف:

- نقودك يا سيدي لن تغنيك من جوع بهذه الجبال المنسية، ثم إنها لن تساعدك على فتح الأبواب الموصدة لقضاء حاجاتك لدى (تْركُّو) الغولة. لقد ألفنا، كلما فرضت علينا أمور الحياة الذهاب إلى "الْبِيرُو" عند (تركُّو) أن نحمل معنا زيتًا (لْبْطًّا نْ زّْشْتْ)، أو سمنًا (تْبُويْتّْ وُّودِي)، أو عسلًا (تاقْرِيصْتْ نْ تَامْمْتْ)، أو جزّة من الصوف (إِيلِيسْ نْ ضُّوفْتْ)، أو بعضًا من هذا كله. هي مواد تعتاش منها (تركُّو) وبناتها.

رد مومُوح بأن ذلك كان في العهد البائد، وما عاد ساريا الآن.

نظر الأحمق إلى جبال تاحفورت التي ظهرت بين التلتين المؤطرتين لفضاء السوق، ملء حنجرته أطلق قهقهة مدوية غير طبيعية، أتبعها بالقول، بصيغة احتجاجية غير سوية، إن ذلك ما يزال قائمًا، هو قليل من فيوض من آليات بنات "تْرْكُّو" الغولة لتطويع القبيلة حتى تنجز المطلوب دون اعتراض.

اِرتاب مومُوح من حديث الرجل، اِنتابه الشك، قد يكون محدثه أحمقًا طار عقله. لم لا، وهو يعتقد أن المنطقة ما زالت تعيش الحقبة التي كان يتغنى بها قبل قليل! رجل يمارس حياته بتلقائية وعفوية، يعيش بين الأزبال، لا يأكل إلا لمامًا، يرفض النقود... هو إذًا في

وضع عقلي غير سليم. لكنه، يساهم، دون أن يعي ذلك، في خلخلة الضوابط النفعية التي تعيش عليها القبيلة.

شُده مومورح حين أخرج المعتوه من ركام الأزبال كيسًا من الحلفاء (تابْدّارتْ)، وانطلق إلى رحبة الخضر كأن السوق فعلًا ملتئمة.

يتفرج مومورح على الرجل وهو يكلم الفراغ:

- مَامْشْ تْيِيتْ آ بَابْ نْ تْبْصلْتْ؟ تَابْصلْتْ نّْشْ مَا تَّابْصْلْتْ نّيتْ، مَا تّْنّْ وّْوشّْنْ؟ كيف حالك يا صاحب البصل؟ بصلك حقيقي أم هو بصل الذئب؟

- كم ثمن البطاطا؟ "وْشْحَالْ"...؟ "مْيَا وْعْشْرِينْ"؟! (وَا يَا بَابَا دَازْوَار)، من فضلك (مْيَا بارگا). أريد بطاطا واحدة. اِلتقط من الأرض حصى وطفق يعد، ثم يمد يده في اتجاه الفراغ ليؤدي الثمن.

تيقن مومورح من أن محاوره رفع عنه القلم... إنه أحمق. رفع يده يودع الرجل الذي لم ينتبه، كان منشغلًا بإكمال دورته بالسوق الفراغ يفاوض بائعي الخضر حول الأثمان.

يستعد مومورح للخروج من فضاء السوق، عند الباب الرئيسي استوقفه صوت رجل ألقى التحية... يرد مومورح التحية بلغة أمه.

يقترب من مصدر الصوت، دكان فُتح بابه على الطريق التي تمر أمام السوق، جلس به بائع المواد الغذائية بالتقسيط ينتظر زبائن محتملين لن يمروا قبل يوم الأربعاء.

قال "التاجر" مبتسمًا، يخاطب مومورح:

- أهلًا بك سيدي... الجو حار، ماذا لو أرَيْتنا لون نقودك بشراء قارورة من مشروباتنا الغازية؟

سلم مومموح على الرجل، طلب قارورة كوكا كولا من الحجم الصغير. أخرج البائع طاولة وكرسيين من البلاستيك المُقوّى أمام الدكان. سأل وهو يدعو مومموح إلى الجلوس:

- هل أنت من المنطقة؟

نظر مومموح جهة الجنوب، ثم قال:

- أنا من هناك، من تاحفورت. اِسمي مومموح، جئت أزور المنطقة بعد غيابي عنها لأربعة عقود أو يزيد.

رد البائع معلقًا:

- مومموح... اِسم جميل. أنا اسمي لحسن، مرحبًا بك يا ابن قرية الفقهاء (الطَّلْبَا). تاحفورت لم تعد كما كانت، أليس كذلك؟ كان أهلك يأتون إلى سوقنا كل يوم أربعاء، لم نعد نرى منهم أحدًا منذ مدة طويلة. ثم قل لي، ما الذي جعلك تغيب كل هذا الوقت؟ اِستحليت الحياة هناك حيث كل شيء متوفر، أليس كذلك؟

يجيب مومموح متنهدًا بأن الموت والهجرة حكما على تاحفورت بما آل إليه وضعها من صعوبات.

- أما بخصوص غيابي الطويل، فلم يكن اختيارًا شخصيًا.

نادى لحسن على أحد أبنائه الذي كان يقف أمام باب المنزل قبالة الدكان.

- ماذا هناك يا أبي؟

- قل لأمك أن ترسل إلي صينية ببراد شاي... لدي ضيف.

تابع البائع حواره مع مومموح مشيرًا إلى أنه رآه يتحدث إلى مجنون الأزبال، ثم يسأل:

- هل وجدته أحمقًا كما يعتقد الجميع هنا؟

- بل وجدت نفسي في مأزق، كنت مجبرًا على محاورة ناقص عقل يجيد الحديث. "اِختلط الحابل بالنابل" حين وجدتُني أنصت إلى المعتوه يتهمني، وهو ينظر إلى سيارتي، بأنني جعلت إلهي هواي، حين سايرت ما تواطأت عليه القبيلة من القيم النفعية والبحث عن السهل. لست أدري إن فهم أم لا، حين رددت عليه بأنني لم أستوعب كيف يتهمني بإعمال عقلي للبحث عما ينفعني ويفيد الناس، وهو الكسول الخامل يقضي وقته نائمًا بين أزبال السوق!؟

- كيف كانت ردة فعله؟ يسأل لحسن.

- لم يكن من النوع الذي يرضى بالهزيمة، ردّ بتحدٍّ يحتج على اتهامي له بالكسل.

يؤكد لحسن أن الرجل، رغم اختلالاته ونوباته العقلية، إنسان يعيش حياته بكامل مشاعره هناك بين النفايات. هو بالتأكيد مختل عقليًا، لكنه ليس رجلًا عاديًا، هو اختار وضعه البئيس وكأنه يقدم نفسه قربانًا لنشر حقيقة وظروف من يعيشون بين هذه الوهاد المنسية؟

يتعجب مومو من أنفة وعزة نفس رجل أحمق! ثم صار يغالب عقله... من الأبله إذًا، أهو الرجل الذي اختار الاستقرار بين بقايا نفايات أجداده ويرفض نقودًا هو في أمس الحاجة إليها، أم هو العاقّ الذي ركب حافلة حمّادي بحثًا عن ترقية اجتماعية أفضت به إلى النوم فوق مجاري الصرف غير الصحي بين أهل الزحام؟

انتبه مومو على وقع خطوات ابن لحسن وهو يضع الصينية على الطاولة.

أفرغ صاحب الدكان الشاي من البرّاد، مد كأساً في اتجاه موموح، ثم طفق يحكي عن الظروف التي رمت بالرجل المعتوه إلى حيث يقيم بين الأزبال.

يحكي لحسن في أمازيغية صافية لا تشكو من إقحام...

يعرفه جيّدًا، اِسمه "بُوكْْرينْ"، ينتمي إلى قرية "الْبِيرُو". ورث عن أبيه قُربه من عائلة رأس القبيلة القايْد "سْكِيزُو" الذي عانت المنطقة من عدفه وأذاه. اِشتغل عند القائد رسميًا مساعدًا فلاحيًا (خمّاس)، لكنه كان في الواقع (خمّاسًا) متعدد الاستعمالات.

كان يجلس إلي هنا حيث نقعد الآن، قبل أن يختل عقله. حكى لي كلى شيء تقريبًا. "بُوكْْرين" اشتغل عند عائلة "سكِيزُو" بجدّ، كان يستيقظ يوميًا قبل الفجر بقليل. أيقظ ذات يوم كعادته رعاة الأغنام ليستعدّوا لإسامة الماشية. طرق باب عُشّة الرعاة وصاح:

- (آ كُْرتْ تْكُْرَاوْنْ، تُولْيْدٌ تْفُوشْتْ)، اِنهضوا، لقد طلعت الشمس...

بعد ذلك، اِنصرف لسحب الماء من البئر، ثم حرر الدواب من طِوَلَتِها ليذهب بها إلى العين القريبة ليوردهما. مر على "بْرَّاكَات" العمال، أيقظهم واحدًا، واحدًا.

اِلتحق بالحقل حيث يشتغل على فلاحة البطاطا والذرة والمحاصيل الأخرى. بعد ساعتين لحقت به زوجته "ثْلُّو"، حاملة الفطور. تحييه ثم تسأل:

- صباح الخير، كيف هي الأحوال؟ أراك تعبت وما زلنا في بداية النهار... تناول فطورك قبل أن يبرد.

جلس "بُوكْرِينْ" وجسمه يتصصب عرقًا، تمسح زوجته على جبهته وتجففها بأطراف منديل رأسها، حين وقف عليهما "أمْسْتايْ" الأخ الأوسط لِ "سْكِيزُو" قائد القبيلة ومشغل "بُوكْرِينْ"، يصيح متهكمًا:

- الله، الله... حسبناهم يشتغلون بجدّ، فإذا بهم يمارسون "قلة الحياء" دون اعتبار وتقدير لقداسة الحقل. سنتحاسب بعد صلاة المغرب، في انتظار ذلك، لا تأتي في الغداء حتى تعوض الوقت الذي أضعته في اللهو.

لم ينصت للزوج الذي حاول توضيح الموقف، بل رفض إعطائه الفرصة للكلام.

أصاب الفزع الزوجين... رجعت "ثْلُّو" إلى المنزل بأواني الأكل دون أن يتناول "بُوكْرِين" فطوره. دخلت وهي تشهق.

قالت الحاجة "تِيثْرِيتْ"، زوجة "سْكِيزُو"، تسأل "ثْلُّو":

- ما بك تبكين؟ هل تخاصمت مع "بُوكْرِينْ"؟ هل ضربك "المسخوط"؟

تردّد صوت "ثْلُّو" في حلقها، خنقت الحشرجة حقيقة ما وقع، بالكاد استطاعت أن تجيب وقد غصّت بالبكاء:

- لم يضربني، لكنه عنَّفني بالكلام.

- ولماذا عنّفك؟ تسأل الحاجّة.

ردّت "ثْلُّو":

- أجهل سبب ذلك.

- هل تأخرت في حمل الفطور إليه؟ تردف الحاجة "تيتريثْ".

تجيبها "ثْلُّو" بأنها كانت في الموعد.

حولقت الحاجّة "تِيثْرِيثْ"، ثم قالت:

كذلك هم الرجال، يحسبون زوجاتهم الحلقة الأضعف. ما لي لم أعد أفهم زوجك "بُوكْرِين" هذا؟ أتراه يحب امرأة أخرى، أم أنه صار مجنونًا؟ لَأُعنّفنّه في المساء أو ليأتيَنِّي بسبب مقنع.

عاص الأمر على "ثْلُّو" المسكينة.. اِرتمت جاثية عند رجلي سيدتها الحاجّة تستعطفها:

- من فضلك سيدتي الحاجة، اِنسي الموضوع، اِعتذرَ مني "بُوكْرِين" وراضاني وقبّل رأسي.

تستغرب الحاجّة قائلة قبل أن تنصرف:

- تصالحتما! لماذا جئت باكية إذًا؟ ثم لماذا لم يتناول زوجك فطوره؟

لم تجب "ثْلُّو"، لم تحاول حتى.

عمل "بُوكْرِينْ" بالحقل حتى الساعة السادسة مساءً، ليعود إلى عُشّته حيث يسكن مع أولاده الخمسة وزوجته التي تشتغل خادمة عند الحاجّة "تِيثْرِيثْ".

نسي أو تناسى الجميع الأمر... مر تعنيف "أمْسْتايْ" اللفظي المجاني للزوجين كأنه لم يكن، واستكانت "ثْلُّو" إلى كذبتها البيضاء لإنقاذ المواقف والمصالح.

يحكي لحسن عن دورة عذاب "بُوكْرِينْ" اليومية التي لم تكن تنتهي، مؤكدًا أن وضع الرجل، رغم استقرار عمله، كان كحال كل العمال الذين كان "سْكِيزُو" يصرفهم في نهاية كل أربعة أيام. "لا سامحه الله"... كذلك كان "لحسن" يدعو على "سْكِيزُو" بسبب استغلاله لرجال القبيلة لأغراضه الشخصية في إطار نظام "رِبْعيّامْ".

مرت الأيام... في يوم الأحد من أيام شهر شتمبر، كان الجو جميلًا ودافئًا، السماء صافية، والنسائم عليلة تهفو على القلوب المتعبة فتبث فيها التصبّر.

جلس "القَايْد سْكِيزُو" وقد اتخذ له متكأ تحت ظلال الكروم التي تغطي زقاق وجنبات منزله. فصارت نفسه الأولى تتطلع بإعجاب إلى عناقيد الدوالي الدانية القطوف فوق رأسه. ثم استلقى على ظهره وطفقت نفسه الثانية تنظر إلى زرقة السماء فاليّة مشكلات العالم السوداء، محاولة فكَ لغز نظرية تكتونية الصفائح وزحزحة القارات وحلحلة إشكالية النموذج الاقتصادي بالعالم القروي. هو يعلم حقيقته، لكنه لا يخجل من ذاته، يخشى نظرة الآخرين ويحسبها تهديداً لمكانته وخدشًا لواجهته، فتراه كثير الاهتمام بأقنعته التي يتستَّر بها اتقاء بؤسه.

يستمتع "القايْد سْكِيزُو" الرَّقودُ باستراحته، فيحسبه الناس يقظانًا منهمكًا في خدمة مصالحهم... فلا يُزعجون ولا ينزعجون. نام سعادته قبل أن يستيقظ من رداءته على صوت الآذان، فينهض ابتغاءَ المرضاة... "سْكِيزُو" مؤمن ما ترك صلاةً قطّ...

وقف "بُوكْرين" عند الزيتونة المحاذية ل "برّاكته"، سرح به التفكير في مشكلته التي عاص عليه أمرها، فصار يفكر بالجهر محدثًا نفسه:

- "لَا سْمَاحَا لِيكْ آ لِيَّامْ"... أيها الوقت، "وَاشَ شَفْتِي مَا شَفْتْ أنَا؟" من فضلك تمهّل، "رَانِي سْرَجْتْ لْلْحَقّْ كلامي"... اِعطني أيها الوقت من وقتك شيئًا قليلًا حتى أقول لك الحقائق الأربَعَة، لا، بل الحقائق كلها:

لقد خلا الجوُّ لِ"سْكِيزُو"... فطغى وتجبر، وسادت "إيّامْ لْقَهْرَا وْالظّْلَامْ". رعُن القايْد "أُو زَادْ لَلْكُودَّامْ"، واستفاد من "قَلَّةْ لْحكَامْ".

"شتّت "سْكِيزُو" "لْعْلَماتْ" وصيرها فساطيط و"فْرَكَاتْ" من خلال "تْحلِيلْ لْحرَامْ".

"يدّعي "سْكِيزُو" أنه الأجدر والأقدر... لكنه في الحقيقة قليل الحيلة يستند فقط إلى "عُرَّامٍ" من "السواعد المهشَّمة" التي لا تملك نفعًا ولا ضرًّا."

"يدّعي "سْكِيزُو" ركوب "المَعقُول"... لكن حمار "معقُوله" وقف في العقبة، حرن وعصى، فلم يجد "سْكِيزُو" خيارًا غير ظلم الناس والاعتداء على حقوقهم وممتلكاتهم."

"بئس العبث يُمارَس على المقاس بانقيَّاد... دون خجل باسم تدبير الممكن وغير الممكن".

نظر "بوكْرين" إلى جهة العرصة حيث يستريح "سْكِيزُو" في ظل الكروم. فكر لبضع ثوان ثم قال يحدث نفسه:

- إنها فرصتي لمفاتحة سعادته في موضوع مشكلتي، عساه يرضى عني ويسمح لي بما أريد.

اِقترب "بوگرين" من عرين الأسد، أو هكذا كان يظن، لكنه، في الحقيقة، سيلقي بيده في عش الدبابير. لو كان يعلم مزاج سيده لما أتى من تلقاء نفسه إلى الجحيم.

قدم الرجل فروض الطاعة وقبّل كتف "سْكِيزُو" الذي تابع النظر مدققًا في سواد حبات العنب قبل أن يغرّز بعينيه في الأرض في تجاهل تام للذي يقف أمامه.

بعد بضع دقائق، رفع "سْكِيزُو" رأسه بشكل مائل إلى اليسار واصطنع الانتباه والانزعاج ليخاطب "بوگرين":

- ماذا هناك؟ لماذا أنت هنا؟ لمن تركت أعمالك؟

- معذرة سيدي، اليوم يوم عطلة، جئت...

قاطعه "سْكِيزُو" بغضب واضح بالقول إنه لا يعرف شيئا اسمه العطلة. مطأطئ الرأس يؤكد "بوگرين" بأنه سيلتحق بالعمل فورًا، لكنه يود استشارته في أمر هام.

- أسرِع في طرح ما لديك، ليس لدي وقت لمشاكلكم الفارغة التي لا تنقضي. يأمر "سْكِيزُو" بحدّة.

متلعثمًا بالكاد ينطق، قال "بُوگرين":

- عبد الله بلغ سن التمدرس، هل تتفضل يا سيدي بالسماح لي بالذهاب إلى المدرسة لتسجيله حتى يتابع دراسته.

رد "لقايْد سكيزُو" بعجرفة متشحة بالبهتان يسأل عمن يكون هذا العبد الله. يجيب "بوگرين":

- إنه ابني، عبد الله الذي كلفته بأعمال السخرة الخاصة بك.

- آه، عرفته، المعتوه الصغير... لكن، من سيقوم بصب الماء على يدي كلما أردت الوضوء؟ يرد "سْكِيزُو" وهو يصطنع الانزعاج ويسترسل:

- أُنظر إلى أخويه الأول والثاني، كيف يساعدانك في العمل بحقولنا، رجال حقيقيون، تبارك الله. لو كنتُ نزلتُ عند رغبتك في تسجيلهما بالمدرسة لما وجدت من يساعدك في أعمالك الشاقة. أما الثالث من أبنائك، فلا حول ولاقوة إلا بالله، منذ أن تنازلتُ وقبلتُ بتسجيله ليتابع دراسته، لم يعد يقدس العمل بعد أن طردوه من

المدرسة بسبب فشله، وضعف مردوده الدراسي. ثم إننا عائلة واحدة، أولادي هم أولادك، أبنائي يدرسون، وأبناؤك يتكوّنون بالحقول ليصيروا رجالًا أقوياء. أليس هذا عدلًا؟

يستطيع "سْكِيزُو" أن يتقمص أدوارًا متعددة تجعل مخاطبه يتوهم أن "القايْدْ" يحب العالم بالرغم من أنه الأملذ الذي يُظهر في "مودته" عكس ما يُخفي. مُتباكٍ، يتضامن "سْكِيزُو" مع "بوكْْرِين" بخبث واضح.... لكنه مُتذاكٍ ينسى مأساة مساعده بسهولة مدهشة، فيستذكي "الفَقْصَةَ" في القلب، ويحرك السكين في الجرح ويضع عليه من ملح قساوته وهو يغير من لهجته آمرًا "بوكْْرِين" بعنجهية:

- اِلتحق بعملك، ولا تحاول إعادة طلبك السخيف هذا على مسامعي مرة أخرى.

يسأل مومُوح البائع عن أسباب طرد ابن "بُوكْْرين" من المدرسة. يجيب لحسن بأن السبب الحقيقي يعد علامة من علامات الظلم والقهر، وكاشفًا أماط الغطاء عن حقيقة "سْكِيزُو" الفاشلة المجبولة على الركوب على الآخر لتعتَوِر الخبث مع الشيطان وتصوغ الكذب لصيانة واجهته المغشوشة...

كان أحمد، اِبن "بوگرين"، تلميذًا ذكيًا ونجيبًا، على الدوام الأول بالفصل. لكن، من سوء حظه يدرس معه بالقسم أحد أبناء "سْكِيزُو" من زوجته الرابعة، كان الطفل غبيًا وكسولًا. وحيث إنه لا مقارنة مع وجود الفارق، اِرتأى نظر سيادة "سْكِيزُو" الضغط على "بُوكْْرين" لإنهاء مسار ابنه أحمد الدراسي تفاديًا للإحراج.

مرت السنون، كبر أطفال "بُوكْْرِين". غادر "سْكِيزُو" هذه الدنيا، وبموته استطاع أبناء "بُوكْْرِين" التحرر بالانخراط في الجندية.

لم تمض سوى بضعة شهور على هجرة الأبناء حتى لحقت أمهم بالرفيق الأعلى. كذلك بقي "بُوكْرِين" لوحده في مواجهة تجاوزات ورثة القايْد "سْكِيزُو". لم يعد يعرف مشغله، صار الورثة كلهم مشغلوه. الكل يأمر، لكن المسؤول عن أجر "بُوكْرِينْ" غير معلوم. فرمى به الوضع الجديد في غياهب المجهول.

كانت هجرة الأبناء نهائية بدون أمل في العودة، فرقت بينهم السبل، عاشوا بالغربة وتزوجوا هناك، ونسوا ماضيهم المليء بالعذاب والأحزان.

ضاقت الدنيا ب "بُوكْرِينْ"، صرف كل ما لديه من مال، لم يعد أحد يسأل عنه. قرر مغادرة "البِيرُو" في اتجاه مدينة "تيزي".

في الصباح الباكر من يوم الأربعاء خلال الأسبوع الأول من شهر فبراير القارس، على الطريق الرابطة بين "الْبِيرُو" و"باب أَكْوَاسْ" وعن بعد بضعة كيلو مترات من سوقنا هذا، فرملت إحدى سيارات النقل العمومي 207 بقوة لتتفادى صدم شخص يمشي وسط الطريق. نزل الركاب، ساعدوا "بُوكْرِينْ" على الصعود إلى المركبة. سأله أحدهم:

- ما الذي دهاك حتى تسير وسط الطريق ولم ينبلج الصبح بعد؟ ثم لمذا تمشي على قدميك ووسائل النقل متوفرة؟

لم يجب "بوكْرِين"... لكننا فهمنا بعد استقراره بيننا أن المسكين بالرغم من أنه لم يكن يتوفر على نقود، إلا أنه قرر الذهاب إلى "تيزي" مشيًا على الأقدام، لأن اعتزازه القوي بنفسه لم يسمح له باستجداء أرباب المركبات لإيصاله مجانا إلى "تيزي".

وصلت المركبة إلى سوق "باب أَكْوَاسْ"، نزل "بُوكْرين"، ومنذ نزوله ذاك، الذي مر عليه الآن زمن غير يسير، وهو يستقر بيننا بقرية "باب أَكْوَاسْ".

يسأل موموح لحسن:

- هل يتوفر "بُوكْرِين" على إقامة مستقرة هنا بِ "باب أَكْوَاسْ"؟

- آوَاه بعض المحسنين لفترة، لكن اعتداده بنفسه جعله يقيم بالسوق قبل أن يختل عقله، فيستقر بمجمع النفايات هناك بآخر الجهة الجنوبية للسوق. أجاب لحسن.

- وهل يزوره أبناؤه أو أفراد عائلته؟ يستوضح موموح.

أردف البائع متنهدًا:

- لقد فعلت الهجرة فعلتها... وانتهى الأمر.

تأكد ابن تاحفورت من أن كل شيء يصنع الحياة مغلق ب "باب أكْوَاسْ"، حتى القلوب، إلا من شيخ صيره التوثيق لأحداث المنطقة أحمقًا. إنسان بسيط، داهمه ظلم لا سبيل إلى تفاديه، شعر برغبة قوية في تغيير المكان، فانطلق مغمض العينين غير مبال.

يشكر موموح البائع لحسن عن لطفه وكرمه، يودعه ويغادر المكان متسائلًا عن جدوى أي نموذج اقتصادي قد يؤطر تنمية هذا المجال الجبلي، أمام سيطرة نسق انتهت صلاحيته، لكنه ما زال سائدًا.

مكسور الخاطر يركب فتى تاحفورت سيارته وينطلق عبر طريق "معبَّدة" تكاد حُفرها تستنبِتُ نبات الحلفاء.

بعد بضع منعرجات تخترق غابات استحوذت عليها أشجار البلوط، ينتبه موموح إلى شخص بصورة ظِلِّيَّة خاصة استعادتها ذاكرة فتى تاحفورت من سجلاتها القديمة... شخص مسافر يقف على يمين الطريق يشير بيده اليمنى إلى أنه يريد الذهاب إلى حيث تتجه السيارة. شاب فوق الثلاثين، قوي البنية فارع الطول، يلبس جلبابًا محليًا بالأبيض والأسود، وينتعل حذاء رياضيًا تغيّر كثيرًا بياضه بفعل التراب الذي صبغ رباطاته بلونه الخاص.

يضع فوق رأسه قلنسوّة باهتٌ لونُها، يحمل بياضها زركشة دائرية خفيفة تكاد تندثر بفعل ما بلغه اتساخ القلنسُوّة من مستوى غير مقبول.

أوقف موموح السيارة، فضل مخاطبة المسافر بلغة المكان، قال:

- (أزُول"... آلْ ماني تعوّْلْت آ وْلَاهْل؟) سلام، إلى أين أنت قاصد يا ابن أهلي؟

اِبتسم الرجل حين تأكد أن السيارة تتكلم لغة الأرض، وردَّ قائلًا:

- (آل السُّوق نْ "لْبِيرُو" آ سيدي).

أشار موموح للرجل بالركوب.

أحس موموح، والرجل يصعد إلى السيارة، بأن شيئًا لا يعي ماهيته يجذبه إلى أفراد قبيلته، شعر نحوه بمودة، لا يدري لماذا. كما أن ركوب الرجل إلى جانبه لبّى رغبة في نفسه. أهو إحساس بأهمية تقديم المساعدة لشخص حكمت عليه الحياة بالمشي الشاقّ لمسافات طويلة، أم هي سعادة بوجود من يرافقه ويؤنس وحدته؟

موموح من الفصيلة التي تتجرأُ وتتحدث إلى غرباء لم يسبق له أن التقى بهم... لكن مرافقه الجديد لا تظهر عليه الرغبة في محادثته.

قال موموح مخاطبًا الرجل الذي اكتفى منذ ركوبه بالنظر إلى الطريق أمامه:

- (آ مَامْشْ تْيِيتْ أوْلَاهْل، مَايْنّْخْ تْكُّورتْ خُوطَار؟ ياكْ 207 يْوْشِيتّْ ربِّي، ميسْمْ نّْشْ بْعدَا)... كيف حالك؟ لماذا المشي على الأقدام و207 متوفرة، ثم ما اسمك؟

رد الرجل كمن يُخاطب الطريق:

- اِسمي أحمد، وينادونني حدُّو، أما عن "المركوب" فظروفي كما ترى لا تسمح بأداء أُجرة النقل... ثم إنني أحب المشي، يقول الأطباء إنه مفيد للصحة. (أوِي إِيمُودَالَا ماوْر غَارشْ إِفَادّْنْ نّْسْنْ، أُورْ دَا تّْيِلِيتْ)، إن لم تكن لديك القوة لمواجهة صعاب هذه الوهاد فإنك لن تستطيع العيش هنا.

قال موموح متعجبًا:

- لكن الطريق طويلة، و"البِيرُو" ما زال بعيدًا! سينفض السوق قبل وصولك.

رد "حدُّو" على تعجب موموح قائلًا:

- لدي طفلان، وزوجة، وأبوان مسنان. ثم إن المعيشة غالية، والدخل لا يستقر على حال... وكل فلس نعرف الثقب الذي سنسدُّه به سلفًا... وثقوب الحياة كثيرة.

وعن سؤال موموح حول سن "حدّو" أجاب الرجل بأن عمره ستة وثلاثون عامًا.

قال مومّوح بصيغة التعجب:

- ولديك طفلان فقط!

رد "حدُّو":

- (ما كِّيتْنْ هْيَّا تْخْسْتْ آدَاتْسْنْ آدْ كّْسْنْ أَغرُومْ إِيدّْجْ إِي پِيدّْج).

أتريد أن يكون عددهم كبيرًا حتى يتنازعوا رغيف الخبز القليل بينهم؟ نحن يا سيدي في زمان يعتبر فيه الطفل مشروعًا استثماريًا، فأنّا لمسكين مثلي بتمويل عدة مشاريع يتطلب تدبيرها مواجهة مصاريف الأكل والملبس والتطبيب...؟ (أوِي دَازْوَار دَايْتْمَاسْ)، إنه العجب وإخوته.

اِستحسن مومّوح في قرارة نفسه الأمر، ورأى فيه بوادر انتقال ثقافي محمود. أن يقرر بدوي وراعي غنم من تلقاء نفسه تحديد نسله لأسباب اقتصادية، هو مؤشر على وعي يحسبه مومّوح من مستلزمات التغيير.

- (إيوَا مِّيغْ لا ياسْردون لَا ياغْيُولْ إي تْمْنِيشْتْ)؟ أليس لديك بغل أو حمار لتركبه؟ يسأل مومّوح.

كان جواب الرجل مدعاة لتعجب مومّوح الذي كان يعتقد أن أسلوب عيش أهله لم يتطور كثيرًا، ظانًّا أنهم ما زالوا يشتغلون أكثر، وأنهم يفعلون ذلك لأنهم يعشقون العذاب... قال "حدُّو":

- لقد تطورت الأمور، لم يعد إركاب الأشخاص من اختصاصات البغال والحمير، صرنا نستعملها حصريًّا للحرث، ونقل الماء، والحطب.

رد مومّوح بسذاجة غريبة يسأل "حدّو" عن طبيعة انشغالات النساء، وقد صار نقل الماء وحمل الحطب من مهام البغال والحمير.

- (أورْ يَا يْسُولْ حدّْ إزْدّْمْ والَا يْزّاضْ وَالّا يْتَّايْمْ، تِيسْدْنانْ شْوَانْتْ رَّاحتْ، صّحّْنْتْ، صَبْحَنْتْ)، ما عاد هناك طحنٌ، ولا احتطاب، ولا حمل لقراب الماء، النسوة يستمتعن بالراحة وبالصحة فصرن جميلات...

كذلك رد "حدُّو" وهو يقهقه ضاحكًا قبل أن يستدرك:

- هذا لا يعني أن ظروف المرأة قد تحسّنت كثيرًا، فظروف الحمل، والولادة، وتربية الأطفال، والواجبات المنزلية، صارت أرهق وأضنى... ما زال أهلنا بأعالي بُويْبْلان يواجهون غياب الخدمات الصحية بأدواتهم التقليدية. يحملون من فاجأها المخاض في ظروف تجعلك، لو تبيّنت في الأمر، لن تفهم ماذا يحملون، وإلى أين هم ذاهبون، أهو لوح إسعافي أم هو نعش جنائزي؟

يتكلم "حدّو" بهدوء وتلقائية الذي ألف معايشة الحالات التي يحكي عنها.

وعن سؤال مومو ح حول طبيعة مهنة رفيقه على الطريق، أجاب "حدُّو":

- عن أي مهنة تتحدث يا سيدي؟ إن كنت تقصد الشغل الذي يأخذ مني جل أوقاتي فأنا راعي غنم، أما عن انشغالاتي الموسمية فأكون فلاحًا يغالب بعض رِقاع الأرض التي انتزعها جدّي من الغابة وقضى بسبب ذلك بضع سنين في السجن. لكن الحقيقة المُرة هي أن أهل البادية، على الرغم من عشقهم للعمل، هم عاطلون. وأغلب الأنشطة التي يمارسونها هي بطالة مقنعة.

قال موموح مستفسرًا:

- الظاهر أنك تقصد السوق... فلمن تركت الأغنام؟

فهم مومو‌ح من الرد أن "حدُّو" ترك ماشيته تحت وصاية ابنه البكر، اِستنفر استهجانه للأمر وقال:

- أجعلتَ ابنك يغيب عن المدرسة من أجل غنمك؟

- الاهتمام بالكسب أضمن وأجدى... أما المدرسة فقد انتهى أمرها، وأفضل ما قد تحمله إلى شباب هذه المنطقة هو الجندية... ولنفرض جدلًا أن أبنائي دخلوا المدرسة وتعلّموا... ولنسلّم كذلك بصحة ما قلتَه حول صناعة المدرسة لأسباب النجاح، هل تعلم يا سيدي ماذا سيكون مصير الأُسرة؟ سينتشر الأبناء في أرض الله الواسعة بحثًا عن ترقية لا أجد لها معنى، فتتشتت العائلة.

يحدث موموح نفسه، هو يرى أن حكم "حدّو" على المدرسة كان واقعيًا، قاسيًا، ونهائيًا، رغم أنه يقطر جهلًا وأنانية. جهلًا، لأن "حدُّو" بحكم ظروفه، لا يعلم سوى القليل عن أهمية المدرسة بالنسبة لمستقبل الأطفال وتحسين أوضاع العائلات. أنانية، لأن السيد "حدُّو"، حين يتحدث عن تشتيت العائلة، إنما يهتم بنفسه فحسب.

وعلى الرغم من أن الصراع بدا غير متوازن، فإن موموح قرر التصعيد والاستفزاز، وقال:

- ألا يستهويك أن يصير ابنك في المستقبل موظفًا كبيرًا مثلًا؟ أو وزيرًا... لم لا؟

رد "حدُّو" بصيغة غاضبة:

- هو صحيح أنك أركبتني سيارتك، أشكر لك، لكن ذلك لا يسمح لك يا سيدي بأن تسخر مني. ألأنني راعي غنم، لا أراك تراعي شعوري؟ اِستخفافك لا يعجبني.

لزم مومُوح الصمت... ربما فهم من انفعال الرجل اقتانعه بأن الوزارة يرثها حصريًا عباد الله الأغنياء... ثم إنه رأى أن لا فائدة من مجادلة راع في موضوع لن يستوعب حقيقته في جميع الأحوال.

أوشكت السيارة على نهاية عبور غابة من أشجار البلُّوط، تمتد على عشرين كيلو تقريبًا، لتطل، بعد تجاوز المنعرج الأخير، على "الْبِيرُو" الموشوم بالقرميد الأحمر عنوان المخزن والرهبة ونظام سُخرة "رِبْعيّام".

7

بدَا أمامه "الْبِيرُو"، حيث ساد من كان يحسب أن لن يقدر عليه أحد، حيث مقر القيّادة بالقرميد الأحمر التي كانت الساكنة تخشى الاقتراب منه.

نظر بعيدًا، فأسعده، وأراحه انتصاب قمّتي "تايْلْمامْت"، و"الفدّانْ" في تحدّ ممتع لسلطات "البِيرُو". يحدث نفسه قائلًا:

- تفضل يا مومو ح، توكّل على من صخر لك ركوب الحديد، ولا تخف، سيعينك ربُّك على إقناع هذا الفضاء أمامك حتى يغفر لك خيانتك.

لم يكن موموح يحمل "الْبِيرُو" في قلبه، كلما مر من هناك إلا وتذكر والده الذي عانى، وهو اليتيم، من سخرة الأعمال الشاقة المفروضة على الساكنة بدون أجر في نظام يتسم بالظلم و"الحكْرة".

كان مومـوح الأب وأترابه يشتغلون لفائدة "سْكِيزُو" قائد القبيلة في غرس الأشجار المثمرة، كما تم تسخيرهم لحمل البريد المخزني وتوزيعه على القرى البعيدة (تَابْرَاتٌّ).

كان اليوم يوم الإثنين، حيث تلتئم السوق الأسبوعية، فتفاجأ موموح بالسوق وقد أُقيمت خارج أسوارها المعتادة، وصارت تحتل في عشوائية واضحة جنبات مدخل الجماعة.

أوقف موموح سيارته، ودع "حدُّو" رفيق طريقه، ثم نزل يتجول في "الشارع" السوق.

لاحظ بسرعة أن السوق ما عادت كما كانت... صارت شيئًا آخر غير البنية الثقافية التي كانت تعطي صورة عن تقاليد قبيلة آيت وَرايْن وعاداتها التي ترمز إلى مجتمع قبلي بحمولة مادية ولامادية رائعة.

تفاجأ موموح بموضة جديدة وغريبة على مستوى لباس أهله... ما عاد المكان يصطبغ باللون الأبيض لجلابيب رواد السوق، لقد طغى اللون البُني للملابس الإفرنجية المستعملة على منظر القبيلة، فأفقدها براءتها وأناقتها، وفضح تنازلها عن تمسكها القديم بعاداتها وهويتها.

لم يكن موموح ليرضى بخضوع أهله لبقايا الثقافات الغازية، ثم إن المشهد العام يوحي بأن سكان المنطقة، رغم حرصهم على تغيير نمط الحياة، لم يستطيعوا إرساء نموذج اِقتصادي قادر على تنمية مستوى معيشتهم.

اِنتبه موموح على رنين محموله... فيجيب...

يرد الطفل المشاغب وكأنه كان يتحين فرصة اكتساب موموح عادة التحدث إلى نفسه:

- يا للعجب! ويا لازدواجيتك! ترحل عن قريتك بحثًا عن معاصرة ظننت أنها سترفعك، وعدت اليوم لتعبّر عن رغبتك في استمرارية أصالة أهلك، وصرت من سدَنة قديمنا وتقاليدنا. لا، أيها السيّد موموح، اِلْعب غيرها.

قال موموح وقد انشرحت أساريره حين وجد فيما قاله الهاتف بعضًا من الحقيقة:

- اِسمع يا هذا، لا أظنك تستطيع فهم ما سأقوله، لكنني لا أنكر أن ما قلتَه لقي بعض الهوى في نفسي. إنه تنازع سار بي، وما يزال، على طريق النقيضة. المسألة يا عزيزي بين الأصالة والحداثة ليست بيدي، ولم تكن يومًا بيد جدي، هي عملية يحكمها الوقت ويتحكم فيها التحول المادي.

مستنكرًا يرد الهاتف:

- ما تقول به يا عزيزي لا يقبل به عقلي، أصالتنا ومعاصرتك طريقان لا يلتقيان.

يعلق موموح قائلًا:

- هو صحيح... النزوعان يختلفان، لكن عملية المزج بينهما محتملة، بل هناك التقائيات ممكنة إذا توفرت النية لقيادة تغيير يروم الملاءمة والتصحيح والتطوير...

اِنقطع الخط فجأة بسبب رداءة التغطية.

ألقى مومـوح في نهاية "الشارع" نظرة تفقدية خلف صف الدكاكين (تِيحُونَا) التي تؤطر السوق من الناحية الجنوبية، ليس هناك أحد.

إنه المكان الذي كانت بعض النساء المُتسوّقات يتخذنه ملجأ لهن بعيدًا عن عيون الرجال دون أن يكنّ من روّاد السوق... فيتبضع رجال من أسرهن أو معارفهن نيابة عنهن ويبقين هناك حتى تنفضّ السوق.

وقف موموح يحقق النظر في بقايا نبات الحلفاء حيث كانت النسوة يجلسن وقد أقصين من دخول السوق. فتساءل عن أسباب هذا الإقصاء، وسأل نفسه عن مسؤولية الجميع فيما جرى.

تخيل موموح لو هزته نخوته وقتها ودعا النسوة إلى ولوج السوق، ورافقهن، ماذا كان سيقع في ملك الله؟ بل ماذا سيكون موقف أهل السوق لو تجرّأت النساء، وتركن مخبأهن وصرن من رواد السوق؟

أيكون ذلك عصيانًا مدنيًا وجب إنهاؤه مثلًا، أو ثورة على التقاليد لن تسمح بها الذكورية المسيطرة، أم يُحسب ذلك أمرًا عاديًا سيساهم في زعزعة السائد مما ألفه الأولون؟

خلال زيارته التفقدية للسوق، لاحظ موموح العدد الهام لسيارات النقل العمومي 207، فيما كان عدد البغال والحمير برحبة البهائم قليلًا جدًّا. هاله أن يرى محطة حافلة حمَّادي وقد صارت موقفًا لمركبات 207 التي اختصّت بنقل رواد السوق وحيواناتهم في كل الاتجاهات. وقف موموح وهو يحدد مكان إركاب المسافرين

حيث كانت الحافلة الحمراء تقف ثلاث مرات في الأسبوع في انتظار اِستكمال حمولتها ونقلها إلى "تيزي".

يدقق النظر، فتحمله الذكرى ليُحدثه صدى محرك حافلة حمّادي عن ذلك اليوم الجلل:
- أتذْكر يوم حطَّ الجدُّ عن بغلتِه وأودعها عند أحدهم ليُرجعها إلى تاحفورت؟

يقول مومو ح ردًّا على الصدى:
- نعم أتذكّر... مِن على البغلة إلى الحافلة، هي قرون من الزمن طويتها في رمشة عين بصعودي إلى الناقلة...

يتذكّر موموح كل شيء، فيتصاعد صدى صوت المحرك مُسائلًا:
- أتذكر كيف ضعتَ بين وُجوفِ قلبك المُصوِّت وهسيس نفسك الخفيِّ وأنت تكتشف شساعة الهوة بين بساطة خدمات أهلك من خلال تشكيل الحديد وتطويعه لإنتاج الحياة، وبين بيت من الحديد يتحرك من تلقاء نفسه، يحمل الناس إلى حيث أرادوا، ويمشي على عجلات تدور في استجابة تلقائية لمقود لا يتكلم؟

يضحك موموح من نفسه حين تذكر كيف كان يظن أن عمّه "بُوڠرينَ" وإخوته، هم وحدهم أوتوا علم الحديد، وكيف استعصى عليه فهم زراعة الحياة في المعادن وهي جماد، وكيف عجز جده عن الجواب لما سأله عن قدرة أعمامه على صناعة محراث "تَاڭرْسَا" يشق الأرض ويمشي من تلقاء نفسه دون الاستعانة بدواب الجر!

قال الصدى:

-كل ما استوعبتَه وأنت تحقق النظر في الأسطوانات المطاطية التي تمشي عليها الحافلة أنها مصدر أحذية أهلك (أرْكاسْنْ)، قبل أن يُدخلوا عليها قيمتَهم المضافة.

فجأة... يرن المحمول ليجيب مومو ح:

- أزُول...

يرد "الطفل مومو ح" قائلًا:

- أتذكُر وقتَها وقد انطلقت الحافلة... وأنت تنظر عبر النافذة لتودع أحلام طفولتنا، فتركتني واقفًا غير آبه بي، لا تلتفت إلي وكأنك لا تراني؟ لقد جعلتني أعود مكسور الخاطر إلى قريتنا مع بغلة جدِّنا. كان ذلك اليوم آخر عهدك بي.

متعجبًا يقول مومو ح:

- أنا ما تركتك وقتها، بل حملتك معي وما زال حملك يعذبني.

مستغربًا يعلق "الطفل مومو ح" على تعجب مومو ح قائلًا:

- العجب هو ألّا تعاف نفسُك السهلَ، وألّا تطلب الشاق المُمتنع وهي التي ألفت الارتقاء! العجب العجاب هو أن أرى الفتى المشاغب الذي لم يُرهِقه الصعود يومًا، والذي يستطيع امتطاء بغلة جدِّه ليُورِدها عارية الظهر، ويركبها، وقد أسرَج جسمه الصغير بقميص رفيف لا يُغنيه من صلابة حارِك البغلة... أن أراك لا تتعجب من سكون نفسك وأنت جالس بين المقاعد الوثيرة لحافلة حمّادي. كان الأمر سهلًا لا يتطلب جهدًا، لكنك رضيت بذلك، وأعجبك، واستحليته بعد ذلك وجعلته منهاجًا لحياتك.

رد مومو ح قائلًا:

- أي سكون وأي سعادة؟ بل كنت جالسًا وقتها أُنصت إلى أنين ألمي، وأتجوّل بين أفكاري، لقد خرج عقلي من الحافلة وتاه ليعلن عن حداده وحزنه.

"تمنَّيت لو سافرتْ معي تاحفورت، رغبت في أن ترافقني في رحيلي لتوفر لي الحماية كما آمنتني من قبل من خوفي وضعفي. لكن هيهات هيهات... ما كل ما يتمناه المرء يدركه!"

"كنت، وأنا جالس بين المقاعد الوثيرة لحافلة حمّادي كما تقول، أناجي قريتنا، وأؤكد لها أنه على الرغم من أنّ جمالها يكمن في جمادها، فإنني سأخترعها، وسأرسم لوحات بذكرياتها، وسأجعل منها معلقات على جدران بالي، فلا أنسى".

"كنت، أيها المشاغب، أحاول إرشاء مرسول العشق الأبدي حتى يقتلع من بين الصدَفين (تايلْمامْتْ والفدَّان)، صورًا يبعث بها كالنُّتف إلى ذاكرتي. كانت الصور يا سيدي، تتنزّل وقد بللها الحنين بدموع تهوى التزحلق على خدود ألم الفراق... كنت أبكي".

اِنقطعت المكالمة بسبب رداءة التغطية، ظن مومَوح أن الطفل المشاغب انسحب مرفوقًا بالصدى، فقرر اغتنام الفرصة لزيارة الفضاء الخاص على الجانب الشرقي للسوق حيث كان حدّاد القبيلة يعرض منتوجاته الحديدية من مناجل، وفؤوس، وسكك المحاريث، ويقدم خدمة تغيير حدوات الدواب... قفل موموح راجعًا حين نظر من بعيد إلى المكان فرآه فارغًا، ليتذكر أن خاله الحدّاد لم يعد من هذه الدنيا.

مرة أخرى يمر موموح أمام محطة حافلة حمّادي القديمة، يرن الهاتف من جديد. يجيب موموح:

- أُلو...

يرد "الطفل مومـوح":

- لم نُنه بعد حوارنا حول دواعي تغييرك لبغلة جدّك بحافلة حمّادي. كانت الحافلة تنطلق من حيث تقف أنت الآن ، ركبتها يوم ختنتني وتركت تاحفورت، ثم سافرت بها مرات عديدة وأنت راجع إلى "تيزي" من عطلك المدرسية. أتذكُر العجوز "حادّا" المسكينة؟

يظهر أنك نسيت... خلتك ستتذكرها حين اصطدم عقلك بذكرى موت خالك الحدّاد. لكن، لا بأس، سأقص عليك من حكايا الغياب والهجرة ما يجعلك تعي حجم الخسارة التي تكبدناها جميعًا.

وقف الركاب حيث أنت الآن، دفعت العجوز التي كانت في الطابور أمامك ثمن التذكرة لمساعد حمّادي الذي سألها:

- إلى أين تريدين الذهاب يا خالتي؟

لم تفهم العجوز، هي أمازيغية أحادية اللسان. تدخّل أحد المسافرين وقال مترجمًا:

- (يْنَّامْ لْكْرِيسُونْ مانِي تْكُّورْتْ؟)، يريد المساعد أن يعرف إلى أين أنت ذاهبة.

ردّت العجوز:

- أسافر عند ابني موحنْد، ألا تعرفونه؟! هو عسكري بثكنة "تيزي"، لم أره منذ عشرين سنة.

مدّ لها المساعد التذكرة، طوتها طي الحرز، ثم لفتها بأحد أطراف منديلها وعقدته. صعدت إلى الحافلة من الباب الخلفي، صارت تجلس على الكرسي، ثم تقوم لتجلس على كرسي آخر، وهكذا دواليك، حتى انتهى بها الجلوس خلف السائق مباشرة...

مُلئت الحافلة بالركاب عن آخرها. نادى حمّادي على مساعده الواقف بالباب الخلفي للحافلة الذي لم يغلق بعد:

- هل صعد الجميع؟

رد المساعد بإغلاق الباب بقوة قائلًا:

- "رُولْ"...

كانت الساعة الواحدة زوالًا، حين أعلن حمادي عن انطلاق الرحلة نحو "تيزي"... عمّ الصمت الحافلة إلا من صوت المحرك يغالب عقبات الطريق وموسيقى هادئة تنبعث من لوحة القيادة. فجاة، طفقت العجوز تشتم الركاب بدون سبب واضح، وتخاطب حمّادي باللغة الأمازيغية:

- (يْدْوْلْ لْحدِيدْ نّْشْ آمْ تْدْرَاتّْ، أمَّانِي تْشْسِّيتْ إمشساونْ دْ تْغْطّْنْ) لماذا تحمل في حافلتك هذا القطيع من الماعز، ألا تشم رائحتهم؟ هم كلهم رعاة غنم، ليسوا كابني التي ترك هذه المهنة الملعونة لينخرط في الجندية.

التفت إليها حمّادي وقال مستفسرًا:

- عفوًا سيدتي، ماذا قلت؟

لم تردّ المرأة لأنها لم تفهم هي الأخرى ما قاله السائق.

هو حوار الطرشان إذن، تبادل للحديث لا يصل مداه بسبب جهل كلا المتحاورين للغة الآخر.

قال مومومح الذي يجلس بالصف الثاني غير بعيد، مخاطبًا حمّادي:

- لا تهتمّ، يبدو أن العجوز ليست في كامل قواها العقلية.

تنبعث أنغام موسيقى شعبية ترافقها زغرودة من مذياع الحافلة، فينتبه الركاب على صوت العجوز وقد أطلقت زغرودتها الخاصة، وطفقت تغني بصوت يختنق بالشجن:

- مانيس يا تْكِّيتْ آ مُوحنْد إينُو؟ وِيمِي پِي تْدّْجِيتْ آ يُولْ إِينُو؟

أين غبت يا ولدي؟ لمن تركتني يا قلبي؟

يسأل الطفل المشاغب مومِوح ليتأكد من أنه ما زال ينصت إلى سرده:

- أما زلت تذكر ما كتبته في مذكراتك عن الصعوبات التي عانيت منها قبل أن تتأقلم مع ركوبك حافة حمّادي، خاصة خلال سفريتك رفقة العجوز؟

ردّ موموح مبتسمًا:

- نعم، أذكر ذلك جيّدًا... لقد فرضت المنعرجات على الحافلة أن تميد يمينًا وشمالًا، فشعرت بانقباض في أمعائي، وأُصبت بالدوّار، وأحسست بجيشان نفسي التي تكاد تتقيأ بعد أن نالت المنعرجات الدوَّارة المترددة من رأسي، ثم أزحت لوحة النافذة الزجاجيّة تحسبًا لأي طارئ.

أردف موموح بأنه استشعر الراحة والانفراج بعد أن أفرغ حموضة معدته عبر النافذة.

تنساب الحافلة عبر المضيق انسياب الأفعى الهاربة، لم تعد تتوقف لتفادي حفر المسلك الترابي الرابط بين "الْبِيرُو" و"باب بُويْدير".

تسأل العجوز هل وصلت الحافلة إلى الثكنة، فلا تتلقى جوابًا.

أوصل حمّادي الحافلة إلى محطتها ب "تيزي" بسلام. نزل الركاب، انتظروا مساعد السائق لإنزال أغراضهم من على سطح المركبة. تأخر المساعد طويلًا. كثر الهرج... ظهر مساعد حمّادي بعد حين نازلًا من الحافلة يسند العجوز التي رفضت المغادرة حتى يأتي ابنها "مُوحنْدْ".

يلتمس حمادي ومساعده من موموح البقاء إلى جانب العجوز لغرض الترجمة. أخذت العجوز تصرخ محتجة على عدم حضور ابنها. حاول موموح ومجموعته تهدئتها. يتكفل موموح ومن معه بمرافقة المرأة إلى الثكنة للقاء ابنها. وحيث أن الوقت لم يكن يسمح بزيارة الحامية العسكرية مساءً، قضت العجوز الليلة مع رفاق موموح بِ "برّاكتهم".

استيقظ الجميع على ضوء الشمس الصباحية وهي تطل عبر ثقوب سقف "البرّاكة" القصديري. بعد الفطور، رافق موموح ورفاقه العجوز "حادّا" إلى الثكنة.

يضحك الضابط ملء وجهه وهو يسأل عن الاسم الكامل لابن "حادّا"... كل ما تعرفه المسكينة هو الاسم الشخصي لابنها. الأمر لا يستقيم، صار الوضع كمن يبحث عن إبرة في كومة قش.

بعد البحث والتقصي، ومن خلال بعض المعطيات التي جاءت في إفادة العجوز، تبين لمسؤولي الحامية العسكرية أن ابنها انخرط فعلًا في الجندية بثكنة "تيزي"... لكنه لم يعد على قيد الحياة، مات على الحدود بين ألمانيا وفرنسا منذ عشرين سنة.

هي هجرة من نوع آخر...

أحيلت "حادّا" على مصالح الدرك وفقًا لما تمليه مقتضيات القانون.

اِنتبه مومو ح، وقد انقطع حبل ذكرياته، على صوت أحد التجار يشهر سلعته.

يسير فتى تاحفورت في اتجاه المقهى الوحيد الكائن بمدخل السوق.

هو شبه مقهى بأشباه طاولات بلاستيكية علاها الغبار، وبكراسي معدودة ببياض اتّسخ وتقادم حتى تغير لونه... ورغم رداءة المكان وبؤس الأحوال فقد بدا على وجوه رواد المقهى أنهم يستلذون جلوسهم.

رافعًا يده اليمنى ألقى موموح التحية على رواد المقهى، وقال:

- "أزُولْ" مامشْ ثْيِيمْ؟

رد الجميع:

- وعليكم السلام.

لا يهم ما تمنى ابن الأمازيغ سماعه...

جلس موموح إلى إحدى طاولات المقهى، ولتفادي مواجهة النظرات التي تناولته بالتمحيص والافتحاص، حوّل اهتمامه إلى النظر في سقف المقهى، وأخذ يحقق في بعض الحشرات المسكينة التي علقت في شراك العناكب.

كان الكرسي الأبيض من مادة البلاستيك، تصميمه بسيط لا يساعد على الاسترخاء، خرج نادل المقهى بعد حين يحمل قارورة ماء، وطفق يصب على يده اليسرى ويرش المكان في عملية استباقية

تحول دون تطاير الغبار، اِلتفت إلى مومو ح الذي بادره بالتحية قبل أن يطلب شايًا.

كانت تحية مومو ح في لغة أمه:

- أزُول فْلَّاوْنْ.

رد النادل التحية:

- وعليكم السلام.

النادل شاب عشريني، متوسط القامة، يتمتع وجهه بالوجاهة والسكينة، يظهر من خلال أناقة ونظافة ملابسه البسيطة التي غابت عنها الخشونة أنه كان يعيش بالمدينة.

يضع الشاب على رأسه قبعة سوداء بواقية أمامية واسعة تظلل وجهه الذي تزيّنه لحية خفيفة وعينان سوداوان كحبّتي زيتون في ذروة اللمعان.

ينتعل النادل حذاءً رياضيًا يظهر من لونه الأبيض الذي تأثر بغبار المكان أنه من علامة ونوع عاديين.

عاد الشابُّ النادل يحمل صينية عليها برّاد به شاي، وضعها فوق الطاولة ثم قال وقد بدا مُحرَجًا:

- عذرًا سيدي، لقد رددتُ عليك التحية بغير لغة المكان. أنا أمازيغي... أفهم الأمازيغية قليلًا لكنني لا أستطيع التحدث بها.

رد مومو ح مُهوّنًا على الشاب:

- لا عليك... لقد فعلت الهجرة فعلتها.

بصيغة الواثق يرد الشاب قائلًا:

- بل هي المدرسة سبب اندحار الأمازيغية بقرى الأعالي.

يستعلم مومو ح الشابَّ سائلًا:

- كيف تغزو المدرسة البيوت وتمنع الأُسر من التواصل مع أبنائها بالأمازيغية؟

رد الشابُّ بهدوء:

- الغزو ثابت يا سيدي والمنع غير وارد...

أبان الشاب النادل عن علو كعبه في محاورة مومو ح الذي وجد نفسه في مأزق حقيقي حين كاد يتحقق من خلال الحوار من أن الانقراض المنتظر قد يصير انقراضين: فناء تاحفورت، واختفاء الأمازيغية.

منذ وصوله ومومو ح يبحث عن هُوِيته في وجوه رواد السوق... بالكاد وجد بعضًا من شرانقها على قليل من القسمات... يسترق السمع فما سمع لخاصِّيته المميِّزة صدىً، لم يجد سوى بقايا هُويته على اللسان المُتلعثم لقليل من المتقاعدين الذين اختاروا البقاء...

صعب عليه أن يكتشف أن سوقه عرّبها الزمان، وأن أرضه ما عادت تتكلم أمازيغي. أخذ يتساءل عن طبيعة الوضع الذي صارت عليه السوق، أهو تعدد لغوي مفيد أم أنه النسق تغير ليفضي إلى انقراض اللغة المحلية.

رن الهاتف في أذني فتى تاحفورت، إنه المشاغب الذي تستدعيه مآزق مومو ح كلما أحس أنه في ورطة.

قال المهاتف:

- وَاشْ بَانُوا لِيكْ؟ رُب شاب تحتقره عينك... يأتيك بالحقيقة كلها. هل تبين لك الآن أن قدوم المدرسة إلى القرية وهجرتك منها هما أصل البلاء؟ لا تحاول الترافع للدفاع عن نفسك بخصوص هذه القضية... هي خاسرة.

يرد موموح على نفسه التي تبحث عن الاطمئنان المفقود:

- لا المدرسة ولا الهجرة لهما مسؤولية فيما حصل، إحجام أهلك عن الحديث بلغتهم هو وحده سبب كاف لغياب الأمازيغية. اِرخ السمع وقل لي عن اللغة التي يتحدث بها السوق.

ما كان الطفل المشاغب الذي يسكن موموح ليقتنع، فرد قائلًا:

- أهلك مغلوبون على أمرهم، فكيف لهم أن يختاروا؟ النظرة الدونية التي تشكلت في لاوعي أهل المدينة حيث هاجرت هي السبب.

ينتبه موموح على صوت النادل الواقف إلى جواره وهو يستفسره عن دواعي سرحانه قائلًا:

- معذرة سيدي إن صدر مني شيء يثير الحفيظة...

يرد موموح متلعثِمًا:

-لا يا بني، كنت أفكر فقط في مدى صواب ما ذهبتَ إليه بخصوص أمازيغيتك. ثم قل لي ما اسمك؟

قال الشاب مبتسمًا:

- اِسمي يوسف...

يوسف، اِسم جميل، لكن... أيكون السقوط ثلاثيًا حين تصير الأسماء الأمازيغية هي كذلك آيلة للانقراض؟ قالها موموح في نفسه ولم يُبدها ليوسف.

اِنتبه رواد المقهى على صوت أحد الزبائن وهو ينادي على يوسف مُوَبخًا إياه على تأخره في تلبية طلبيته. اِعتذر يوسف، لم يحاول تبرير تأخره، لكن الزبون اختار التصعيد، فظهر من ملامحه أنه لا يستطيع إخفاء تذمره.

يتدخل صاحب المقهى بسرعة، أخذ يعتذر محاولًا تهدئة الزبون الغاضب حتى لا يتطور الأمر، لكن الأخير أبان عن عدوانية مفرطة وقد رفع من عقيرته، فصار الموقف غير مفهوم حين أخذ الرجل يتلفظ بعبارات الاحتقار في حق النادل وهو يتهمه بالأمية وبجهله لقواعد مهنة النادل.

رد صاحب المقهى منزعجًا:

- أما بخصوص أمية نادل مقهاي وجهله، فاعلم رعاك الله أن السيد يوسف هو من خريجي الجامعة وحاصل على الإجازة في الحقوق، كما أنه شاب طيب وخلوق يحاول خدمة الزبائن باحترافية... اِحترم زيّك ولا تمعن من فضلك في الاحتقار والإهانة.

اِنصرف الزبون غاضبًا، وتفاجأ مومو ح بما سمع... يوسف خريج جامعة!؟

أخذ مومو ح يُربِّت على كتف يوسف الذي تضايق كثيرًا من تنمُّر موظف عمومي كان من المفترض فيه أن يحترم زيه الرسمي.

عاد الهدوء إلى المقهى، هدوء مشوب بجو مشحون تسيطر عليه كآبة بلدة "البِيرُو". اِنصرف يوسف إلى الاهتمام بزبائنه.

ينصت مومو ح المصاب بطنين الأذن إلى رنين هاتفه وإلى ضوضاء مهاتفه الداخلي وهو يصرخ:

- ما أحلى الجنديّة!

فضل مومو ح ألّا يتفاعل مع نفسه المشاغبة التي تهوى التّنمُّر، فأخذ يرشف شايه بهدوء وهو يسترق النظر لعله يتعرف على أحد من معارفه بين المارين أمام المقهى.

لم يستطع الزائر أن يطالع وجوه رواد المقهى الجالسين... ما زالت نظراتهم تتناوب على التفرُّس في ملامح الغريب تارة وعلى تبادل النظر فيما بينهم تارة أخرى.

عاد النادل بعد أن قام على خدمة زبائن التحقوا بالمقهى، خاطب مومو ح شاكرًا إياه على تضامنه بخصوص سوء التفاهم الذي وقع، وقال:

- وجهك مألوف لدي، لا أعلم إن كنا التقينا من قبل، في جميع الأحوال أنا لا أتذكر الزمان والمكان... هل أنت من أهل المنطقة؟

رد مومو ح وهو ينظر جهة الجنوب في اتجاه قمة بُويْبْلان:

- أنا من هناك... من سفوح الجبل حيث "إِبْلانُ" الثلج ما تزال صامدة. أنا من تاحفورت.

تقدم النادل وقد أضاءت وجهَه ابتسامة عريضة وقال:

- لن تخطئ فراستي هذه المرة، لقد تذكّرت، ومن هذا الذي يسمع اسم تاحفورت ولا يتذكر ابنها البار... إنك لأنت مومو ح.

يقف مومو ح ليعانق صديقه في العالم الأزرق.

لم تكن ظروف مهنة يوسف لتسمح بالحديث إلى مومو ح بانسيابية. كان الحوار متقطعًا، لكنه استمر لوقت مكنت مدتُه يوسفَ،

اِبن المكان، من الإجابة على أسئلة موموح حول أحوال قرية "الْبيرو" ومحيطها، وعلى تصرفات سدنة "الديموكراسية"، ودواعي الوضع الذي ما زال قائمًا من جراء الظلم الذي لحق المنطقة إبان فترة القهر والحماية.

قال يوسف وهو يجيب على أسئلة موموح، إنه كُتب على "البِيرُو" أن يبقى "بِيرُو" كما اصطُلح عليه قديمًا، لم يتطور أي شيء. أي نعم، كما هو الحال في كثير من البقاع، هناك إضاءات، لكنها غير كافية. ما عاد السدنة أميّين، لكن الحماة الجدد من المتعلمين طوروا مهارات غير منتجة، بل هي في اعتقادي مضرة في كثير من الأحيان. متعلمون، لكنهم يتناطحون، فيقتصر جهدهم على البحث عن الانتصارات الوهمية... يلتحفُ "الْبِيرُو" رداء الرداءة فتنهزم التنمية بقرى الأعالي. أما بعض سدنة "الديموكراسية"، فقد صاروا بارعين في الكذب المناسباتي قبل صيد الصناديق وبعده.

اِستأَمّوا الكراسي، ألفوها، فتراهم يسترزقون البسطاء الدعمَ ويعدونهم بالترافع ضد خوصصة الهواء... هم زاحفون لا يثبتون على حال، يحاربون الشمس... ويستطيعون الالتفاف على كل الريوع ويغيّرون لونهم حسب الظروف.

بحماس شديد يتحدث يوسف عن مؤشرات الأزمة التي يعيشها "الْبِيرُو"، حيث يرى أن التقطيع الترابي، وانخراط الشباب في الجندية ساهما في تراجع عدد السكان وفي بروز تحوُّل واضح على مستوى نمطي الإنتاج والعيش. لقد تراجع النشاط الإنتاجي حين صارت المنطقة تعتمد على السوق.

يسأل موموحُ مقاطعًا:
- أهي التحولات التي ذكرتها كانت السبب في الوضع الديموغرافي، أم أنها ترتّبت عنه وعن الهجرة إلى المناطق الحضرية؟

يداعب يوسف لحيته بفرك شعر ذقنه وهو يجيب قائلًا بأن ذلك لا يهم، لأن التبعات واضحة على مستوى النتائج في كل الحالات، موضحًا أن غياب التجهيزات والخدمات الاجتماعية هي عوامل محدِّدة بخصوص اختيار الهجرة أو البقاء.

أمام اهتمام موموح الظاهر، فضّل يوسف سرد بعض الأسباب الأخرى التي تعوق تطور "الْبِيرُو"، حيث أشار إلى الصعوبات المرتبطة بالوعاء العقاري الذي ما زال يعاني من تبعات ما يُحكى عن "التجاوزات" التي عرفها العهد البائد في النصف الأول من القرن الماضي.

مبتسمًا يتدخل موموح متسائلًا:
- هل هي مجرد حكايات وادعاءات أم أن الأمر جِدّي؟ ثم إن كان لدى من يدّعي ذلك ما يفيد فهل كانت التجاوزات بفعل الدخلاء أم هي من اجتهادات المتعاونين المحليين؟

أطرق يوسف برأسه، وكمن يفكر أرخى عينيه إلى الأرض وأمسك عن الكلام، ثم قال:
- كان جدِّي سي حْمُّو فقيهًا، أَلِف تدوين كل الأحداث التي اعتبرها ذات حمولة خاصة ومهمة. اِطلعتُ على مخطوطاته فوجدتها تحكي حقائق غريبة وعجيبة عن المنطقة. إن كان الأمر يهمك فأنا مستعد أن أعطيك نسخة مصورة أحتفظ بها مع المخطوط الأصلي

لوثائق جدّي بأحد أدراج دولابي بسكناي بالطابق الأول فوق المقهى الذي أشتغل به.

ينصرف يوسف مهرولًا، يصعد إلى سكناه بالطابق الأول ليعود بسرعة بالنسخة المصورة.

وقف يوسف ينظر يمينًا وشمالًا كأنه يتأكد من شيء ما، جلس وعينه على الزبائن، ثم قال مخافتًا مومو ح:

- سأقرأ عليك الآن من وثائق جدّي حكاية أو اثنتين وفقًا لما يسمح به عملي، ولك أن تطلع بعد ذلك على الصفائح كاملة وتستنتج منها ما تشاء من الأجوبة على سؤالك.

يقرأ يوسف على مومو ح من إحدى الصحائف مما كتبه جدّه عن بعض الأحداث الخاصة بخدمة "ربْعِيَّام"، والتي تحكي عن وراايني تأخر لأسباب قاهرة عن تلبية دعوة "القايْدْ" لتأدية الخدمة المجانية المفروضة على الأشخاص البالغين لفائدة "الصالح العام"، فصار مبحوثًا عنه دون علمه. بالصدفة يتعرف "مخازنيّة" القائد بإحدى القرى على المعني بالأمر وهو يركب بغلته. يُساق الفارّ من الخدمة إلى "البِيرُو"، حيث أُلقي به في السجن، ووُضعت بغلته بالحجز الشاق بأمر من "القايْد" لمدة خمسة عشر يومًا.

يعرض "القايْد" السجناء في بداية الأسبوع الثاني على "القبطان" الإفرنجي للاستفسار عن الأسباب والأحوال... يسألهم "القبطان" إن كانت لدى أحدهم ملاحظات. كمن ينتفض، يرفع السجين صاحب البغلة عقيرته محتجًّا:

- أفهم سيدي "القبطان" أن أُسجَن لأنني تأخرت عن خدمة "ربعيّامْ"، لكنني لا أفهم دواعي حجز بغلتي واستغلالها في الأشغال الشاقة.

يستفسر "القبطان" القائدَ حول القضية. يتأكد من صدقية احتجاج السجين، فيأمر بإطلاق سراح البغلة وتعويض صاحبها عن مدة حجزها واستغلالها.

يتدخل مومَوح ليسأل عن مصير التقرير الذي رفعه "القبطان" إلى نائب "المقيم" بمدينة "تيزي" لمعاقبة "القايْد" عن خطئه الظالم.

يضحك يوسف مقهقهًا ثم يقول:

-عن أي تقرير تتحدث يا عزيزي موموح؟ "القايْد" و"القبطان" صنوان يشتغلان لاستتباب الأمن وفرض القانون، مهمتهما تقتصر على حلحلة الصعوبات محلّيًا وانتهى الكلام.

يضحك الإثنان من حمولة مصطلح الصنوان، ثم يعود يوسف إلى صحائف جدّه ليُشنِّف أذني موموح بغرائبية حكاية أخرى.

تقول الحكاية، إنه ذات إثنين حيث يلتئم سوق "الْبِيرُو"، تخاصم مواطنان برحبة السوق، اِشتكى أحدُهم الآخرَ عند "الْقَايْدْ" بحضور "القبطان". اِستفسر الأخيرُ عن القضية فأوضح المترجم أن الشاكي يدّعي أن المشتكى به قد أهانه حين رفع في وجهه أصبُعَه الأوسط (يْوْشَاسْ خُّو).

قرر "القبطان" إنهاء القضية لأنه رأى أن الأمر عادٍ ولا يمكن أن يكون مدعاة للإهانة. لكن "الْقَايْدْ" تدخّل مؤكدًا ل "لقبطان" أن الأمر في العرف المحلي هو من الدرجات العليا في سُلّم الإهانة.

تراجع "القبطان" عن رأيه الأول ليحكم على المشتكى به بشهر سجنًا نافذًا.

يعلق موموح متسائلًا عن دواعي اقتناع "القبطان" برأي "الْقايْد"، أكان بسبب احترامه للثقافة المحلية أم أنه تذكّر أصل الحكاية

التي تعود إلى قصة المعركة القديمة "اجينكورت" بين الجيشين الفرنسي والانجليزي، حيث عمد الفرنسيون إلى قطع الأصابع الوسطى للأسرى الانجليز حتى لا يستطيعوا الرماية بالسهام.

فهم موموح من محتوى صحائف جد يوسف أن المنطقة عرفت أحداثًا ذات حمولة ثقيلة... لكن تاريخها ظل لا ينطق، لقد طال النسيان كل شيء وأصاب معاناتها الطمس وعدم الاهتمام.

يرنّ الهاتف، يجيب موموح...

صراخ يدكّ أذن موموح:

- حسبتك فطينًا تفهم على البديهة، لكن يظهر أنك فهمت الأمر متأخرًا. هل تذكر يوم دخل صفُّنا إلى القسم، كان المعلم وقت دخولنا منهمكًا في الكتابة على السبورة، فلما انسحب من مجال بصرنا قرَأنا على السبورة كلمة كنا نعتقد أنها تعني اليوم والشهر والسنة: التاريخ. ظننتك استوعبت وقتها أننا ما كنا لنستلهِم مستقبلنا دون أن نعرف ماضينا.

رد موموح وقد غشت تفكيرَه مسحةُ حزن:

- فهمت وقتها أن الأمر يستدعي توسيع وتعميق المعرفة بأحوال الماضي، لكن الأمور تعقدت كثيرًا عندي حين قرأت للمفكر الكبير عبد الله العروي كتابه حول "مفهوم التاريخ".

قال الصوت المشاغب:

- أتذكُرُ حين قال المعلم يومَها: "البربر هم سكان المغرب الأولون"... اِستقبلنا الخبر باعتزازِ مَن فاز في سباق، لكن كلمة "البربر" كان لها وقع الصفعة على كبريائنا... فأسررتَها في نفسك.

اِنتبه فتى تاحفورت على صوت يوسف يسأله إن كان يرغب في سماع حكاية أخرى من حكايات جده. قال مومــوح مخاطبًا يوسف:

- لا عليك، شكرًا لك، سأطلع عليها كلها من خلال الوثائق.

ألح يوسف وأكد على أن الصحائف تحمل بين ثناياها كثيرًا من السلوكات الإقطاعية والتجاوزات الخطيرة، حيث تم توظيف نظام القايدية من طرف سلطات الحماية لتطويع القبيلة وإخضاعها.

كرر مومــوح شكره، ثم استرسل قائلًا:

- قل لي يا يوسف من فضلك، من أين نبدأ لنتعلَّم التاريخ؟ هل مِن القصص المرْويَّة؟ أَم من الآثار، والوثائق، والأحجار؟ أم من استحضار صحائف جدك، وإشكاليات الواقع، وأحوال أهلنا بالأعالي؟

مدّ يوسف الصحائف لمومــوح، اِعتذر وانصرف مهرولًا لخدمة أحد الزبائن، فتكفل الطفل المشاغب بالجواب على سؤال مومــوح، قال متهكمًا:

- التاريخ... ليس هو الدرس الذي نقلتَه من اللّوح الأَسود،

وكتبته على الدفتر، وحفِظته، واستظهرته بالاِحترام الشديد لعنعنة لا تقول كل شيء. التاريخ يا عزيزي، "هو الماضي كما هو موصوف في الوثائق المكتوبة، ودراسة أحداثه، بالإضافة إلى الذاكرة، واكتشاف، وجمع، وتنظيم، وعرض، وتفسير المعلومات حول هذه الأحداث، كطريقة لتوفير منظور لمشاكل الحاضر".

عنعنة لا تقول كل شيء... أعجب مومــوح بهذا التعبير ثقيل الحمولة. هو يرى أن التاريخ لا يقتصر على نقل أخبار الماضي

وأساطير الأولين، بل هو تناول لتجربة الإنسان وحياته وفقًا للمنهجية العقلانية، واعتمادًا على المعارف العلمية التي تستحق وحدها الثقة.

أدرك مومـوح من خلال ما سمعه منذ جلوسه إلى يوسف أن المنطقة صارت أرضًا ثكلى لأنها أُفرِغت من أبنائها وساكنتها، ولأن أحدًا لم يُفجع بواقع فك الارتباط بالمجال حين قررت الأجيال الجديدة أن تهاجر بحثًا عن ترقية لم تكن ل "لْبِيرُو" النية ولا القدرة على العمل من أجل توفيرها.

لم يستطع مومـوح تصفح الصحائف التي بين يديه لكثرة الغبار الذي طالها. أراد ترتيب ورقة تجاوزت الورقات الأخرى بإعادتها إلى مكانها وسط الصحائف، فأثارت انتباهه ملاحظة "مهم جدًّا" كُتبت على الهامش. سحب الورقة برفق حتى لا يتطاير الغبار، كانت دهشته كبيرة وهو يقرأ عنوانًا يحيل على دور الاستعمار في تهجير واستغلال القوى العاملة لمنطقة بويبلان.

- هكذا الأمر إذًا! من المؤكد أن الصحائف تحوي أمورًا اعتبرها جدّ يوسف سرية بحكم خطورتها. كذلك همس مومـوح لنفسه، ثم صار يتساءل عن دور نظام الحماية أكان إيجابيًا أم سلبيًا؟

الواضح أن مومـوح تفاجأ، من خلال ما قرأه يوسف من صحائف جدّه، بكون تدخلات "القبطان" الفرنسي كانت ذات طبيعة إيجابية تصب في مصلحة الساكنة. ربما تعلق الأمر بحالة خاصة. كما ظهر جليًّا أن دور "سْكِيزُو" كان مضرًّا بالمنطقة وأهلها.

يعود يوسف، يجد الورقة بيد مومـوح، يسأله:

- هل وجدت بالصحائف شيئًا يتعلق باهتماماتك؟

يجيب مومــوح أن ليس بعد. يجلس يوسف، يقول كمن تفاجأ:

- يبدو أنك اكتشفت شيئًا مهمًّا، فالورقة تحمل ملاحظة "مهم جدًّا". يظهر من العنوان أن جدّي وثّق لبشاعة استغلال المستعمر لفقر الشباب الذين كانوا يلاقون معاناة شديدة في بحثهم عن لقمة العيش.

لم يسمع موموح ما قاله يوسف، كان منهمكًا في قراءة الورقة التي تنطق بالعجب وتحكي... دُوِّنت الورقة بخط فقهاء المغرب بالصمغ الأسود الذي يُكتب به على اللوح بالكُتّاب، مداد تقادم حتى صار بُنِّيًا فاتحًا.

تحكي الورقة عن يومين خاصين عاشهما "الْبِيرُو"، يومين عرفا حدثًا قد يكون من بين الأحداث التي جعلت الصحائف تنضح بالخطورة وبضرورة الإبقاء عليها سرية حسب اعتقاد يوسف.

خلال الإثنين الأول، نادى المنادي (البَرَّاح) معلنًا عن تنظيم تجمع لانتقاء مؤهلين للهجرة إلى خارج الوطن.

وفي الإثنين الثاني، اِكتظت رحبة البهائم بالبغال، اِمتلأ مقهى السوق بشباب جاؤوا من الفجاج الجبلية القريبة والبعيدة. بعضهم وصلوا يوم أمس مساء، فقضوا الليلة تحت الأشجار التي تؤثث جنبات مركز "الْبِيرُو". الكل ينتظر افتتاح "موسم الهجرة إلى الشمال".

- اِنتظموا في الطابور. يصرخ "لْمْخَازْنِيًّا"، تحت أنظار القبطان الفرنسي الذي يقف إلى جانبه القائد "سْكِيزُو". صعُب تحقيق الانضباط لأن أغلب الواقفين بالطابور أمّيون، أحاديُّو اللغة لم يفهموا ما طُلب منهم.

نشطت حركة أعوان القائد "سكِيزُو" من خلال تأطير مفاوضات فردية جانبية مع بعض المرشحين... مفاوضات لا يعلم فحواها إلا الراسخون في علم "بّاكْ صَاحبِي".

جيء بطاولة مستطيلة وببضعة كراسي خشبية، وُضعت أمام باب مركز البِيرُو. جلس أعضاء لجنة الانتقاء، كانوا ثلاثة، كلهم من أتباع "سْكِيزُو". وقف القبطان يراقب لبضع دقائق. أعطى لرئيس اللجنة إشارة البدء، ثم انصرف. أما "القايْد سْكِيزُو" ففضل عدم الظهور لغاية في نفسه قضاها قبل أن تلتئم اللجنة.

ينادي رئيس اللجنة على الأول في الطابور باللغة العربية العامية:

- (اللَّوّلْ إزِيدْ، سْمْيْتْكْ وكْنَيّْتْكْ)؟ الأول يتقدّم، اِسمك الشخصي واسمك العائلي؟

لا يجيب المرشح الذي تسمّر في مكانه دون أن ينبس ببنت شفة. يتكلم أحد أعضاء اللجنة مخاطبًا المرشح:

- (آتْسْ غْرْدَاتْ، إنَاسْ أَسَّاغْ نّْشْ)، تقدّم، أَدلِ باسمك.

أخيرًا فهم، تقدّم، ثم نطق:

- اِسمي مُوحْنْدْ.

يسأل رئيس اللجنة، تتم الترجمة الفورية...

- ما هي كنيتك؟

ينظر موحند في اتجاه المترجم الذي تلكّأ قبل أن يجيب:

- (مامْشْ تِّينِينْ إِي لهْلْ نّْشْ)؟ كيف يُنادَى على عائلتك؟

أجاب موحنْد بأنه لا يعرف، لكنه أردف قائلًا:

- يُنادون على أبي بِ "أمْهْبُولْ".

يضحك الطابور مقهقهًا... يطلب رئيس اللجنة الهدوء، ثم يواصل طرح الأسئلة على موحنْدْ:

- كم سنك؟

يتدخل المترجم، فيجيب موحند بأنه لا يعرف تاريخ ميلاده، لكنه أردف أنه سمع جدّته تقول لجارتها: "إن حفيدي موحنْدْ كان موجودًا قبل معركة بُوهْدْلِي.

رغم حرصه على إبداء جدّية مصطنعة، إلا أن رئيس اللجنة تبسم ضاحكًا، ثم نظر إلى موحنْدْ قائلًا:

- وقعت المعركة في سنة 1923، قلتَ كنت موجودًا قبلها... إذًا، تاريخ ازديادك هو 1922.

- مكان ازديادك؟ (مانِي تْلُولْتْ؟)

- ازددت بالخيمة عند سفح الجبل. يجيب موحند وسط قهقهات الطابور.

وشوشة بين أعضاء اللجنة التي تداولت في الهواء الطلق.

- موحنْد أمْهْبُولْ، اُدخل إلى المركز للخضوع للمراقبة الطبية. قالها رئيس اللجنة بصوت مرتفع.

هكذا مرت عملية الانتقاء لاختيار خمسة عشر مؤهلًا للهجرة إلى فرنسا للعمل في مجال البناء والفلاحة والأشغال الشاقة. لم تفصح الجهة المنظمة عن شروط التأهيل.

اِستنفر ثغاء خرفان صادر من منزل "القايْدْ سْكِيزُو"، الكائن خلف مركز "البِيرُو، انتباه كل الحضور. تبادل أعضاء اللجنة النظرات وأكملوا الترتيبات للإعلان عن نتائج الانتقاء. تعالى صوت أحد الواقفين بالطابور يتساءل متهكمًا:

- أهو القائد سيستضيفنا للغذاء بشواء الخرفان؟ سأغذي الطابور كله إن لم يكن العدد خمسة عشر خروفًا. لقد حسم الثغاء أمر الانتقاء، فلا جدوى من البقاء.

انسحب الشاب المحتج من الطابور، وولّى مغادرًا حين قبض عليه أحد أعوان "سْكِيزُو"، وجره بعنف من قُبّ جلبابه قائلًا:

- اِرجع، والزم مكانك بالطابور، وزُمّ فمك، وإلا حطمت أسنانك... أتظن أن دخول الحمام مثل الخروج منه؟

عمّ الصفير، خرج أعوان آخرون يحملون العصي، طفقوا يضربون بعشوائية في الطابور الذي انتظم مرة أخرى، ثم عمّ صمت رهيب جنبات المركز وكأن شيئًا لم يكن.

مدّ مومو ح الورقة ليوسف ودعاه إلى قراءتها... أنهى يوسف القراءة، رفع رأسه وأخذ يتفرس في وجه مومو ح، ثم قال:

- لا أفهم الدوافع التي جعلت جدّي يضع ملاحظة "هام جدًّا" على هامش الورقة. هو صحيح، هناك بعض الأمور التي لا تبعث على الارتياح، لكنني أجد المحتوى عاديًا جدًّا.

يرد مومو ح:

- أما أنا، فأجد لملاحظة جدّك ما يبررها. ألم يقل لك ثغاء الخراف شيئًا؟ ثم إن تقييم عملية تهجير اليد العاملة تحتمل عدة قراءات. أعتقد أن جدّك أراد أن يشير إلى شيئين هامين. أولهما الظلم الناتج عن غياب تكافؤ الفرص وعن الخروقات التي طالت عملية الانتقاء، والثاني هو حرصه على الإشارة إلى المصدر الحقيقي للقهر الذي عانت منه القبيلة.

لاحظ مومـوح الاهتمام المتزايد لشخص يجلس على طاولة بأحد أركان المقهى، كان يسترق السمع والنظر منذ أن جاء يوسف بصحائف جدّه. لكنه استبعد فكرة احتمال وجود مخبرين بقرية بحجم "الْبِيرُو".

تعالت الضوضاء من داخل المقهى حيث يقضي الكثير من الشباب معظم وقتهم بين سمَر، وحكايات، ونكت، ولعب الورق.

نهض مومـوح، أدّى ثمن الشاي، عانق يوسف وشكره على تفاعله، وعلى الوثائق التي مدّه بها، ووعده بالمرور عليه عند عودته. ألقى التحية على رواد المقهى... وانصرف تحت أنظار المخبر المفترض.

8

سار مومو ح في اتجاه سيارته، أخرج المفتاح من جيب سترته، فتح الباب عن بعد، ركب، وأشعل المحرك للانطلاق. أخفى فتى تاحفورت صحائف جد يوسف في مكان أمين تحت كرسي القيادة بسيارته.

يستعد موموح للانطلاقة حين ناداه أحد الجالسين بالمقهى بصوت عال، وقد همّ متجهًا نحو السيارة مقوّس الظهر كأنه يتعكّز ظلَّه.

تقدم شيخ في اتجاه السيارة بجسد ناحل العود وكتفين نال منهما التعب وهو ينظر إلى قدميه ليتأكد من موطئهما. هادئًا يمشي الشيخ في خطى متثاقلة وقد لَوَت السِّنون كفه المرتعشة على عصاه، بالكاد تساعده حركاته على إظهار بعض معالم الحيوية، قال يسأل موموح وهو ما زال بعيدًا عن السيارة ببضعة أمتار:

- (آلْ مَانِي تْعَوَّلْتْ أوْهَاوْ أبابْ نْ تَّاكْسِي)؟ إلى أين أنت قاصد يا صاحب السيارة؟

بدا الشيخ في عقده الثامن، كان يلبس أسمالًا تدل على فقره، جلباب "الضَّامَا" من الصوف الأبيض والأسود تآكلت تلابيبُه، واِنسلَّت خيوطه وأصاب التلف لونيْه، وشبه سلهام ذا بياض غير صافٍ صار كأجلال الدابة، وينتعل صَنْدلًا بنعل متين من بقايا عجلة أُستُعملت حتى الرمق الأخير (طونوبيل)، فبدا جزء من سيقانه النحيفة كجذع شجرة "تُوزَّالْتْ" وقد اِلتفَّت حوله حَبَل الدّوالي.

رد مومومح على الرجل قائلًا:
- آلْ تاحفُورتْ أَعْمِّي.

مد الرجل الفارع الطول رأسه عبر النافذة الزجاجية المفتوحة المقابلة لمومومح فضاعت منه رزّتُه الباهتة البياض والتي تحف في فوضوية رأسه التي بدت صليعة براقة وكأن الشمس لم تمسسها قط.

حمل الشيخ رزّته ورفع رأسه، فبدت عيناه خلف عمقهما الغائر واثقتين صافيتين صفاء السماء، يكاد التحدي يخرج منهما، وظهر وجهه تعلوه العزة، رغم لفحة الحزن الظاهرة التي تخفي شيئًا من الانكسار والعوز...

ظهر وقد رسمت عليه الأيام تاريخ الصعود والنزول بأبجدية تجاعيد عميقة كالأخاديد تختزل جغرافيا المنطقة رغم لحيته المسترسلة التي اشتعلت شيبًا بلون الرماد، وقال:

- (لِّيغْ تِّينِيغْ آدْ رْوَّحْغْ "أوْرِيرْ"، ماذْ إِيِي أكِيدْشْ تَاوْيْتْ آلْ "أمُورغُو)؟ لقد عزمت على الذهاب إلى "أوْرِيرْ"، هل تحملني معك حتى "أمُورْغُو"؟

المسنّون من قبيلةمومموح أُحاديُّو اللغة، فكان من الأصوب محاورة الرجل بلغة أم مومموح.

قال مومموح:
- (آلْيْ آ شّْرِيفْ)، اِركب أيها الشريف (كل أهل أوْرِيزْ "أشراف").

رد الرجل وهو يبتسم:
- (تْنّْ خْ إِيِي تُّوغْ تَّالْيْغْ تْمُّوتْ هاذِي شْحَالْ) التي كنت أركَبُها ماتت منذ زمن طويل.
تفاجأ مومموح بروح النكتة والدعابة لدى هذا المُسن الذي يعاني من كل شيء، ثم إن النكتة لم تكن عادية. كما ظهر من أسلوب حديث "الشريف" أنه يملك ناصية اللغة الأمازيغية.

دلف الشيخ راجعًا إلى حيث كان يجلس، حمل أغراضه التي جاء متسوقًا من أجلها، حقيبة يدوية بها قَالَبَا سكر وعلبة شاي وقرطاس من القهوة، وضع مومموح أغراض الشيخ بالصندوق الخلفي للسيارة...

صعد "الشريف" إلى السيارة ومد يده في اتجاه مومموح قائلًا:
- (سُودْمْ فوسْ نْ شّْرِيفْ أَدَاكِيدْشْ إِبْدّْ سيدي امْحَنْدْ) قبّل يد الشريف ليساعدك سيدي امْحند...

تعجب مومموح من "وقاحة" الرجل.
بين مجاملة "الشريف" وبين إرضاء عقله اكتفى بمصافحته بيده وقال ضاحكًا:
- (سِيدْشْ امْحَنْدْ يْلَّا أُورْ يُوفِي وِي يَاكِيدْسْ إِبْدّْنْ)، سيّدُك امْحَنْدْ... هو في أمسّ الحاجة لمن يساعده.

دقق الرجل النظر في عيني مومو ح وقرر ألّا يُسِرها في نفسه، بل رد بهدوء المؤمن بما يقول:

- (شْنْڒِي آيْتْ لْوْقْتَا أُورْ دْجِي تْسْتْحامْ)، أنتم أهل هذا الزمان لا تستحيون.

- (قْنْ إِخْفْ نْشْ أ شّْرِيفْ سُوغْكَّادْنّْ أَبْرْشَانْ إِيدِيسْ نّْشْ)، اِربط نفسك أيها الشريف بحزام السلامة الذي بجانبك، قال مومو ح.

قال "الشريف" متهكمًا:

- (إِينِي ماوّْوسْ، إِيلْ تّْسْتْحَى شَايْ) قُل الشِّكال ولا حرج عليك.

يستعد مومو ح لمغادرة "الْبِيرُو"، عند الحاجز قبل الخروج أشار عليه أحد رجال الدرك بالوقوف على اليمين. أوقف مومو ح سيارته، أدلى بوثائق المركبة. بعد المراقبة الروتينية طالبه المراقب بالإدلاء ببطاقة تعريفه الشخصي، ذهب بها إلى رئيسه الذي يجلس بمركبة المصلحة.

بعد بضع دقائق رجع الدركي، راقب السيارة من الخارج وألقى عليها نظرة خفيفة من الداخل. مد الوثائق لمومو ح وهو يسأله:

- هل يمكنني ان أعرف إلى أين أنت قاصد يا سيدي؟

أجاب مومو ح بأنه يقصد تاحفورت.

ألقى المراقب التحية متمنيًا سلامة الطريق. شكره مومو ح على صوت المحرك وقد انطلقت السيارة.

قال الشيخ:

- (مايْنّْخْ إِرْدّْزُو أُوجَدَارْمِي)؟ عمَّا يبحث الدركي؟

أجاب مومو ح بأنه يمارس مسؤولياته.

أسَارَ مومو ح سيارته، بدأ النّزول نحو "أمُورْغُو" عبر منعرجات خطيرة لكنها جميلة...

ظن مومو ح أن "الشريف" الذي لزم الصمت قد أخافه ركوب السيارة، لكن الأخير عالجه بسؤال خاص وبدون مقدمات:

- (إينِيِي آ وْسَمَاعْلْ، وْشْحالْ أَيْتْمْغّنْتْ؟) قل لي أيها المنتمي إلى آيت سْمَاعل، كم هي أُجْرتُك؟

إنها قمة الوقاحة عند العموم، لكن مومو ح يعرف الأسطوانة. إنه سؤال عادي عند أهل مومو ح.

- (ما تْخْسْتْ آدْ أكِيذْشْ بْطُوغْ) هل تريد أن أتقاسم معك؟ يعلق مومو ح ضاحكًا.

رفع شيخ أوْرِيرْ عقيرته بأمازيغيته الفصحى:

-(بْطُوشْ خِّي أَياخْنْفُوفْ نْ بْطُّو، ما تْلِّيتْ تّْرَاعِيتْ خْ بْطُّو هْيَّا أَنّْبْطُو "لْمِيزِيرْيَّا" نْدِي تْدْجِيمْ إمُودَالَا.)

هو ردٌّ قوي يتهم الذين ركبوا حافلة حمّادي بعدم الاهتمام بالمنطقة، ويحملهم مسؤولية ما آلت إليه أمورها.

زاد الرجل قائلًا وهو ينظر عبر النافذة:

- ذهبتم جميعًا ونسيتم ارتباطكم بأرضكم التي أطعمتكم وسهرت على تربيتكم.

قال مومو ح وقد أحرجه خطاب الرجل:

- خرجنا نبحث عن السعادة ...

قاطعه الرجل متهكمًا:

- "يْنَّاشْ" السعادة، واكٌّ واكٌّ آ الحق! لم تقل لي بعد ما اسمك..
- اِسمي مومـوح.

قال "شريف" أوْرِيرْ كمن فاجأه شيء ما:

- موموح؟!!! أأنت اسمك موموح حقًّا؟ أُنظر يا موموح إلى وجهي وأنا الشيخ، ما زلت أرعى الغنم بأعالي "أوْرِيرْ"، كيف يبدو محمرًّا بلفحات السعادة الحقيقية، وانظر إلى وجهك وأنت في سن ابني كيف يعلوه الاصفرار. هل تعلم يا موموح أنني حين أكون مع غنمي تتحول بصيرتي عن ذاتي فأرى العالم كله، أكدّ بالنهار لأنام بالليل نومة الرضيع.

- لقد حاولنا الاعتماد على ذواتنا للحصول على بعض الشهرة وقليل من المال، لم نطالب قط بالثروة أو بكثير من المجد، قال موموح، قبل أن يُقاطعه "الشريف" مرة أخرى:

- شأنك شأن غيرك من موموحات القبيلة، فضلتم الرحيل، والكل يعلم أن البقاء هنا مع القطيع أفضل مائة مرة من أن تكونوا مع "القطيع" هناك حيث ينهش "المتمدنون" بعضهم البعض في الزحام. لو رأيت غنمي.. هي لا تحب الزحام، وترعى منفردة، لكنها تتضامن وتتزاحم كالبنيان المرصوص بحثًا عن الدفء ودرءًا لكل خطر. أهتم بمعازي وأنسى نفسي فأرتاح، أما رُكاب حافلة حمّادي "النافعة" فيضيعون جل أوقاتهم في مُداراة الخوف حذَرَ الحادثة.

أكمل الشيخ مرافعته وقال:

- لم تجبني يا موموح بعد، كم هو دخلك؟

أمام الصمت الذي غطى على صوت المحرك أردف الشيخ قائلًا:

- (غاراشْ أَوْلَاهْلْ أَداشْ تْنْطَوْ، نْتّْشْ غاسْ تّْسَالْغْ ما تْلّيتْ دِي رّْبْح). هو يستفسر فقط حول أحوال مومو‌ح المادية.

- (أُورْ إِخْصّْ لْخِيرْ أ شّْرِيفْ)، أجاب موموح.

- (إِي مَا تْيِيتْ شَا وْخّامْ مَا تْسُولْتْ دِي لْكْرَا)؟ هل لديك منزل أم أنك تكتري حيث تسكن؟ (ما تْمْلْشْتْ)؟ هل أنت متزوج؟ (ما تّْوَرَايْنْتْ مَا تّاعرَابْتْ)؟ هل هي أمازيغية أم عربية؟

أسئلة خاصة جدًّا تتابعت على لسان الشيخ الورايني. لكن رد موموح لم يتأخر:

- (ما تْبْغِيتْ أ شّْرِيفْ أَنّاوْطْ سالْ خْ شَا يَاطْ)... إذا كنت تريد أن نصل اسأل عن أشياء أخرى.

أراد موموح أن يغير الموضوع، فسأل الشيخَ عن أحوال غنمه:

- (مامش يِينْ إِمُوحالْ)؟ كيف هي أحوال القطيع؟

فكان له الرجل بالمرصاد:

-(ما تبغِيتْ أوْلَاهْلْ أَنّْدْجُومّْغْ تْرْكْ أُولّي)، إذا كنت تريد أن نتحدث اترك الغنم.

توسّد الصمتُ الفراغ لعدة دقائق ليعود موموح معلنًا عن مراضاة الشيخ من خلال الإجابة على أسئلته:

- أنا متزوج بعربية...

كانت ردة فعل الشيخ غير منتظرة، رغم أن موموح يعرف موقف أهل المنطقة بخصوص الموضوع. تنهد الشيخ وقال:

- إيهْ آ تِبْرْنِي وُّولْ، الآن فهمت أسباب ذبول الزهور بحقول آيت وراين قبل الأوان، وفهمتُ كيف انشغلنا بجمع شظايا بِلَّوْراتنا المكسورة، وكيف دفعنا ببناتنا إلى "طرق أبواب العرّافات"، وإلى "مشط أرصفة الطرقات"، وإلى "رسم وجوه (مومو حاتنا) بالطبشور على الحيطان".

قال موموح وهو يظن أنه سيكون مقنعًا:
- كل ما قلتَه يا عمّ هو من تبعات رفض جيلك تعليم الفتيات، نحن ما "تصرفنا كالصبيان"، ماذا لو لم تمنعونا من العدو معًا، ماذا لو جلسنا على الطاولة جنبًا إلى جنب، ماذا لو ركبنا معًا حافلة حمّادي؟ في أقصى الحالات "سيعلمنا الحب كيف نغير خارطة الأزمان"، سيفقهنا في "أشياء ما كانت أبدًا في الحسبان".

متأملًا قال "الشريف" وهو يتلبث في الأمر كمن يستيْقنه:
- (يْنَّاشْ الحُبّ، هايْ هايْ، ويهلَا مانِينٌ تْفْتَا تْمْزّْرْيَاطٌ نّْشْ)، أليس لديك شيء آخر تحكيه غير "أقاصيص الأطفال". يا بُني، الحبُّ الحقيقي تقدمه المرأة لزوجها محشُوًّا بين دفتي كسرة خبز شعير، ساقه الله إليه عبر جهده، وعرقه، فيمرره بلبن عصرته يديها من ضروع الأنعام.

رد موموح مقاطعًا بصوت يملأه الإحتجاج:
- الحب يا عمّ رباط مقدس وأحاسيس تضمن استمرارية العلاقة والعهد. ما هو الأفضل لشبابنا؟ هل هو التعبير العلني عن المحبة ككيمياء متبادلة بين اثنين ينتج عنها التعلق العفيف بالنصف الآخر كأرقى إحساس إنساني... أَم هو كبت المشاعر العاطفية الذي يحول الشباب الى قنبلة موقوتة!؟

من البديهي أن الإنسان كلما كبح مشاعره أكثر كلما زادت احتمالية انفجارها عبر الإتيان بسلوكات مشينة.

ثم إن زواج المصلحة لا يعفي جيلك من المسؤولية عما وقع. أنت أدرى أن "الأشراف" رفضوا مصاهرة غيرهم من أبناء القبيلة بدعوى ضمان صفاء عرقهم الرفيع المكانة والعالي المنزلة.

لم يكن "شريف" أوْرِيرْ سهل المراس، كان يرد الضربة بأحسن منها، وبنبرة غلبت عليها القهقهة يحاول إسقاط منطق مومَوح:

- (إِبْرْناشْ أ مومَوح... وِي ياشْ إِعَاوْدْنْ أفْعْسِيسْدٌّ)؟ تَبًّا لك يا مومَوح... من حكى لك هذا العجب العُجاب؟

تذكر مومَوح بعضًا من تبعات الفائض على مستوى ما كان وقتها يعتبر عنوسة، خاصة ما كان من شبه تحرّر علّم الشباب كيف "يمر العمر ولا تأتي بنت السلطان"، اِستقلال درّبهم على اكتساب تقنيات البحث عن الروح التوأم، والاستغناء عن مدرسة التكوين الجنسي القديمة التي كانت ترتكز على الشراكة الحيوانية.

يرن الهاتف، يجيب مومَوح :

- لمَ تزعجني برناتك؟ ماذا تريد مني؟

قهقهة مصطبغة بالتهكم، ثم تعليق للمهاتف يعاتب مومَوح:

- يعجبك ما تفتيه عليك الذاكرة النعمة، لتقنع شيخًا لا حول له ولا قوة، أما أن تتذكر حمارة "بْنْعْلِي" في سياق حوارك فذلك أمر غير مستحب. على الرغم من أن ذلك يندرج ضمن الذاكرة النقمة، فإنني سأذكّرك بالحمارة الوحيدة التي امتلكت التمثيلية الحصرية للمحموراء بالقرية.

"أتذْكُر صراحة موقف جدّك الفقيه الذي كان يعتبر نهيق حمار "العطار" صوتًا قبيحًا وجب استنكاره، لأنه يضر بالأذن ويساهم في تلويث البيئة؟ رغم ذلك فإن أطفال تَاحفورتْ كانوا معجبين بنهيق الحمار. لم يكن بالقرية حمار ذكر، فيضطرب حال حمارة "بْنْعلِي" كلما حل بالقرية حمار العطار... فتختلط فرحة الأطفال بارتعاب العطار وتوجسه شرًّ ما قد يقع لحمولة خِرج حماره". "أنسيت أم أنستك برودتك التي فرضتها عليك ثقافة العري هناك بالزحام؟ أنسيت كيف كان قدوم العطار الفرصة الوحيدة لحمارتنا حتى تستذيق طعم الأمومة... لكنه لم يكن فرصتها الوحيدة لممارسة "الحبّ".

"إن تناسيت... فأنا لم أنس. ماذا تريدني أن أفعل بك الآن حتى تتذكر؟ أَأَجعلها تحكي ما كان منّا ومنها مِن... لعب وبراءة؟ أم أجعلها تبكي ثم تحكي تفاصيل مريبة؟ لا، بل سأجعلها تشكيكَ أنت وشياطين القرية".

يرد مومو ح :

- من فضلك، لا تجعل ذاكرتك النقمة تفضحني... وعدًا مني سأحكي ما كان منّا ومنها في روايتي "حافلة حمّادي".

قال المشاغب:

- وعدتَ... و"وعد الحر دين في رقبته"، لكن طُلّ على قُرائك بخصوص الموضوع بانسيابية وبدون رتوشات.

يؤكد موموح وعده، لكنه يشير إلى أنه أمام خصوصية الموضوع، ورغم أهميته النفسية، قرر أن يمارس رقابة ذاتية، فاختار أن يقول كل شيء من خلال إمساكه عن قول أيّ شيء.

وفي جميع الأَحوال فموموح يعرف، والأطفال يعرفون، وكل أهل القرية يعلمون... بل يمكن القول، بدون مبالغة، إن الأمر كان طبيعيًا وعاديًا بالنسبة لأهل تاحفُورتْ، الذين تعلموا ممارسة الحبّ بنفس المدرسة، وتناقلوا ذلك فيما بينهم جيلًا بعد جيل...

ما كان موموح لينسى كيف بدأ تجربته الجنسية، وتزامُن ذلك مع اندحار النظام الأخلاقي المُتزمِّت، وسقوط صرامة قواعده. وما كان له ليمسح من ذاكرته التطورات التي طرأت على النسق الجنسي الذي لم يعد فقط سلوكًا أخلاقيًّا بل صار كذلك همًّا نفسيًا، وحاجة من الحاجيات في هرمية اللذات والرغبات.

اِنتبه موموح على صوت الشيخ يسأله:

- أين سرحت يا ابن تاحفورت؟

قال موموح: "أنا معك، ركزت فقط على السياقة بسبب المنعرجات". ورغم أنه متأكد من مصادمة سؤاله لمستوى النسق عند "الشريف"، فإن موموح سأل:

- هل تزوجتَ "تاشْرِيفْتْ" عن حب، هل رأيتها قبل ذلك؟

ضحك الشيخ مُقهقهًا، ثم قال:

- إيه أ موموح ... (تْلِّيتْ تّْصْنَّافْتْ) إنك تمازحني. بالكاد رأيتُ بعضًا من وجهها ليلة الدخلة، أما الحب في عرف قبيلتنا فهو من قبيل الممنوعات، والحديث عنه يُعدّ من (لْحْيَاتْ) والعجز عن التحكم في الذات... الأهم هو أن "تاشْريفتْ" (فُّوتّيدْ)، أصبحتْ.

قال موموح وقد استنفرته حمولة المصطلح:

- أوَكان من الممكن ألّا تُصبِح؟

رد الشيخ مؤكِّدًا:

- ألَّا تُصبِح معناه أنها ماتت، لأنها لم تحافظ على "الأمانة".

فضل مومو‌ح إنهاء الحوار... سكت ولم يرد، فقال الشيخ:

- تمنيتُ فقط لو كانت لك القدرة على تداول الأمر رغم أنك لم تتقبّله.

قال موموح وكأنه غير آبه:

- بل لأني تجنَّبتُ الخوض أكثر في موضوع يخصك حذر إغضابك ... ثم إن العبور فوق "القنطرة" التي أمامنا يستدعي تركيزًا خاصًّا بسبب هشاشتها، وضيق ممرها الذي يظهر أنه بالكاد يتسع لمرور سيارة واحدة.

رد حكيم "أوْرِيرْ" قائلًا:

- تبني (القبائل) الجسور فيعبرها الأمل ولو على أنهار من اليأس... إلا نحن، فجسرنا الوحيد يائس يمر فوقه البؤس رغم أنه فوق واد وتِين.

مرت المركبة فوق "قنطرة" وادي أمُورْغُو بسلام... قال "الشريف" وقد أنهى تَمتماته:

- (هانَّايْنٌّ سيدي امْحَنْدْ إِبْدٌّ أَكِيذْنْغْ، أوِي سُّوتْرْخْتْ نْزِي دٌّ يا نْهْوَى زِّي لْبِيرُو، يُوسْدٌّ آكِيذْنْغْ يْمْعنْ دِي تّأكْسِي، مْلُولَا نْتَّا إِلِي نْهْنُّونّْيْ دِي يْمُودَلَا)، لقد كان معنا الوليّ سيدي امْحَنْدْ، أنا دعوْتُه منذ خروجنا من "الْبِيرُو"، لقد رافقنا ممسكًا بالسيارة، لولاه لتدحرجنا بهذه الوهاد.

لم يعلّق موموح على هلوَسات الشيخ... فضل مرة أخرى ألا يُغضِبه.

أردف الشيخ يُذكّر مومو بأنه لم يجبه عن موضوع سكناه، هل يملكها أم يكتريها؟ إنه سؤال هام في معيار تقييم الترقية الاجتماعية عبر الهجرة.

أجاب موموح بأنه يهوى التنقل والانتشار في ملك الله، ولا يرى ضرورة للارتباط بمكان معين من خلال الاستثمار في الإسمنت المسلح، ثم إن ذلك يحد من الحرية في الهجرة والتنقل في أرجاء أرض الله الواسعة.

قال الشيخ الذي سكنه هوس التملك منذ أن مات أحد اجداده دفاعًا عن قطعة حقل بالكاد يصلح للحرث بحمار بسبب صعوبة تضريسه ذي التحزيزات المعرقلة:

- قبر الحياة من الضروريات، ثم أين ستترك أطفالك إن أصابك مكروه؟

فرْمل موموح ليفسح الطريق لقطيع من الماعز تقاطعت وجهته مع اتجاه السيارة، وردّ قائلًا:

- منذ بلغتُ من العمر أربع سنوات، وأنا طفل سائب أمشي خلف بقرتنا، لم يكن أحد يسأل عني أو يهتم لحالي، فكيف لأبي أن يفكر في مستقبلي؟ أستثمر ثمن اقتناء المنزل في تكوين جيّد لأطفالي... وأتوكّل. أما قولة "ثمن الشراء بثمن الكراء"، فهي شعار للاستهلاك التجاري فقط.

قطّب الشيخ وجهه معبّرًا عن عدم موافقته، لكنه لم يردّ.

تنفلت السيارة على الجانب الأيمن للنهر الوتين، فيخطف موموح نظرات مسرعة في اتجاه أولى أشجار الزيتون الواقفة بانغراس ثابت في الأرض، كأنها تُحيّي العائد وتشكره على أوبته.

على اليسار عند أسفل "تْساوْنْتْ" العقبة (المسار المختصر إلى "الْبِيرُو" للدواب والراجلين)، خفف مومو ح من سرعة المركبة، دقق النظر في مياه النهر ثم قال وهو يفكر بالجهر:

- آهٍ يا وادي "أمُورغُو"، عند ضفافك أكمَلتُ ما بدأتُه بمدرسة "بُوفْرُوخْ"، حيث تعلمت كيف أصير رجلًا عبر تمارين مكثفة في مادة الخوف، وعند تدفقات صبيبك الهادر وقفتُ مع رفاقي حيارَى مذعورين من هذا الحاجز الطبيعي الذي يحول بيننا وبين بقية العالم... رحمك الله يا "سي بنعيّاد".

قال الشيخ مستفسرًا:

- من يكون المرحوم سي بنعياد؟

قال مومو ح وقد اغرورقت عيناه:

- هو الملاك الذي كان يحملنا فوق ظهره ليعبر بنا النهر بمناسبة عطلنا المدرسية في المَرْبَع والمَشْتَى، من وإلى "الْبِيرُو" ومدينة "تيزي".

قال الشيخ:

- وهل كان من الضروري أن يعبر أطفال غِضاض مثلكم إلى الضفة الأخرى؟

رد مو مو ح قبل أن يرتد طرف الشيخ:

- الضفة الأخرى... هي الضفة الأهم.

بعد ثوانٍ من التفكير رد الشيخ:

- أنت في مأزق حقيقي يا مو مو ح... أنت تائه بين ضفتين. أنت وأمثالك تعيشون ازدواجية لها تعارضات جمة في حياتكم.

تتوقون إلى الهروب من هذه الوهاد طمعًا في ترقية لا تقدرون على تبعاتها، وتموتون في نفس الوقت من عشق مطارح طفولتكم، لكنكم تتسترون على ذلك. تسافرون، عفوًا... تهاجرون، تغيبون طويلًا، ثم تعودون، فتقدمون تبريرات مزدوجة واهية.

يرد مومّوح مؤكدًا أن كلام الشيخ صحيح إلى حد ما، لكنه يشير إلى أن أسباب ذلك ترجع إلى غياب توزيع عادل للثروة بين المدينة والقرية. هو صحيح، تحقق بعض التقدم على مُستوى تنمية العالم القروي، خاصة في مجال الكهربة، وفكّ العزلة، وتحسين القيمة المضافة الفلاحية في إطار مخطط المغرب الأخضر. لكن ذلك لا يشجع على البقاء هنا والاستقرار بالمناطق الجبلية، لأن الاهتمام ضعيف وبرامجه تبقى دون مستوى الحاجيات الحقيقية للسكان.

أنصت الشيخ باهتمام كبير إلى مومّوح، ثم قاطعه قائلًا:

- أعلم جيدًا ما تقوله، بل أعرف أن مشاكلنا أعمق من ذلك، لكنها بلادنا، على أبنائها أن يستقروا بها ليهتموا بشؤونها.

يضحك الشيخ مسترسلًا:

- (سّْضْحَاكْنْتْ تِيخِينْ) إن من الهم ما يضحك... يتداول أهل "الْبِيرُو" بالسوق أن "أمغار" جماعتهم حضر مجلسًا ترأسه حاكم مدينة "تيزي" وأرباضها. سأل الحاكم "أمغار" عن أحوال منطقة "الْبِيرُو" وأهلها، فتبسم الأخير معبرًا عن سعادته قائلًا، وهو يخاطب الحاكم، بأن أهل "البِيرُو" يقرؤونه السلام، هم بخير وكل شيء لديهم على ما يرام، ولا ينقصهم سوى النظر إلى وجهه العزيز، واللقاء به في أقرب الأوقات للاستماع إلى توجيهاته... والسلام.

اِستمر الشيخ مقهقهًا يحكي عن ردود الفعل التي رافقت الحكاية، وعن جرأة "أمغار" وهو يرد على عتاب بعضهم بخصوص إمساكه عن طرح مشاكل "البِيرُو" حين سأله الحاكم:

- كيف تطلبون مني أن أطرح مشاكلنا أمام مجلس الحاكم؟ أتريدون أن تضحك الدنيا من قبيلتنا؟

ملء الوجه يضحك الشيخ حتى ارتطمت رأسه بزجاج نافذة السيارة.

قال موموح متأسفًا:

- تفعلها بنا الأمية. كان الرجل أمّيا، لكنه كان رئيسًا. ثم إن معدل الأمية مرتفع جدًّا بالمنطقة، خاصة في صفوف البنات. كما أن المناطق الجبلية تعاني من الفقر والهشاشة، حيث ما تزال البنيات التحتية ضعيفة، أما عن غياب الخدمات الأساسية فحدث ولا حرج.

قال الشيخ وقد نكز كتف موموح بأصابع يده لينتبه إليه:

- يظهر من حديثك أنك مطلع على مشاكل المنطقة، هل تحمل حلًّا تساهم به في تغيير الوضع؟

رد موموح وهو ينبه الشيخ:

- أنسيت أنني أقود السيارة وأنت تنكزني بيدك؟ الوضع بالعالم القروي في حاجة إلى نموذج اقتصادي أو قانون إطار لتدبير تنميته.

عند الخروج من قرية "أمُورغُو" أَمام مطارِح "سِي المَعطِي"، وبنتيجة التعادل إصابة في كل شبكة، ودَّع موموح شيخ "أوْرِيرْ" الذي انخرط في دعاء لفائدة موموح وسيارته.

من بين الأدعية التي استرعت انتباه موموح قولُ الشيخ:

- لعل لقاءنا هذا يكون عليك فأل خير فتتولى منصبًا أعلى... كن متيقنًا من ذلك، فالسلف الصالح أكد أن من يلتقي براعي الغنم تصير مكانته كبيرة.

نزل فتى تاحفورت من السيارة، أخرج أغراض الشيخ من الصندوق الخلفي. مد "الشريف" يده مودّعًا، فأخذها مومو ح ليُقبلها. حاول الشيخ سحبها لكن موموح كان قد قبلها قائلًا:

- أنت في سن والدي، سعدت بلقائك، وأتمنى لك كل السعادة، ولغنمك الكلأ الوفير.

قال الشيخ وقد أخذ موموح بالأحضان وكأنه يعرفه منذ مدة طويلة:

- يا بُني، رغم كل شيء... فإن إحساسي لا يخطئ، أنت من العينة التي تدفأُ على الحصير أكثر مما تدفأ على الفراش الوثير... أنا متيقن من أن الأهم بالنسبة إليك هو ما ورثته عن أجدادك بتاحفورت من وصايا وأفكار تستظل بها، أما أصباغ المدينة ومادياتها فهي إلى زوال.

وقف موموح يتفرس في ظل الشيخ وهو يتابع انصرافه... وأخذ يحدث نفسه:

- كيف لهذا الشيخ الذي يحمل سنِيه الثمانين أن يرعى الغنم بأعالي الجبال ولا ينال الذئب من غنمه؟ كيف له أن يخاطر وقد وهن منه العظم حين يسافر عبر طلب التوصيل إلى مناطق لا تصلها وسائل النقل إلا قليلا؟ ثم ماذا يقصد بقوله عن دفء الحصير والفراش الوثير؟

هل قال "الشريف" ما قاله لأن موموح قبِل أخيرًا بتقبيل يده؟ لكن الاحتمال لا يستقيم... فالشيخ حاول سحب يده. أم لأنه اقتنع

بمنطق موموح؟ ربما يكون بذلك قد احترم مبادرة موموح بالقدوم والعودة إلى مسقط الرأس...

أما بخصوص الحصير فموموح يعلم جيّدًا أنه لا ينتج دفـءًا.

ثم... كيف تكون وصايا الأجداد مهمة وهم الذين عشقوا مشي القهقرة؟ أليست الأشياء المهمة هي تلك التي تفرض نفسها في النهاية؟ لماذا يقارن الشيخ بين الماديات والأفكار المرجعية؟ ولماذا ذهب إلى أشكلة الهجرة من خلال تمجيد العودة؟

تساؤلات عكرت صفو موموح، لكنه أجل البحث فيها إلى حين التأكد من كون حافلة حمّادي، وطبيعة الاختيارات المرتبطة بها تطرح فعلًا مشاكل للشيخ وللنموذج القديم الذي ما زال سائدًا.

9

أنزل موموح السيارة بصعوبة فائقة عبر أخدود غائر من صنع السيول، نزول زاد من صعوبته منعرج في عمق الشق يعلن عن انحراف طريق تاحفُورت غير المعبدة يمينًا على مسافة خمسة كيلو مترات... مسافة يضيق عبرها الوادي تارة ليتسع مرة أُخرى ويزيّنها ملتقى النهرين عند "إسَاقّْنْ" التي تبدو دورها كلاجئ مُتشبث بالسفح حذر الغرق.

أوقف موموح سيارته قبالة الدُّور التي يظهر من أبوابها أنها أصبحت مهجورة... توقفٌ فرضته استعادة شريط بالأسود والأبيض من صناعة حقائق عديدة، منها ما كان يثير خوف موموح وأترابه، ومنها ما كان يسعدهم ويذكي اهتمامهم.

لم يكن المرور من هناك ممكنًا دون أن يتذكر موموح شراسة كلاب قرية "إسَاقّْنْ" بألوانها المخيفة، وتعبيرات وجوهها المتوحشة.

كانت أنيابها ذات بياض مهدِّد، كما أنها كانت تحمل عيونًا بارزة يتطاير منها الشرر. يتذكر مومو ح جيدًا كيف كان ينفذ بجلده بعد صراع لا يخلو من تحايل مبني على توجيهات جدّه الذي أوصاه بأن يلزم الهدوء، وألا يخاف، أو يركض هاربًا من الكلب المهاجم.

- كن رجلًا... لا تظهر للكلب أنك خائف، ولا تنظر إلى عينيه، وامش ولا تلتفت "فالقافلة تسير والكلاب تنبح"، لا تعتمد على مالك الكلب، هو لن يتدخل لأنه يعتبر كلبه حارسًا لممتلكاته، وضامنًا لأمنه وأمن عائلته... كذلك كان الجدّ يوجّه حفيده.

الأدهى أن هجمات الكلاب تعتبر عند مالكيها بتاحفورت نوعًا من الدفاع عن النفس والممتلكات، بل مِن سكان الأعالي فئة تفتخر بشراسة كلابها.

هل كانت وصايا الجدّ كافية لتفادي هجمات لا تحمد عقباها؟ موموح يؤكد أن ذلك لم يكن كافيًا، وخوفه الشديد من الكلاب ما يزال قائمًا ليشهد على ذلك.

"إِسَافْنْ"... كيف ينساها موموح؟ وهو الوادي الذي كان، رغم أنفه، طرفًا في نزاعات "الحدود" بين عائلات يدافع أفرادها عن أشبار من التراب حدّ الموت... حدود بين القطع الأرضية الصالحة للزراعة التي انتُزعت من الوادي المتمرد، الذي يعود لمهاجمتها كلما حرضه الوابل المتردد.

كما أن التوقف هناك ما كان له معنى دون استحضار خضرة جنبات ملتقى النهرين، والحقل ذي الفاكهة التي لم يُزرع مثلها بالوادي الوتين بين تاحفُورْتْ وأمُورْغُو. تذكّر موموح الجنان الخضر، فهاله ألا يرى منها غير بضعة جذوع ما زالت تقاوم غطرسة النهرين.

تمنى موموح فقط لو كانت ظروف عودته تسمح بالصعود إلى "بُوحمدون" حتى يتملى من علٍ، بالضفة الأخرى، أعماقَ أُخدود "إِسَافِّنْ" حيث كان يمارس عشقه الطفولي لصيد السمك رفقة صديقاته من جنّيات "غْدِيرْ سْبْعَا"... شلالات متتابعة وغدران جارية تسبي الناظر بزرقتها الفيروزية.

عند قرية "تُورتُوتّْ" التي تحمل حقًّا اسمها، يقف موموح عند مسجدها، فتحضره ذكريات ساعات التقوية في مواد اللغة العربية. يتعجب للدور الذي اضطلع به المسجد في ذلك الزمان.

رافعًا رأسه مد موموح عينيه يسارًا فعجِب لجرأة أهله وهم يتسلقون بداية جبل "الفدّان" ليبنوا دُورهم فوق صخوره.

تنفرج أَسارير الجغرافيا عند "تُورَارينْ" لتضيق مرة أُخرى عند "أغْبَالْ لْفْجَار". قبله بعشرات الأمتار تفاجأ موموح بوجود سور يؤطر فضاء متوسط المساحة، يظهر من شكله أنه مُصلى جديد.

تجهيز ديني بُنِيّ فوق شبه تلة منبسطة تعلو يمين الطريق، تقع بمنتصف المسافة بين قريتي "تُورتُوتّْ" وتاحفورت... المكان خلاء يطل من جانبه الخلفي على واد قفر موحش غير ذي ماء.

قال الصدى المرافق لأذني موموح:

- هو "البيْن بيْن" لتقصير المشيتين بين الوجهتين... هي حلحلة الجيل الجديد لنزاعات وهمية تغذيها الأنانية بين قريتين تنتميان لمجال واحد. ما الذي فاجأك؟ ألست تذكر يا موموح نزاعات أهلك حول مسار "المَنْجُورَا" وموقع بناء المدرسة الأولى؟

رد موموح وقد أحزنه الأمر:

- التوجه إلى السماء صالح في كل مكان، كما أن الخالق غنيّ عن مخلوقاته التي تشكو الفقر والحاجة... ألم يكن من الأجدر الاتفاق على إنجاز بنية تفيد الجميع وتضمن سدادًا من عوَز؟

اِنقطعت وشوشة صاحبه، أحس مومو ح برهبة المكان وهو يصل العين المخيفة، تمامًا كما كان مومو ح الطفل يحس في ذلك الزمان... إحساس بالخوف تزيد من حدته كثافة أشجار الزيتون وخشونة غابة "أَغْبَالْ الكُوشْنِي" المجاورة.

رغم أن مومو ح الخِوِّيف كان يعانق الهرولة كلما مر من هناك، إلا أنه قلل من سرعة سيارته إلى الأدنى هذه المرة، وأخذ يدقق النظر في الجهة التي كانت تُرعبه. هي فراغات بالكاد تظهر للرائي عند سفح "أَغْبَال الكُوشْنِي"... لم يكن الفتى يجرؤ على أن يُوَلِّي وجهه شطرها.

تفاجأ مومو ح بإحدى الفراغات بسرب من الخنانيص تقودهم خنزيرة تحاول اللجوء بصغارها إلى الغابة هربًا من صوت المحرّك. قال مومو ح في نفسه:

- هو صحيح... "الطبيعة تكره الفراغ"، رحل أهل تاحفورت فحلت مكانهم كائنات أخرى لم يكن في وسع جيلي أن يراها عن قرب إلا بالمرتفعات البعيدة.

يحكي مومو ح عن "أَغْبَالْ الكُوشْنِي" متعجبًا من جرأته وقد فرمل سيارته لينظر مدققًا في اتجاه هذه النقطة السوداء:

- هو مكان تخشع به الأنفسُ وتَقشعرُّ منه الأبدان، ليس بإمكاني أن أتذكر مرة واحدة مررت من هناك غير هارب من الرعب

الذي يفرضه المكان، بل أكاد أجزم أنْ لا وجود لإنسي وطئت قدماه الممر ولم يهتز هدوؤه.

يرتفع "أغبال الكُوشْنِي" عن السفح بحوالي مائة وخمسين متراً أو يزيد، عين تحتضنها غابة كثيفة تزيدها طبيعة أشجارها الخشنة ظلامًا يُخيّم على المكان في كل الأوقات.

يحاول مومو ح مغادرة المكان حين رن هاتفه، يوقف سيارته مرة أخرى ليجيب...

يرد الطفل الذي يتذكر كل شيء:

- أنسيت أم أنستك رفاهيتك التي تركبها؟ كيف تنسى أطفال قرية "أفوزار"، رفاقك الأربعة بمدرسة تاحفورت، الذين كان عليهم أن يسلكوا طريق "أغبال الكُوشْنِي" نزولًا في الصباح الباكر لمدة ساعتين أو تزيد، وصعودًا بعد انتهاء المدرسة مساء لنفس المدة؟

قال موموح:

- لا، لم أنس... أتذكر جيدًا أطفالًا يحملون في عيونهم عنوان البراءة وعلى وجناتهم الدائمة الاحمرار يظهر صكّ الانتماء إلى قرى الأعالي، تكاد ترى الطموح يرفرف من حولهم وتحسِبهم رجالًا رغم طفولتهم الظاهرة، فتية آمن ذووهم بجدوى المدرسة في الترقية الاجتماعية، وزادتهم شجاعتهم إصرارًا على التعلم وتحدي الخوف والمعاناة.

رد الطفل مقاطعًا:

- يظهر أنك لم تتذكر كل شيء، لأنك لو تذكرتَ كل التفاصيل لما أوقفت سيارتك ولوُلِّيت فرارًا من المكان ولمُلئ قلبك رعبًا. كيف تنسى ما حكاه لنا صديقنا الصغير "حمُّو" عن مرور الفتية على

"الكوشْني" صعودًا، شرب أحدهم من عينها، حاول مسرعًا اللحاق بصحْبه قائلًا إن للماء لرائحة قوية ليست للأبقار ولا هي للبغال. ردّ قائل منهم وهو يسرع الخطى، ربما كانت الرائحة لخنزير لطخ جنبات العين بعرقه النتن.

يتفاعل مومو ح مع الحكاية قائلًا:

- نعم، أتذكر أن الأطفال، نزولًا في صباح اليوم الموالي لقصة الرائحة، وجدوا نصف جثة خنزير على الطريق فوق "المَانْسيفْ" فتجمد الدم في عروق الصغار الذين جلسوا يتنازعون أمر اتجاه مواصلة الطريق، فقرروا الرجوع صعودًا إلى قريتهم "أفُوزار" والامتناع عن الالتحاق بالمدرسة.

وُضِع الفتية عند بعض العائلات بقريتي "ثُورثُوثْ" و"إمُوزُّورنْ" القريبتين من مدرسة تاحفورت حتى يتمكنوا من متابعة دراستهم في ظروف أفضل... واكتشف أهل مومو ح بعد أيام من حادثة الخنزير ما فعله النّمر بأبقارهم حين هاجمها بمكان غير بعيد عن القرية.

اِستشعروا خطورة ما وقع، فنظم الرماة، انطلاقًا من غابة "الكوشني"، حملة صيد جماعية أفضت إلى قتل النمر، وقضاء الرماة مدة سجنية على إثر شكاية مصالح المياه والغابات.

لا تعليق... سوى الإشارة إلى حمولة المثل الشعبي:" ضربني وبْكَى، وسبقني وشْكَى".

اِنتبه مومو ح من سرحانه لتنشرح أمامه التضارِيس مرة أخرى فينشرح قلبه، لتكشف عن ضربة أُخدود تزينها غابة من أَشجار الزيتون معلنة عن الوصول إلى المحطة الأخيرة من الوادي.

إنها "تاحفُورتْ نايْتْ اسْمَاعْلْ"... اِستثناء جغرافي، وبقعة شاء الخالق فسواها بالأخضر وعدلها في صورة رائعة، فجاءت مختلفة عما حولها وقد أحاطها بأطواد يحرسونها.

يخالها الناظر منصة استقبلت نجمًا انتثر من السماء ليصنع لنفسه مكانًا بهيًا فوق الأرض، يلائم مقاييس منازل النجوم.

شُدِه مومو ح وهو الذي سقطت رأسه فوق أحجار المكان، فما استطاع أن يمنع نفسه من مساءلة عينيه كيف لهذا المكان أن يكون؟ هل تمت تسوية هذا المجال على هذا النحو خصيصًا من أجل أهل موموح؟

كيف لبصر موموح أن يُغشى من جمال تاحفورت وهو ابنها الذي تعوّد التحدث إلى أحجارها الرمادية التي تنتج الخوف؟ كيف له أن يندهش لما يرى وهو الذي أَلِف الاستمتاع بسحر تغاريد طيور قريته، وبسنفونية أصوات حيواناتها، وبالنظر إلى تناسق جذوع وفروع أشجارها؟

نظر موموح جهة اليمين، ففرض عليه السكون المخيم على المكان استحضار أصوات وهمسات المسجيين بالمقابر القديمة "إيمْطْلانْ إيبُولَايْ". يكاد موموح يسمع وشوشة وهمسات أرواحهم وهي تحكي قصص الرواد، أو يرى "تِزِيمْرْتْ إمْطْلَان" رغم أن أمّه أكدت له أنها لا تخرج إلا ليلًا لترعى بين القبور.

ما تزال أعشاش "بْرُورْ" تفرض الظلام على المكان، الطائر مرسول الشؤم الذي يشتغل حصريًا على حُلكة الليل والذي تخيف به الأمهات أطفالهن المتمنعين عن الخضوع للنوم.

أحزنه ألا يرى الشجر، والحجر، والبشر، الأحياء والأموات، بقدومه فرحين. تحت تأثير الرجع تتفاعل أذني مومـوح لتستمع إلى صدى ما يخالج نفسه من شعور:

- اِقلع نعليك يا موموح، إنك بالوادي المُحبَّس وقفًا على ذكرى أجدادك.

أوقف موموح سيارته، غادرها ووقف احترامًا للمكان. سلّم، ودعا، وترحم على أهل الرموس رغم أنه غير متأكد من أنهم أحسوا بوجوده، وأنصتوا إلى تمتماته.

قبل العودة إلى سيارته، نظر موموح جهة اليسار حيث يبدو بياض المدرسة غريبًا يتحدى المكان... لم تعد الأشياء على اليسار نشيطة توحي بالحركية وبالإقبال على الحياة كما كانت (المدرسة أغلقت نهائيًا أبوابها، البيْدر "أَنْرَار" أنبت الأحجار...).

وقوفًا عند سفوح "إِسُومَّارْ" وهو يدقق النظر فيما آلت إليه يسارية أهله الذين يرقد أغلبهم تحت الثرى على يمين الوادي، سمع موموح وكأن صوتًا هاتفًا يحدثه:

- تفرج أيها الأولق العاق، يا من تقف على باب أمّك فلا ترى إلا الفراغ، أُنظر إلى تبعات ركوبك حافلة حمّادي، ما عاد هناك فرق بين اليمين واليسار، كل شيء صار قديمًا. هاجرت للبحث عن مرجعية أخرى، وذهبت تتعقب العبث، والفراغ، والنفاق الأخلاقي، والخراب الثقافي. فما الذي جاء بك إلى هذه الوهاد وأنت الذي اخترت ذات يوم أن تتركها لتركب حافلة من صُنع الغرب؟

صار موموح وكأنه يحدث نفسه:

- أي مرجعية؟ ولما تريدني أن أرجع إلى الوراء؟ ثم إنك تعلم أيها الصدى أن رحيلي كان مقدّرًا محتومًا. أكنت تريدني أن أتعلم خلف الخراف، أو بالصحن الذي أضاع تضخُّمُ منتوجاته وقت جدّي، وجعله وأترابه بالكاد يفرقون بين الألف وعصا راعي الغنم؟ خرجتُ بعد أن تيقنت من عجز جدّي الذي كان يهتم فقط بالعالم الآخر، ولم يكن يفكر قط بنفسه.

كان جدّي فقيهًا مبدعًا، يعرف كيف يحملني إلى عالم الخيال، ويدربني على الاعتماد على السماء. لكنه نسي، رغم عشقه للأرض، أن يعلمني معنى الأحجار التي تؤثث فضاء تاحفورت.

كالطنين يعود الصوت ليُراود أُذني مومو‌ح:

- اِحترم أهلك فهُم من يسّروا لك سبل ما أنت فيه من نِعم... ذهبت تطلب المجد في لهَف، ونسيت الفضيلة القروية. يظهر من أفكارك أن مومو‌ح الإنسان قد اختفى منذ الركوب المعلوم.

يرد مومو‌ح محاولًا صد التهمة:

- عن أي نِعمٍ تتحدث يا هذا؟ أنا لا أُنكر مجهودات أهل الحل والعقد ببلدتي في عهدها الذهبي. لكن الكل صار يرغب في السهل الممنوع فضاقت الحافلة بركابها، وما عدتُ متأكدًا من أن حمّادي يتقن فن السياقة الممكنة. ثم إن الحقيقة تعلو ولا يُعلى عليها... رحلت لأُشبع فضولي العقلي في وقت كانت القرية غارقة في سُبات عميق، تستلذ خلاله أحلام الخرافة ومنغمسة في نعيم فضيلة قروية أُوِّلَت على المقاس.

يغرد الصدى على إيقاعات حادة تكاد تخرم طبلة أُذن مومو‌ح:

- أولم تكتب من قبل عن ثورتك الثقافية ضد فلكلور التخيّلات الخرافية؟ وادّعيت أنها اقتلعتْ إرثًا ثقيلًا تناقلته الأجيال؟ كل ما رأيتُه وأراه هو أنك ما زلت تعاني من خوفك المزمن... حسبناك ستبقى هنا حتى الموت، لكن الخِوّيِف الذي يسكنك دفع بك إلى الهرب. خنت العهد وفسخت العقد الذي كان يربطك بالقرية...

قال مومو ح:

- أنا ما خنت العهد، وما فسخت العقد، وما اخترت الذهاب... انسحبت بسبب أهل القرية الذين رفضوا تمجيد العقل والعمل... ركبت حافلة حمّادي حين انسدّ الأفق وانحبستْ أفكار المدرسة عني، وانتصر سائد جدّي رغم عجزه عن فهم قيم الدين الحقيقي، وارتمائه في براثن "للّا مُولْ تَاقَّا"، وأساطير التدين الخرافي.

أخضع الصوت طبلة أذن موموح لطرقات الحقيقة، وزاد مفصّلًا صكّ اتهاماته:

- كالشمس الهاربة غبتَ وقد أخافتك رمادية أحجار تاحفورت، وركبت حافلة من صُنع من قتّلوا أهلك، واستعبدوهم، وحاولوا إطفاء سؤددهم. ذهبت ونسيت... أنستك أسواق من أركبوك حافلتهم، وجعلوا منك عبدًا مستهلكًا ينقاد لأوامر العرض والطلب. حملتك الحافلة إلى حيث علّمك صانعوها ثقافة أخرى، ما كنت لتفهم أن كل ما تعلمته لم يكن ليلائم ميولاتك الطبيعية. أفلا تنظر إلى مركبتك، هذا الركام الحديدي الذي ابتاعه لك "حمّادي" مقابل سنين من الجهد والعرق...

أُنظر كيف قاموا بصباغة غريبة لشخصيتك، وقبِلت وأنت تعلم أن قانون جدّك هو الوحيد الذي كان أهلك يقبلون بالخضوع له.

أُنظر كيف جعلوك تعتقد أن كل شيء يُشترى بالمال، بوسعك أن تحصل على كل الملذات، ولكنك لن تدرك السعادة.

قال مومّوح مخاطبًا نفسه:

- هو صحيح... أهلي تحكّم فيهم ما كان موجودًا قبلهم، لكنهم لم يُوجدوا شيئًا جديدًا أقبل بالخضوع له. أُنظر إلى "سيدي أحمد"، و"لالَّا مولات تاقَّا"، وإلى "سيدي بوقنادل" و"أَزْرُو نْ تْسْلِيتّْ"، كلها عناصر خضعت لها القرية. بل زادوا واختلقوا لأنفسهم خرافات تطمئنهم وتهدئ من الروع الذي فرضته عليهم تضاريس مجالهم الوعرة.

ثم إنني بحثت بجنبات مسجد تاحفورت عن سبيل تقربني إلى الله، فكان حاجز اللغة سدًّا في مسعاي، فلم أجد من يدُلُّني عنها، اِخترتُ رُكوب حافلة حَمَّادِي لأنّني كنتُ حائرًا... نعم، بسبب ذلك هاجرتُ لأحقّق ذاتي وأسمو بمعتقدي... بالتَّفكير. أنا هاجرت من أجل اكتشاف أشياء جديدة تغنيني عن نسق أجدادي. أنا هاجرت لأبحث عما لم أجده عند جدي، غادرت لأبحث عن الحقيقة لأشكو إليها أهل القرية ولأخبرها بكل شيء.

قال الصوت المنبعث من أخاديد "إسُومّار":

- أنسيت أن الله موجود بكل مكان وأنه يعلم كل شيء؟ إنني أرى أنك تحس الآن بالغربة لأنك استقلت عن نسق جدك وراكمت معرفة أخرى... ثم قل لي: هل استطعت الانتقال بنفسك إلى نسق آخر؟ أم أنك صرت "كغراب البين... ضيع المشيتين"؟

قال مومّوح :

- كانت فرصة، مجرد فرصة، لم تكن لتكون لو لم تأت المدرسة إلى تاحفورت.

قال الصدى:

- هي المدرسة إذًا من منحتك تأشيرة الهجرة عبر حافلة حمّادي...

- هو كذلك، قال موموح.

صار الصوت مساءلة للنفس:

- وكيف كان الأمر بالنسبة لرفاقك الذين لم يركبوا حافلة حمّادي؟

يرد موموح بتلقائية المتأكد من الأمر:

- صاروا من مريدي الصنم، مُصمم رموس الآجُر بالقرية الكبرى. فضلوا الهجرة طلبًا للتغيير حين تأكدوا أن مجرى نهر تاحفورت لم يتغير... لأن مياهه لم تتجدد، صارت راكدة... ففسدت.

يصير رجْع الصوت القادم من "إِسُومّار" قويًا بصيغة الاتهام:

- تاحفورت، مثال القرى التي لا مثيل لها في العطاء غير المحدود، فهل صرت أنت ومريدو "التصاميم" مصابين بالنّساوَة، وكأن حياتكم السابقة بمسقط الرأس كانت مجرد أحداث مؤلمة؟

يتصبب موموح عرقًا وهو غارق في الحرج حتى أخمص قدميه، ويحاول الدفاع عن نفسه:

- مهلًا يا وكيل القرية، لا تُحملنى ما لا طاقة لي به، أنا لم أنس ولم أخضع قط لأي كان، موقفي كان على الدوام ثقافيًا ولا أشتغل على السياسة. أنا لست مسؤولًا عن تبعات ما وقع تحت ظلال "أرزة العفو". أنا كنت مضطرًّا للخروج بذاتي حتى لا أطمع في

الهدايا المجانية. كانت هجرتي فرصة وفّرتُها لذاتي حتى تستطيع التعبير عن رغباتها.

ثم إن تاحفورت، باستثناء المدرسة الترابية، والطريق غير المعبدة على مسار خمسة كيلو مترات التي أنجزتها "الجّْماعة"، كانت عاجزة عن توفير شروط البقاء. كما أن "الْبِيرُو" لم يكن ليهتم بتوفير الحد الأدنى من تقنيات ومستلزمات العيش.

ينسحب الصوت في خفوت مردداً:

- عجيب أمرك أيها الغريب، وهل راعي الغنم الذي عانق البقاء لا رغبات لديه؟ أردت أن تنفكّ من ذاتك لكنك خضعت لها في النهاية.

10

وصل مومواح إلى تاحفورت وهو يركب سنِيه الستّين، هاله أن يرى المدرسة مغلقة، وقد التحف بياضُها أوساخًا شوهت صفاء مظهرها بسبب غياب التعهد، وعدم الاهتمام.

أمام مبنى المدرسة، رفع مومواح رأسه في اتجاه البيدر، تجهيز أساسي بالنسبة لفلاحة القرية. تنسّم مومواح عطر تاحفورت، وأحس بالفخر، والاعتزاز، فقدّر ذكاء أهله حق قدره، حين فهم أسباب اختيارهم لهذا المكان دون غيره، ليكون مسرحًا للعمليات النهائية لجمع المحصول الزراعي... موقع على حافة منحدر بثلاث واجهات، حيث الريح مُتتابعة الهبوب.

يتذكر مومواح جيدًا، حصص دوس البغال للحصيد، ورفعه بالمذراة بسواعد الرجال، فتذروه الريح لِيخرج منه الحَبّ، ويتراكم التبن حول جنبات البيدر، ليصير علفًا للدواب، والماشية "لُومْ"، بعد حمله ب "ثْرَاتْشَا"، لإيداعه ب "السَّنْداسْ"، حيث تتوفر شروط الحفظ.

يجلس مومـوح الطفل مُلتحفًا ظل الزيتونة الوحيدة التي تؤثث فضاء البيدر إلى جانب قربة الماء "أيْدّيذْ" التي وضعتها إحدى النسوة على حجر عند جذع الشجرة، وصار يعُدّ الحُزم التي يرمي بها الرجال بالمذار من فوق "تَافًّا" في عملية فرش المحصول لجعل البغال تسير عليه في هرولة دائرية...

(رّارّا أدّوَابْ أُورْ دَاكْشَمْتْ تِينْكُّورَا... رّارّا، أُورْ تْيِيثْ لالّا، دْلَالّاسْ إنُورَارْ أيْتْيِيثْ). كذلك كان قائد الهرولة يغني خلف الدواب ويهش عليها من حين لآخر حاثًّا إيّاها على الاستمرار في المثابرة والتحمل.

بعد ساعتين أو يزيد، تتوقف حركة الدواب لتُعطَى الفرصة للسواعد القوِيّة لترفع الحُزم السفلية التي تمنعت عن الدوْس، وتجعل سافلَها عاليّها حتى تطالها الحوافر، ثمّ يُفسخ رباط الدواب من العمود المُثبت وسط البيدر، ويُؤتى بالدابة التي كانت بالجانب الخارجي لتصير بمركز الدّائرة، فتدور كوكبة البغال في الاتجاه المعاكس لإراحة عناصرها التي قامت بالمجهود الأوفر بالشوط الأول.

ملء الحناجر يصرخون: (أهْبُوبْ أيا هْبُوبْ، شْسِي لُومْ قَالْ أحْبُوبْ)، في دعوة للريح لعلها تساعدهم في مجهود التصفية.

اِنصرف الطفل حين أعياه رفع عينيه إلى السماء في متابعة لذيذة ومنهِكة للريح وهي تذهب بقش التبن بعيدًا فتسّاقط الحبات ثقيلة جنيّا.

تمنى الطفل مومـوح فقط، لو كان لأهله به قوة، فساعدهم ليصيبه ما أصابهم من لذيذ الطعام، تحت الظل الظليل لزيتونة البيدر...

اِستوقف الطفلَ إحساسٌ غريب، وهو نازل من مرتفع البيدر، حين رمى بنظره على يساره، ليرتد إليه بصره من الجذوع الضخمة لشجرات البلوط التي تظلل ضريح "سيدي الحاج". ثم مد عينيه أمامه إلى الأعلى، فهاله الاختيار الموفق لموقع ضريح "سيدي بوقنادل". نظر على يمينه بعد أن بذل مجهودًا إضافيًا في اتجاه "إسُومَّارْ"، حيث يتربع "مولاي عبد القادر الجيلالي" من خلال علامة موشومة على قمة الجبل، لينير بأشعته الروحانية وحشة تاحفورت.

يتذكر موموح خلال وقوفه، كيف استجمع الطفل قُوّاه وواصل النُّزول. لم يكن بوسعه أن يتفادى التملّي بطلعة "لالّا مُولْ تَاقَّا،" الشجرة القدِيسة، في تحدٍّ واضحٍ لضريح "سيدي حْمَدْ"، المسجي تحت ظلالها.

بالرغم من أن موموح فهم ما لأهله في حسهم الاستراتيجي من حق وقوة، إلا أنه استهجن خضوعهم لهذا الفلكلور الخرافي لأسباب واهية.

مر بسيارته وسط ساحة المدرسة القديمة ذات الأقسام الترابية التي اندثرت بقايا أطلالها ولم يبق منها الأثر... فعز عليه أن تصير ساحة مدرسته الأولى ممرًّا دنس قدسيتها وعبث بمكانتها.

أوقف مركبته خارج الساحة احترامًا للمكان. نزل يتفقد الفراغ. لا شيء يدل على أن المكان كان ذات زمان يأوي أربعة أقسام ومطعمًا... بنايات من تراب صارت كلها في خبر كان، كأنها لم تكن.

وقف يستحضر وجوه كل أصدقائه، أسعده أن يجد نفسه يستعرض شقاوتهم، فيضحك لوحده.

تذكّر لعبة الكُلل، والرمي بالأزرار، والنقود الصفراء في حفر القمار البريء على جنبات الساحة تحت ظلال أشجار الزيتون ب "نَقْل عّْزّوز".

ما زال mوموح يحسّ بحنية حصا ساحة المدرسة، ويرى نفسه جاثيًا على ركبتيه، يلعب الكُلَل مع رفاقه الصغار. لم تكن كُلَلُ موموح من زجاج، هي إسمنتيّة باردٌ لونُها كعنوان الفقر. ما كان لقميصه جيب، وما كانت حقيبته الصوفية (أعْدِيلْ) في منأى عن الثقوب، فيحمل كُلله في يدِه، ويُراجِع عدَّها كما المُتسوِّلِ الضرير يتحسس وجود ما يمسِكه من القطع النقدية الصفراء في يده اليُسرى المغلولة، وهو باسِط يده اليمنى لاسترزاق المزيد.

ما نسي موموح رنين "إمْزْلقْفْنْ" واستمتاعه بالحرص على نقل الأحجار من رحى يده اليمنى لإركابها على ظهرها دون أن تسقط.

يرخي السمع فينصت إلى صدى جلبة الساحة. يسترجع رنين الصافرة/الجرس، فيبتسم وقد تذكّر فرحته بانتهاء الحصص الدراسية، ولذة العدو في اتجاه المنزل بعد مغادرة المدرسة.

مبتسمًا يتذكّر موموح، وهو ينظر إلى مكان الطابور، كم كانت سعادته تزيد خلال أيام استفادة فوْجه من التغذية المدرسية، وكم كانت الفترة الصباحية تطول بالقسم بفعل انتظار نهايتها، وقد عَاص الأَمر على الصغير الذي لم يعد ينتبه للدرس... وكيف له أن ينتبه، وقد أَوْلهَه بياض ربع خبزة صغيرة من القمح الطري (الفُرْصْ)، آه على جماله، ونعومته، ومذاقه، آه على حلاوة الانتظار من أجل الفوز به.

يتذكر مومورح جيّدًا كيف كان يقف بالطابور أمام "المطعم" وعيناه شاخصتان تُحدقان عبر الباب، فيعدّ أرباع الخبز الباقية ويقارنها مع عدد رفاقه الواقفين أمامه ليتأكد من أنه سيحصل فعلًا على نصيبه.

يحصل مومورح على معشوقه الناصع البياض مع نصف زبادية من الألومينيوم بها حليب ليس كحليب بقرة العائلة، بنكهة أجنبية غير طبيعية.

رطب في اللمس، ليّن في المضغ، منفوش بفعل خميرة عصرية، فيلتهمه مومورح وقوفًا في ثوان معدودات بكل الفرح واللهفة، كيف لا، وهو الذي اخشوْشنت لثته ولسانه من خبز فَطير من الشعير، خال من اللين كوجبة أساسية على مدار الأسبوع، ثم كيف لا، وهو الذي لا يرى أُمَّه تصنع خبز القمح إلا عند قدوم الضيوف، ولا يأكل منه إلا من بقايا هؤلاء.

كان مرور مومورح على موقع المدرسة القديمة كزيارة من غاب طويلًا لمقبرة لم تعد قبورها ظاهرة، بعد أن استوت مع الأرض. لم يفهم مومورح ما الذي جعله يستحضر اندثار الحضارات القديمة ومقارنة ذلك بانطماس أثر مدرسته الترابية.

واصل في اتجاه وسط القرية. اِلتفت جهة اليمين فظهر وجه المسجد الناصع البياض مبتسمًا، يختال مزهوًّا بصومعته التي تهيمن مطلة على أشجار التين والزيتون المحيطة بالمكان.

يا للمفارقة، تبكي المدرسة ويضحك المسجد... مقارنة خالجته، ومرت بسرعة دون أن يفكر في دواعيها. تمنى لو ضحك الإثنان معًا. أوقف سيارته، نزل للوقوف احترامًا للمسجد.

مرور جعله يستحضر جده الذي غاب عنه أن يطلب من حفيده تنوير عقله بالقيم السامية للدين الحقيقي، واجتناب التدين الخرافي، وشبهات المدرسة، وأوهام "لَلاَّ مُول تاقَّا"، وطوطمية "أزْرُو نْ تْسْلِيتّْ".

جده الذي أغفل كذلك تنبيهه إلى أخذ الحيطة من الخلط بين تراكم العادات والأعراف، والخرافة كسلطة تحكم كل تمثلات الوجود، وبين القيم الحقيقية للدين.

مبتسمًا يفرمل موموح سيارته ليقف متذكرًا استعدادات القرية لاستقبال سعادة قائد "البيرُو" وقرار سعادته مشاركة الأهالي صلاة الجمعة بمسجد تاحفورت. يجد موموح وقتها نفسه في مواجهة عقله الفطين حين صار يتساءل عمن سيُصلي بالناس، أهو خال أُم موموح الإمامُ الحقيقي للمسجد، أم أنه سيترك ذلك للقائد بحكم موقعه، وهل جاء القائد إلى تاحفورت للصلاة فقط؟

يتذكر فتى تاحفورت جيدًا كيف وصل القائد راكبًا "لَاجِيبْ" ذات اللون الأخضر البارد. كان سعادته رجلًا غليظًا ذا بياض أندلسي لا يشبه ساكنة المنطقة... يلبس لباسًا تقليديا أبيض، ويضع فوق رأسه طربوشًا أحمر. تقدم عميد القرية للسلام، اِستعذب موموح وقوف عميد قريته أمام القائد وقوف "الحَسْكَةِ" دون انحناء.

سلم القائد على الحاضرين فردًا، فردًا، في تواضع أنسى موموح حكايات قواد العهد البائد.

جلس فتى تاحفُورت في صف أقرانه بالمسجد يستمع دون استيعاب إلى خال أمه الإمام وهو يُلقي خُطبة الجمعة في لغة غير لغة تاحفُورتْ.

ينطلق مومو ح ضاحكًا وهو يتذكر عدم فهمه لدواعي تركيزه النظر إلى الرقبة الغليظة للقائد.

غادر القائد تاحفورت، حاملاً معه ملتمسًا واحدًا ووحيدًا يتعلق بإعادة بناء مسجد القرية. يبدو المطلب وجيهًا، بحكمِ مستوى تديّن أهل تاحفورت، لكن مومو ح كان يرى أن الملتمس لم يكن ذا أسبقية على مستوى هرمية الحاجيات الحقيقية لساكنة القرية. واجه جدّه بالمُساءلة... قال: "أَلم تقل لي يا جدُّ إِن المسجد هو بيت الله؟! فكيف تطلبون من القائد إعادة تأهيله؟!

أليس سقف المدرسة الترابية حيث يعاني التلاميذ من التسربات المائية (تامْقِّيت)، الأوْلى بالاهتمام"؟

- لكن... ما العمل؟ (يْنَّاتٌّ لْقَايْدْ) قالها القائد!

هكذا ادّعى الجدّ، على الرغم من أن القائد بريء من ذلك. قالها الجدّ ليتستر على عجز أهل الحل والعقد بالقرية عن مواجهة القائد بالحاجيات الحقيقية.

حطت المركبة رحْل عجلاتها. نزل مومو ح وقد أحزنه أن يجد نفسه مضطرًا لركن سيارته بموقع الصهريج التحتاني الذي مُلِئ بالتراب حتى استوى وصار موقفًا حقيقيًا للسيارات.

يبتسم مومو ح رغم حزنه وقد وقف عند "طِيطٌّ نْ صَّرِيجْ" أو باب الصهريج الذي كان خاصًّا بتجميع المياه لري حقول "لَمْراجْع" وسط تاحفورت... تذكر جلوسه فوق باب الصهريج كلما قام قائم الظهيرة، وبلغت الشمس كبد السماء، فيحسبها مومو ح توقفت حين يرى مساحة الظل قد تقلصت فيضرب برجليه في الماء وهو يطلب برودة تنعش جسمه من شدة القيظ.

تسقي مياه الصهريج حقول "لَمْراجْع"، مجال متجانس ذو زرع خضِرٍ صالح للفلاحة السقوِية، يتوسط فضاء تاحفورت وتتناوب على تربته على مدار الحول زراعات الحبوب، والفول، والذُّرة، والبطاطس، وأنواع مختلفة من الخضراوات الصيفية...

لم تكن الساقية الحاملة للماء في اتجاه الصهريج والخارجة منه إلى الحقول مُجهزة، بل كانت طبيعية كأي مجرى مائي لم تمسسه يد بشرية، فصارت جنباتها مغطاة بالعشب الأخضر، وبالحشائش اليابسة بسبب التسربات والانفلاتات المائية.

يتذكر مومو ح جيداً كيف كان صاحب الدور يأتي قبل العصر بقليل ليراقب مستوى المياه بالصهريج. يحقق فتى تاحفورت النظر في عمق ذاكرته فيرى "سي عْلِي" حافي القدمين يمشي بسرعة كمن فاته موعد هام، وقد ربط قميصه الباهت لونُه على مستوى الحزام بحبل صوفي، ويضع على رأسه عمامة اِصفرَّ بياضها، ويحمل على كتفه "تَاحْفَّارتْ" التي يظهر من خلال الإضافات الخشبية أن العصا أقل حجمًا من الآلة الحديدية.

يقف الطفل مومو ح، يرد التحية مقبّلًا يد خاله (كل كبار السن بالقرية هم أخوال وخالات)، ورغم حداثة سنه فقد انخرط الطفل في حديث خاص بالكبار مع صاحب الدور، يهم نظام توزيع الماء لأغراض الري.

فهم الطفل مومو ح أن التوزيع عُرف يقوم على مساحة الأرض الصالحة للسقي التي تملكها كل أسرة، وأن وحدة القياس هي الغلاف الزمني الضروري لملء الصهريج.

فتح سي علي فوهة الصهريج، وتابع بِ "حفارته" يزيل الحشائش التي تعرقل تقدم الماء بالساقية.

اِنتبه مومو ح وقد غادر الصهريج ليجد نفسه واقفًا عند الساقِية الإسمنتية الجديدة، فأَحس أَنه عاجز عن مقاومة متابعة شريط قديم يوثق لانبطاحه بكل تلقائية على بطنه ليلعق من معين الساقية الترابية القديمة...

ودّ لو يستطيع استفسار الساقية الإسمنتية عن أسباب مجانبة مياهها للصهريج في تحاش بيِّن... ودّ لو يسألها عن الخرير الرقيق الذي كانت أذناه تهوى سماعه...

ثم صار يرقب الأفق المنظور يستفسره لعله يعرف منه أسباب غياب دجاجات القرية عن محيط الساقية...

دقق موموح النظر، فأراع قلبه ألا يرى للساقية جنبات وهي التي كانت خَضِرة مَضِرة، فودّ لو يسألها عن تلك "الأردان خُضْرِ المناكب" التي كانت تُزين حواشيها المُنْعَمة في عهدها الترابي.

أجال موموح البصر من حوله متأملًا، أفزعه لون أوراق شجر الزيتون الذي تظلل كثافته القرية، ما عاد أخضر اليُنْع يريح الناظرين. نظر الستيني إلى الجذوع، فخالها تحكي مهرَمتها، أطرق السمع فظنها تشكو لامبالاة من هرَّمها.

بين ما يراه موموح أمامه وبين الصور التي يحملها بذاكرته بون شاسع، بين تاحفورت التي تسكنه وبين هذه القرية التي ما عاد يسكنها فرق كبير جعله يحس بالخوف على مخزون صوره القديمة من الانطماس. خوف دفعه للتساؤل إن كانت قريته التي تسكنه لا أول لها ولا آخر، وإن كانت تستطيع مقاومة التغيير؟ ثم يضحك من نفسه التي صارت سلفية الهوى، ويحاول معالجة موضوعية تساؤلاته...

هل صارت القرية قريتين؟ أم إنها نفس القرية التي ملأت صدره بالهواء أول مرة؟

هل اندثرت دواعي انشداده إلى مكان اسمه تاحفورت؟ أم أن حنينه هو للذكريات القديمة والجميلة فحسب؟

هو صحيح، إن للعودة آلامها.

مد مومو ح عينيه من حوله، فأحزنه ألا يرى شيئًا أو أحدًا يدب فوق الأرض، أخذ يسائل نفسه:

- ما بال هذا الفراغ يجثم على القرية دون حراك؟ وما لدبيب الحياة عنها يغيب؟ ألم تكن تاحفورت تعج بالحياة، وصخب الطفولة، وأصوات الطير والحيوان؟ أين تلك النداءات عن بعد بالصوت المرتفع الممدود بين أفراد القرية؟

تلك كانت طريقتهم في التواصل، ودرء المخاطر والمفاسد... ينادي المنادي عدة مرات: (واااااا موحننننننند)، في تكرار يحسبه السامع موالًا، فينصت جميع من بالقرية إلى محتوى الرسالة.

يرد المنادى عليه: (وااااا مايْعنَااااا) ماذا هناك؟

- (واااا تافوناسْتْ دِي لمُودْيِّيييييثْ)، البقرة ترعى الممنوع، تقول الرسالة.

فيهرع الجميع إلى رفع المضرة.

حاجًّا جاء بعد غياب طويل، أوى إلى جذع الزيتونة أمام الدكان الوحيد بالقرية على جانب السبيل، وافترش خشبًا من بقايا جذع ميت مثبت فوق صفاة متوسطة الحجم. كمن ينتظر مرور الحافلة، جلس مومو ح يترقب دون ملل ظهور الحياة.

غفا... بعد أن أعياه التركيز على مقود سيارته الذي عانى من استدعاءات المنعرجات المتكررة، فسمع وكأن صوتًا هاتفًا يناديه من غيابة الماضي، ويأمره بترك المكان، قال الهاتف:

- سلام...

قال مومو ح:

- "أزُول"...

قال الهاتف:

- كيف تسمح لنفسك يا هذا بالجلوس على كرسي إيوان عمدة القرية؟!

رد مومو ح بهدوء دون أن يبرح مكانه:

- أنا أعلم قداسة المكان ...

قال الهاتف مقاطعًا:

- تعلَم ذلك، وتسمح لنفسك بانتهاك حرمة الإيوان !!!

قال مومو ح:

- أنا صاحب المكان.

قَال:

-لا أعتقد أن لديك ما يفيد؟

يرد مومو ح قائلًا:

- بلى... فخُذ "الزَّا"يَ التي على جبهتي من أثر سقوط رأسي فوق أحجار تاحفورتْ، وضعْها إلى جانب الوشام التي على ذقون جدّاتي، ثم اجعل على كل قمم جبل بُويْبْلان، حيث انتجع أهلي مساقِط الغيث، من كل العلامات جزءًا ثم اسألها تأتيك لتخط لك الخبر اليقين.

قال:

-أعرفك... لكنني لا أعلم من أين أتيتَ.

مبتسمًا يرد مومو ح:

- سبق لي أن اشتغلتُ مديرًا لديوان صاحب هذا الإيوان... ثم إنني لا أحتاج لموافقة عمدة القرية لأجلس هنا، أو لأشرب من ماء الساقية.

قال الصدى وقد تملّكه الغضب:

- أتستطيع يا هذا أن تركب الحافلة من غير أن يأذن لك حمّادي بذلك؟

اِنتبه مومو ح من غفوته على أصوات خطى متسارعة لأطفال جاؤوا في جريهم يتسابقون. كانوا ثلاثة... اِثنان منهم بينهما شبَه، لاحظه مومو ح من النظرة الأولى، ثم إنهما يلبسان نفس اللباس، وينتعل كل واحد منهما صندلًا بلاستيكيًّا اغبرَّ حتى كاد سواده يندثر، صندلًا غير مثبت على مستوى العقب الذي لا يكاد يُرى من شدة ما لحقه من اغبرار.

قال أحد الفتية بعربية دارجة، وبلكنة واضحة، وقد فرمل اندفاعه أمام مومو ح:

- أيها الغريب، إذا كانت لك حاجة تريد شراءها فإن الدكان مغلق منذ سنين.

كان ل "أيها الغريب" وقع الصفعة على كبرياء مومو ح المعتد بهويته... لكنه أسرّها في نفسه ولم يُبدها للطفل.

رفع مومو ح يده في حركة لإبعاد الغبار الذي هبا من تحت أقدام الطفل وقال:

-(تانمِّيرتْ... مَامْشْ تْيِيمْ آ لْوَاشُونْ)؟ شكراً، كيف حالكم أيها الأطفال؟

لم يرد الأطفال على تحية موموح الذي أردف قائلًا:

- هل تتحدثون الأمازيغية؟

أجاب الثلاثة أنْ لا، فعالجهم موموح بسؤال آخر مستفسرًا عن اللغة التي تتحدث بها إليهم والدتهم بالمنزل.

ما زال موموح حتى اليوم مصدومًا برد الأطفال الذين أجابوا جماعة بأن لغة المنزل هي العربية.

نادى أحد رفاق الطفل صديقه مُستعجِلًا إياه على الانصراف:

- أسرع يا موموح فأمُّنا في انتظارنا.

كان للاسم وقع شديد على موموح، وقع جعله يكلِّم نفسه:

- ما بك صُدمت مرة أخرى؟ أتظن أنك وحدك تحمل اسم موموح؟ هوِّن عليك، فموموح هو أيقونة الأعالي، هو أهم اسم تسمّي به قبيلة "آيت وراين" أبكارها الذكور... تشرّفْ فقط بحمل الاسم، كثير من الأطفال هنا يحملونه دون أن ينتبهوا لخاصيته.

رن الهاتف، فتفاجأ موموح الذي كان يظن أن التغطية منعدمة بتاحفورت، مكالمة غير مُعلن عن مصدرها. أجاب موموح:

- من على الخط؟

رد الذي على الخط:

- أنا الآخر اسمي موموح...

قال موموح:

- أتظن أنك اكتشفت أمريكا؟ بالتأكيد هو اسم مستعار يشبه اسمي.

قال الهاتف محتجًّا:

- في ادعائك هذا ما يدعو إلى الخجل والاستخذاء، أنا اسمي "مومو ح نْ تاحفورتْ"، أنا أيْقونة الأعالي... أنا النسخة الأصلية، أنا من يحمل براءة اختراع اسم موموح، وكل ما دون ذلك هو مجرد استنساخ لا قيمة له. أما أنت فقد أنهيت صلاحية حقك في حمل اسم موموح يوم قبِلت ركوب حافلة حمَّادي، وصرت من الوجوه المتنكرة الناكرة التي تخفي حقيقتها خلف ستار موموح.

اِنقطع الخط بسبب رداءة التغطية...

غادر موموح صفاة الإيوان قاصدًا حقول "لَمْرَاجْعْ" الدائمة الاخضرار لعله يلتقي أحدًا من كبار "دُّجْماعْتْ"... عند مسجد القرية مر أمامه رجل يمشي الهوينى وهو يحمل حزمة من الأنصاف العلوية لسيقان نبات الذُّرة اليانع الاخضرار، ألقى التحية دون أن يلتفت. هضَم موموح نفسه تواضعًا ورد التحية، لكنه لم يقبل أن يُستقبَل بمعقله كالغريب. اِلتفت الرجل فجأة، توقف جامدًا في مكانه، حقق النظر ثم قال بأمازيغية فصيحة:

-(وِيشّ يُورْوْنْ، وَاكْمْسْ شْلْكّْ)؟ من والدك ومَن تكون؟

رغم أن السؤال كان ذا حمولة باردة ومن قبيل الإِستفسارات التي تُوجّه للأطفال، فإن موموح أجاب بنبرة هادئة:

-(نْتّْشْ دْ مِّيسْ نْ يْمْزِيلْنْ) أنا ابن الحدّادين.

قال الرجل وهو يضع حزمته أرضًا، وينظر جهة أطلال منازل الحدّادين:

- ما مجيئك إلى تاحفورت وقد انقرض حدَّادوها جميعهم؟ لم يعد هنا أحد من ذريتهم، ثم ما جلوسك هنا، أم أنك تنتظر أحدًا؟

آهٍ يا مومومح، لو اخترت البقاء هنا لما تجرأ أحدهم على رجمك بمثل هذه الأسئلة. ثم إن كلام الرجل عن انقراض حدّادي تاحفورت أدْمت صحته قلب مومومح.

نظر مومومح طويلًا إلى الرجل ثم رد قائلًا:

- نعم، لقد رحل الحدّادون كلهم، منهم من غيّبه الموت ومنهم من اختار الهجرة، لكنني جئت حاجًّا لأنني أنتمي إلى هذه الوهاد. أرأيت هذه الأخاديد التي تحيط بتاحفورت، أنا مشيت فوق كل سنتيمتر منها، هي تعرفني وأنا أحفظ أسماءها عن ظهر قلب.

قال الرجل:

- ذاك نهج الزوار السائحين...

رد مومومح:

- أنا لست سائحًا... أنا حصاة من هذا الجبل.

قالها مومومح وقد أحس بالضيق يخنق أنفاسه، وبالدمع يصعد إلى عينيه. لم يعد فتى تاحفورت ينصت إلى الرجل... منذ حلوله بتاحفورت وهو يشعر بالغربة، إحساس دفع به إلى محادثة عقله من خلال قلبه:

- أهو المكان ما عاد يحبني؟ كلما أخذت بأطراف الحديث مع أحدهم إلا وأسمعني ما لا يرضيني.

رد عقله:

- بل غبتَ طويلًا، فضعفت الروابط بين خصائص المكان وهوية مومومح الإنسان. ربما يكون التغيير قد طالك، ثم إن صورك القديمة هي بالأبيض والأسود، أليس كذلك.

قال القلبُ:

- لكنني متأكد من حبي للمكان... لأنني كلما تذكرت تاحفورت إلا وأحسست بالاطمئنان.

رد العقل:

- لا تكذب علي... لو عثرتَ بتاحفورت على مقومات الاستقرار والأمان، ما رحلت.

اِنتبه موموح على صوت مضيفه وهو يقول:

- وما الفرق بينك وبين السائح المستكشف؟

قال موموح:

- أُنظر إلى هذه الأشجار من كروم، وتين، وزيتون، وبلوط، لقد تسلقت جميع فروعها، حتى البرية منها تتذكرني. هل تعلم يا سيدي أن حشرات الجُعل هناك عند بداية "أيْلْمامْ" تعرف رائحتي. ثم إنني أعرف لغة الطير، والشجر، والحجر، وأستطيع قراءة الوقت على الساعة الصامتة من خلال موقع ظل الأشجار التي تتشعّب جذورها متحدية الصفائح الحجرية ل "إِصفَّاحْنْ".

بهت الرجل وظهرت الدهشة على محياه قبل أن يقول:

-أعرف واحدًا من أبناء الحدّادين يمكنه وحده أن يدعي ما ذكرته أيها السيد... لكنه خان موثقًا أخذته عليه القرية.

- وماذا كان الموثق ذاك؟ قال موموح.

- ألا يركب حافلة حمّادي، وألا يسأل هل الحياة بتاحفورت هي الحياة... أم أن هنالك حياة أخرى مختلفة خلف جبال القرية. رد الرجل.

اِكتشف موموح وهو يتفرس ملامح الرجل أنه ما عاد يعرف أحدًا من ساكنة القرية، فسأله عن اسمه.

أجاب الرجل:

- أنا "عصُّو"... لكن، قل لي: كيف لك أن تعرف كل ما تعرفه عن تاحفورت ولا تتذكرني؟

قال مومو‌ح:

- الزمان يغيِّر الإنسان ولا يغيّر المكان... أنت الآخر لا تتذكرني.

سكت الرجل مليًّا ثم تابع:

- الآن تذكّرتك، إنك لأنت موموح.

اِنخرط الرجلان في عناق طويل.

قال "عصُّو" وقد غمرت الدموع عينيه:

- أعتذر منك يا عزيزي "سي موحند" على ظروف استقبالك، وصعوبة التعرف عليك... أنت غادرت منذ سنين وتركت خلفك موموح الطفل الذي كنتَه، تركته يرعى ذكراك ويحكي عن مرورك الرائع بمطارح صباك. هو بقي هنا يكابد المعاناة، لأنه لم يرافقك في ركوبك حافلة حمّادي، لقد هرِمَت أفكاره من أجل انتظار عودتك لتخبرنا أيهم كفيل بجعل أبناء تاحفورت قادرين على الارتقاء بأنفسهم، أهي المدرسة، أو المسجد، أم ركوب حافلة حمادي؟

واستطرد "عصُّو" قائلًا:

- تمنى الطفل لو انخرط في الجندية حين يصير بالغًا، لكن قامته لم تساعده، كان يطمح في أن يصير فقيهًا، لكن عقله المشاكس حال دونه وحفْظ الستين حزبًا. كان يطمع في أن يصير راعي الغنم وهو ما تأتى له رغم خوفه المزمن.

قال مومـوح مستفسرًا:

- وهل تعلم يا سيدي ما صار إليه الطفل موموح؟

قال "عصُّو" متأسفًا:

-أصابه الإحباط فاختار أن يصاحب الأغنام، اِتخذ له من "إِسُومَّار"، موطن الجنّ، وأعالي "بُويْبْلان" ملجأً يراقب منه ما يجري بقريته. يقضي معظم أوقاته ب "أَلْمُو وُّورارْ" رفقة صديقه "جرمون"، كلبه الوفي الذي يساعده في تأطير القطيع. يزور تاحفورت بانتظام، ويطل علينا من جُبِّ الماضي ليؤنس وحدتنا بحكايات جيله الذهبي.

حمل "عصُّو" رزمته الخضراء، ومد يده لموموح داعيًا إياه إلى مرافقته قائلًا:

- هيا معي، أنت ضيفي إن رضيت بي.

حاول موموح أن يعتذر لكن "عصُّو" ألح كثيرًا...

يمشي موموح إلى جانب "عصُّو" مشية "المقطوع من شجرة"، وقد أحس بأن الوضع بتاحفورت قد تغير كثيرًا، وراءه شعوره بالغربة وهو الذي كان يعتقد أن غربته مؤقتة.

لقد انقضت عقود منذ شرائه تذكرة السفر إلى عالم حمّادي. "هرم في انتظار هذه اللحظة"، وها هو قد عاد معتقدًا أنها رحلة حج يُكفر من خلالها عن غيابه الطويل، لكنه يعيش منذ ساعة غربة الروح والمشاعر... جاء ليتفرج على الأطلال حيث يعشش الفراغ.

جاء لأنه في أمس الحاجة لإعادة شحن بطاريات هويته... والشاحن هنا بِ "تامُورتْ".

مر "عصُّو" وضيفه بجنبات المسجد وهما في طريقهما إلى المنزل... يرنّ هاتف موموح، إنه الطفل المشاغب الذي يسكن الذاكرة، ويواصل عملية النبش، كلما وجد الفرصة مناسبة. يجيب موموح:

- من على الخط؟

يرد "الطفل موموح":

- أعلم أنك تنظر إلى البيت العتيق بطرف خشوع واحترام شديد. كنا نمر بالطريق المُقابلة في استكانة وسكون... بغض النظر عن منهجية شكِّكَ التي تروم طرح السؤال للتيقن من كل شيء، ورغم أنني أعلم أنك ما زلت تبحث عن صاحب البيت الذي تمر بجانبه الآن، فأنا متأكد من أنك متعلق بالبيت وتحب صاحبه.

يبدو المسجد كالغُرَّة في جبهة تاحفورت، حيث اختار له مهندسوه أحلى موقع بواد ذي زرعٍ، وتين، وزيتون، يحفّه كثير من الوقار، والأشجار، وتأوي إليه أفئدة القوم كما يأوي النحل إلى اليعسوب.

كل البيوت رُسِمت على جنبات الوادي، باستثناء هذا البيت الذي يتوسط القرية، وأراضيها السقوِية.

وعى "الطفل موموح" الفرق بين الدار العادية وهذا البيت الرفيع مقامُه، منذ أن جاء متلصِّصًا لعله يرى صاحب هذا المنزل الذي يخشاه أهل تاحفورت قاطبة... فما رآه ولا اِستطاع لُقياه، اِستفسر أُمَّه حول الأمر فقالت: "يا بُني، إن من تبحث عنه ما ذهب إلى السوق ولا سافر جهة "الغرب"، إنه موجود في كل مكان، هو معك في الحل والترحال، وبالغدُوّ والآصال، إنه معك وأنت تعدو خلف البقرة وحين تنام"...

يا سلام على أُم مومـوح!

فهم موموح أن قلوب أهله هي كاللؤلؤة، بها صلابة ونعومة، اللين تنتشر في مراتعه الروح فترضى بالقليل وبالقضاء والقدر، والصلابة مرتع للنفس لمقارعة الشعور باليأس وتحمُّل الصعاب.

قال موموح مخاطبًا "عصُّو" وهو يشير إلى باب المسجد:

- أفهم أن تكون المدرسة مغلقة لأنه ما عاد هناك نصاب "صبياني"... لكنني لا أستوعب دواعي إغلاق المسجد، أوَلم يعد هناك مؤمنون بالقرية؟

رد "عصُّو" بصوت تملأه الحسرة:

- بالتأكيد هناك مؤمنون، القرية دينية الهوية والهوى... هو فقط إجراء احترازي مفروض.

قال موموح:

- نعم، هو صحيح، لكن بعضهم ب "الغرب" يعتقدون أن الدين ليس هوية!

- وماذا يكون الدين إن لم يكن هوية؟ يقول "عصُّو".

رد موموح:

- يقولون إنه ثقافة ترتكز على الفلسفة الأخلاقية.

يقاطع "عصُّو" موموح مطالبًا إيّاه بتحديد موقفه الشخصي.

يجيب فتى تاحفورت بأنه يعتقد أن الهوية لا تتحدَّد بالدين وحده، وأنها تكون كذلك بالانتماء إلى الأرض التي توحّد هي الأخرى مكونات المجتمع. "تامورت" أو الأرض، المجال الجغرافي

للقبيلة التي ينتمي إليها مومومح الذي ازداد بتاحفورت بآيت وراين الأمازيغية المغربية، وترعرع فيها، ثم ركب حافلة حمّادي وهاجر إلى المدينة، هي العنصر المحدِّد للهوية.

يزيد مومومح موضحًا:

- هناك بون شاسع بين الدين الحقيقي وبين التدين الخرافي. كلما ابتعد أهل تاحفورت عن التدين الخرافي إلا واقتربوا من الله، فكانت هويتهم دينية وأمازيغية كما هو الحال بالنسبة للعبد الذي أمامك... أنا إنسان قبل كل شيء، ثم أنا أمازيغي مسلم، ومغربي في النهاية.

ينهي "عصُّو" الحوار وهو يقول:

- إن للدين مضمونًا هوياتيًا لأنه ثابت لا يتغير...

- تمامًا كما هي الأرض، يرد مومومح.

اِستبق "عصُّو" ضيفه بخطوة إلى ظل الزيتونة الوحيدة عند "رَأس العَرْصْ"، وأوقفه بيده وهو ينظر في عينيه وقال:

- هو صحيح... أنا "قُبَّانِي"، فلاح، وراعي غنم، لكنني أفهم على قدر إمكانياتي المعرفية، أنا متدين ومن واجبي أن أعرف... ثم قل لي: أكان ركاب حافلة حمّادي جميعهم من تاحفورت؟!

سكت قليلًا ثم تابع:

- كلّا، أنا متأكد من أنهم لم يكونوا كذلك... كانوا خليطًا من القبائل والأقوام والمناطق، لكن الصحن يجمعهم.

قال مومومح وهو يرفع عينيه، ويحقق النظر في فروع الزيتونة:

- هو كذلك، الفضاء هو الذي يجمعنا، والمسجد فضاء من فضاءات الله... النهر مجراه مغربي والروافد روافد، هي تصب في النهر وتقويه.

رد "عصُّو":

- النهر مغربي بروافد شتى تدعمه ليسقي الجبال، والتلال، والسهول...

يرد مومُوح مؤكدًا:

- فعلًا...هو نهر مراكش (أمُور نْ أَكُوشْ)، هي "أرض الله" التي يعشقها الكل ويتعايش بها الجميع.

قال "عصُّو":

- نحن نقف الآن بهذا المكان الذي تعرف اسمه جيدًا... "رأس العرص"، الفضاء يا عزيزي مومُوح ما عاد يتحدث لغة واحدة.

قال مومُوح:

- فضاء أمازيغي يحمل اسمًا غريبًا لكنه جميل.

رد "عصُّو":

- كما أنك أمازيغي متزوج بامرأة أندلسية كما يُحكى هنا... أليس كذلك؟

قال مومُوح:

- لكن حقيقتي تلك لا تمنعني من سماع النهر... هو يحكي أمازيغي. كل دوابّ القرية وحيواناتها الأليفة والمتوحشة تفهم الأمازيغية التي نطقت بها أرضنا أول مرة.

رد "عصُّو":

- لكن الأرض ترفع النداء بلغة السماء، والفقيه يخاطب الناس بلسان يفهمونه.

يرد مومو ح:

- الأرض هي من تصنع اللغة. هو صحيح يا عزيزي أن اللغة العربية سنفونية كونية رائعة، شخصيًا أعشقها حتى النخاع. لكن، قل لي، هل أنت متيقن من أن القرية تفهم الموعظة؟ ربما لو تمت مخاطبة الأهالي بنفس المحتوى والمعنى في لسان القرية لجاءت كل المخلوقات ملبية، ولفهموا، واتعظوا، وغيروا ما بأنفسهم.

يتابع الاثنان طريقهما، قال "عصُّو" محاولًا تهدئة الموقف:

- ما عادت القرية أحادية اللغة، الأرض تصنع اللغة الأم، لكنها تتعلم لغات أخرى. يؤدي المؤمنون المناسك في لغة السماء بداخل المسجد، ويقام العدل بعد وليمة الغذاء بفضاء الصحن باللهجة الأمازيغية وفقًا للأعراف المحلية.

قال مومو ح:

- الأمازيغية لغة رسمية وليست لهجة يا عزيزي "عصُّو". الأمازيغية والعربية لغتان رسميتان، ونحن نستنشق ونتحدث الاثنتين. هي ازدواجية ذات قيمة مضافة نمارسها في توافق تام. ثم قل لي كيف توافق بين عملك كراع للغنم، وبين حرصك على تلبية النداء يوم الجمعة.

قال "عصُّو":

- تلك ازدواجية أخرى، أترك الغنم بالقرب من القرية، أستودعها خالقها، وألبي النداء... ألتحق بمنزلي، أغتسل، وأغيّر جلباب العمل بجلبابي الأبيض الوحيد الذي أستعمله حصريًا للمناسبات الروحية.

يقول موموح ممازحًا:

- تقول إنك لا تتوفر سوى على جلباب واحد أبيض! وتستعمله للمناسبات الروحية فقط، فماذا تلبس خلال غاراتك الأحيدوسية؟ ما الذي يمنعك من استعمال جلبابك الأبيض لكل المناسبات بالرغم من أن لكل مناسبة طقوسها، كما أنه لا مقارنة مع وجود الفارق.

رد "عصُّو" متعجبًا وهو يضحك:

- أنت تسأل وتجيب في نفس الوقت. رغم كوني "قُبّاني"، فالأمر لا يستقيم يا عزيزي موموح، كيف تريدني أن أجمع بين الملائكة والشياطين في جلباب واحد؟!

قال موموح وقد أصابه العجب:

- ما علاقة أحيدوس بالشياطين؟

ملء حنجرته قهقه "عصُّو" ثم قال:

- آه يا موموح... لا أعتقد أنه سبق لك أن أُصِبت بالرعشة الأحيدوسية على نغمات البندير... لو كان كذلك، لما سألتني عن تلك العلاقة التي لا وجود لها في الحقيقة، لقد خانني التعبير. أحيدوس يا عزيزي هو مظهر من مظاهر الاحتفال والبهجة، هو تعبير عن النفس، والمشاعر، والتضامن. هو منهج يسلكه ساكنو الأعالي للوصول إلى منتهى الفرح والسعادة.

قال موموح الذي أُعجِب بكلام "عصُّو":

- أهو مستحب أم مكروه؟

رد "عصُّو" بسؤال كله استنكار:

- كيف تكون صناعة الفرح من باب المكروه؟

اِنقلب السحر على الساحر، ووجد مومّوح نفسه مضطرًّا للبحث عن جواب مقنع، فقال:

- الإنسان حيوان راقص بطبعه. من لا يحب الرقص يعاني من مركب نقص، يفرض عليه زيارة الطبيب.

اِلتفت فتى تاحفورت ليرد التحية على شاب وقف غير بعيد يشرف على عملية ري أحواض الحقل (تابْحِيرت) الذي يقف مومّوح ومضيفه "عصُّو" على جنباته، أحواض بفسائل الخضراوات، فتذكر أول مرة يرى فيها تلك النبتة الباهت اخضرارها التي تدعى "مطيشة".

تذكر توضيحات خال أمِّه بنفس المكان بعد أن سأله مومّوح عن ماهية النبتة العجيبة، ففهم أنها أغراس دخيلة جيء بها إلى القرية لأول مرة... لم يكن أهل مومّوح يزرعون غير الفول، والبصل، والذرة، والشعير، وقليلًا من القمح...

تقلصت المساحات المخصصة لزرع الذرة لتستقبل "لْمْرَاجْع" نبْتات جديدة، صار الأهالي يولونها فائق عنايتهم، ويتنافسون في الاهتمام بها.

بعد شهرين أو ثلاثة... تذوّقَ مومّوح أولى طماطمه التي أنضجتها نظراته المراقبة، ولمسات أصابعه المرتقبة قبل لفحات شمس بداية الصيف الحارقة.

لم ينس مومّوح بعدُ المذاق الخاص الرفيع للطماطم الحمراء التي كان يأكلها نيئة مملَّحة مع خبز الشعير، وهو جالس عند نهاية "تابْحيرْتْ" تحت ظل "تازارين" المحاذية لمسجد تاحفورت.

لم يكن مومو ح وحده من يعشق الأكلة الحمراء... لقد ساءه يومًا أن يسبقه إليها أحد الديّكة الجائعة، الذي اكتوى بتبعات هجومه على "الجمرة الحمراء"، حين أرداه موموح قتيلًا بحجر بالرأس دفاعًا عن الاختراع الجديد.

كما أنه لم ينس بعد مفعول الفرحة على نفسه، كلما اكتشف أن إحدى الحبات قد احمرّت. وهي فرحة لا يضاهيها سوى الإحساس بالسعادة عند اكتشاف علامة جيدة باللون الأحمر بالهامش المخصص للمعلم بدفاتر الصف الإبتدائي...

11

كان والد "عصُّو" فقيهًا... فلم يرث عنه كلبًا حارسًا لواجهة المنزل ولجنباته...

يمشي موموح خلف "عصُّو" وهو ينظر إلى واجهة المنزل الترابي لمضيفه. "تَاذْراتْ"، حيث تأوي العنزات هي أول ما يراه المقبل على ولوج منزل "عصُّو". فضاء مُسيّج بأعمدة من الحطب تمّ تثبيتها في الأرض لحماية القطيع ليلًا، وهي مقتطعة من الزُّقاق (أزْقاق) الذي تترامى أطرافُه أمام المنزل، أطرافٌ يحُفّها ركام الأحطاب (إركْنَانْ) حيث تنام الدّجاجات والدّيكة.

يلتفِت موموح فتنتصبُ "تْشْفِيفْت" كناصيَّة عروس (تْشُوزّيتْ)، وكأنها تحدِّثه عن دورها في حماية الحيطان بمساعدة "تِيفْرْوِينْ" المختصة في تصريف مياه السطوح.

يدخل موموح خلف "عصُّو" عبر الباب الخارجي ذي البنية القوية الذي أُعِدّ للدفاع عن حرمة "أخّام"...

يلجان "تَادَّارْتْ" الفناء الذي تُقام به جل الأنشطة اليومية، هي المطبخ و"قاعة" الأكل والجلوس... وللعائلة فيها مآرب أخرى.

طارت نفس مومٌوح شَعاعاً حين رأى خليط ضوء ودخان رمادي فاتحٌ لونُه يصل بين أرضية "تَادّارتْ" جهة الكانون وثقب بالسقف "تَانْفِيسْرَا". مبتسمًا يتذكر كيف حاول مُلامَسَة حقيقة هذا الضوء بمنزل عائلته، فما استطاع الى القبضِ عليه سبيلا...

يُعانق موموح أُولَى "تِكِّيدَا" (الأعمدة التي ترفع سقف الجهة المغطاة من "تادّارت") التي وقفت وكأنها تستقبله بصلابة خشبها الذي علته الأوساخ، وصبغه التقادم بصفرة تميل الى السمرة الغامقة، فأحس موموح بأن صديقته "تَاكِّيدِيتْ" تئن تحت وطأة "أنِيمُوط"، و"إيطلْعِيْنْ"، و"تَاكْسِّيتْ"، وما تحمله من أتربة. قال موموح وهو يحدث نفسه:

- انا آسف يا "تَاكِّيدِيتْ" لأنني لن أستطيع أن أعلِّق عليك معطفي... لقد ضاعت مني المسامير.

خلع موموح حذاءه، دخل غرفة الضيوف، تلقائيًا أزال جواربه وقد أحس برغبة شديدة في أن يلامس أخمصُ قدميه وجه الحصير الذي اندثرت خضرة حَلفائه، وتقادمت ليصير لونها ذهبيًّا ساطع اللمعان.

اِستجلس "عصُّو" ضيفه... فأحس موموح كأن المكان مكانُه، شعر كأن أدوات ثقافته سعيدة بقدومه. ورغم وجود أفرشة إسفنجية واعتراض "عصّو"، فقد ألح موموح على الجلوس مباشرة فوق الحصير. ربّع رجليه، وأخذ ينصت للحيطان تحكي فراق السنين.

جلس يستمتع باستنشاق نفحات عِطرٍ تنبعث من أبنيَّة من طين... يدقق النظر كمن يريد التأكد من صلابة هذا التراب الذي يأبى السقوط، رغم أنه دُكَّ منذ عقود.

بحلق مومِوح بإعجاب في سقف الغرفة المستطيلة المكوَّن من ألواح خشبية رُصّت في تداخل محكم، ووضعت فوق أعمدة من عدة أيفاع جذوع شجر الأرز التي يحملها الحائطان المتقابلان طولًا.

هو يعلم أنّ الشكل البُنياني عند أهل تاحفورت موحد على كل المستويات... شكل بدوِي وتنظيم داخلي عملي، تغيب عنه الزخرفة، فيصير روعة في بساطة تعتمد البناء بالألواح الخشبية الذي يقوم على صناعة دكِّ التراب، فترى الحائط ينمو سطراً فوق سطر بتقنية لها آلياتها وقواعدها.

عم المجيء والذهاب فناء الدار، لقد تجندت النساء للاحتفاء بالضيف.

أدخل "عصُّو" طاولة مستديرة من النمط القديم، جاء يحملها بيد واحدة وهو يمسك بإحدى رجليها. متوسطة الحجم تكشف الطاولة للعين عن لون طبيعي تقادم حتى صار غامقًا فأفسد صفاء خشبها. يتكون سطح مائدة "عصُّو" من ثلاثة ألواح من الأرز الخالص، علا بعض الوسخ شقوق تداخلاتها. وضعها فوق الحصير، فوقفت على ثلاثة أعمدة قصيرة مزخرفة بنقش بسيط.

اِنصرف "عصُّو" ليعود وهو يحمل بين يديه ماعونًا من المنافع المنزلية التي ينتظرها المدعوون كثيرًا. جاء وهو يضع على كتفه اليمنى فُوطة لتجفيف اليدين بعد الغسل.

قدّم "عصُّو" بيُسراه لمومواح طاسًا من معدن الألومنيوم لغسل اليدين، مد الضيف يديه مُبسمًا، أفرغ عليهما "عصّو" من ماء المقراج ذي اللون الفضي. مال "عصُّو" قليلًا ليسحب مومواح من على كتف مضيفه فوطة التجفيف. يخرج "عصُّو" حاملًا الطَّاس والمقراج ليعود وبين يديه "الصحن العظيم"، طبق معدني كبير الحجم أبيض مستدير لا يكاد يُرى، وَارَاه رغيف دائري من خبز فطير من سميد القمح تتوسطه كومة صغيرة من زُبْد اللبن...

يحث "عصُّو" ضيفه على الأكل وهو يبعج الخبز بأصابعه عند جنبات قطعة السمن التي خضعت لسخونة الرغيف، فساح الدهن حتى بلَّ الخبزة كلها.

لقِم الإثنان الأكلة الشهيرة بطعمها اللذيذ ونسيا صينية نحاسية وضعتها زوجة "عصُّو" عند باب الغرفة عليها براد شاي، يحيط به صف نصف دائري من كؤوس "حياتي".

قبل العصر بقليل غادر "عصُّو" وضيفه المنزل. عند الباب الخارجي وقف مومواح وهو يثني على "عصُّو"، ويشكره على الاستضافة والحفاوة، فقاطعه "عصُّو" وهو يخبره بأن ضيافته له لم تنته بعد، وأن موعدهما بعد صلاة العشاء بمنزله.

حاول مومواح الاعتذار، لكن "عصُّو" أصر موضحًا بأنه دعا بعض أصدقائه لوجبة العشاء، وبأنه هو الآخر مدعوٌّ، ثم إنه سيبيت عنده الليلة.

غادر مومواح منزل "عصُّو" دون أن يعرف وجهته... خلف دكان القرية ألقى نظرة سريعة على سيارته قبل أن يكمل طريقه وسط القرية.

بعد لأي، وجد مومو ح نفسه واقفًا أمام ما كان يُسمى زقاق منزل عائلته. أشجار التين وحدها ما تزال واقفة، أشجار يحكي اليبس الذي أصابها عن الوضع الذي صار.

كل شيء سُوّي بالأرض. هنا كان منزل أهل موموح، لقد أبلى الزمان والمناخ معالمه فصار كأنه لم يكن. يبكي فتى تاحفورت مردّدًا قصيدته "مَن يكون هذا؟" (**وَاكْمْسْ أُويْدّْ؟**):

بْدّْغْ...
غْرْ أُويْنّْ تُّوغْ دَ-ازْقَاقْ،
يْسّيوْلْدّْ

وْمْنَارْ يْتّْرُو...
يْنَّايِي:
وَاكْمْسْ أُويْدّْ؟

نّيغَاسْ:
دْ موموح نّْغْ
هَاتْ إِيدْوْلْدّْ،

يْنَّايِي:
أَلَالِي مْمّي
غِيمْدّْ،
غْرِي غِيمْدّْ...

أنّْرُو،
تْدْوْلْ تَادَّارْتْ
آمْ وْرْشَامْ
كّيغْدْ...

كلمات بأمازيغية صافية تحاور من خلالها بعض الأدوات الثقافية الزائر العائد. فيسأله المكانُ الذي كان زقاقًا، وهو يبكي، عمن يكون الواقف عنده. أعلن موموح للعتبة عن هويته، فدعته للجلوس إليها ليبكيا الدار التي صارت كالرسم على الرماد.

تّْرَاعِيغْ
خْ وْمْشَانْ أُويْدِّيدْ
نْزْيدّْ
خَافِي تْبْدّْ،
تْسَارْسْتْ
تْتّْرُو خْ تَازُوتّْ
يِّيطَانْ نّْ يْقْطَانْ...

إِيسْلّْ آسْ أوغْنْجَا
جَارْ يِينْيَانْ
دْ شْوَايْ يِّيغْدْ،
يْكّْرْدّْ.

يْنَّايِي:
هَا فُوسْ إِينُو،
سْ تْزْغْلْ
إيطُوضَانْ نْ يْمَّاشْ،
إِيسُولْ إِيتْدّْدّْ.

يبحث موموح عبر أنشودته عن مكان قربة الماء حين وقف أمامه إناء أكل كلبه "جرمون" يسأل عن نباح الكلاب التي انقرضت.

يستيقظ المغرف (أغْنْجَا) المستلقي على الرماد بين الأثافي على نحيب إناء الكلب "جرمون"، ثم يخاطب الواقف عند موقع الزقاق القديم يخبره بأن "يده" الخشبية ما زالت "تتصبب عرقًا" من جراء إحساسها الدائم بدفء أصابع أمّ مومموح.

يْسّقُوشّدّ
أُوسْفْلُو زْدّوْ
شْوَايْ نْ تْقْشْبُورْتْ
نّ تُّوغْ دْ ݣايْرْ،
يْنَّايِي:
أَدْرْدّ غْرِي أوْمَا
يَادْرْدّ...

أدَّاكْشْ نْغْغْ أَحُويْزْ
نْ لَلَّا... لَالّ يِّيزِيضْ
دُو غْرّدْ.

عبر الأنشودة يطل مقبض طاحونة امّ مومموح من تحت قطعة جذع قديم كان يستعمل للجلوس، ثم يطلب من مومموح ان يدنو منه حتى يعانقه فيشتمّ فيه رائحة صاحبة الطاحونة (تاسِيرْتْ).

هو المنزل حيث ولد مومموح، لكن جدرانه التي سكنها صدى الزغرودة التي أعلنت عن مجيئه إلى هذه الدنيا لم تعد قائمة... جدران أصمَّ الزمان صداها.

يستعرض مومموح وجوه، وأحاديث رجال ونساء عائلته، فيكتشف أنه ما يزال يتذكر جل القسمات وكل الأصوات... حتى أصوات الأموات.

ما كان الموقف ولا وقوف مومو ح يسمحان بالرد على الهاتف وقد رن... رن طويلًا، لكن الواقف لم يرد.

يغالب موموح دموعه أمام بقايا ركام وأكوام أتربة أول منزل ألفه، المنزل الذي رأى به النور، وامتلأت فيه رئتاه بالهواء أول مرة.

رن الهاتف مرة أخرى، وحيث أن موموح كان (خارج التغطية)، فقد ضغط على الزر الأخضر تلقائيًا دون أن ينظر إلى شاشة هاتفه.

قال المهاتِف:

- أرى أنك عدت إلى منزلنا القديم. ما بالرّبع من أحد، اِستمتع فقط بوقفتك الطَّلَلِيّة، واشتمّ روائح الذكريات، وعذب نفسك بتذكُّر مراتع صباك، فتش في ذاكرتك لعلك تُخرج منها صورنا القديمة. أما واقع الحال فهو كما ترى، وأخاف ألا يكون معك شيء يجعلك تتذكر... ذاكرتك فارغة منذ أن حمّلت محتواها في قرص النسيان... والقرص معي.

أعاد موموح هاتفه إلى جيبه دون أن يجيب، ودون أن يُنهِي المكالمة، ثم تقدم إلى جانب الصفاة التي كانت النسوة يضعن فوقها قربة الماء عند عتبة الباب الخارجي، فأحس، رغم عدم وجودها بمكانها، وكأنها حاضرة تشكو إليه عطشها وهي التي كانت على الدوام مبللة الأطراف.

واقفًا، أخذ ينظر إلى الملامح العامة لموقع المنزل الذي كان، لقد تغيرت طبوغرافيا المكان. رغم اغتراب الذات صار فتى تاحفورت يحدث نفسه:

- لو كان لي أن أختار مرة أخرى مكانًا لمسقط رأسي، لاخترت بدون تردد هذا المكان، على الرغم من أنه يشهد على خيبات "طفولتي".

اِسترق السمع، لا شيء، حتى العصافير غابت أو هاجرت، أليست هي من علمت عقله الطيران والتحليق بعيدًا؟! كيف يغيب صوت الريح التي كانت تلطم أغصان شجرتي التين والزيتون المحاذيتين لنافذة الغرفة، وحدهما ما زالتا تتحديان الزمان بوقوفهما الثابت على أطراف الزقاق القديم، وحدهما تشهدان على مراحل طفولة لم يعشها موموح.

تفرّس موموح في أكوام التراب التي كانت جدرانًا، فشعّ في عينيه بريق بلون ذكريات الماضي... ذكريات تجعل هذا التراب شيئًا مقدّسًا، كيف لا، وهو الذي رد عنه برد الشتاء، وحماه من حرّ الصيف، وآمنه من الخوف. إنه مكانه وموطنه... فكيف ينقرض المكان بهذه السهولة الغريبة؟

نظر موموح إلى موقع الركن الذي كانت تنبعث منه جعجعة ممزوجة بغناء مُتوائم لثُنائي يشدو في تناسق وانسجام، فتذكر مُوسيقاه المفضلة، أنغام من تلحين "تاسِيرْتْ" مرفوقة بغناء لأُم موموح...

يتذكر موموح أمّه... فيحكي عن كلام أمازيغي واضح بسيط يحمله إليه صوت يعشق انتظار سماعه، يحكي عن ساقيته المتدفقة حنانًا وعن شمسه التي تمده بالدفء ولا تغيب... يحكي عن وجه ورايْنِي هو قناته التي تشبهه، وتابع عليها حصريًا مسلسلات حياته البريئة.

هي بسمة مومومح التي أضاءت حياته ... كانت مهاده ومركبه، هي نسمة الأعالي... البلسم الشافي لموموح العليل.

متوسطة القامة تميل إلى القصر، ليست بالممتلئة ولا يشكو قدها من نحافة مقلقة، مسرعة الخطى وهي مقبلة وكذلك هي حين تُولّي مدبِرة. كانت تتمنطق بحزام صوفي يدور حول وسطها في ثلاث لفات على الأقل، فوق لباسها ذي الألوان الأمازيغية. جميلة ذات بياض صبوح، يعلو أنفها باقي وشم خفيف يكاد يندثر، تضع فوق هامتها ألوان قبيلتها، وتحمل سواعدها أساور من فضة علاها تقادم رمادي غامق.

هي أُمّية لكنها ليست جاهلة، تروي عن أبيها الفقيه كل شاذة وفادة وتسأل عن كل شيء.

يتذكر موموح أمّه، فتتراءى له امرأة تتدحرج بين ثلاثية العمَد المُمدّدة وقوفًا (إمْسَّنْدَا)، وثلاثية أثافي الكانون (إنْيَانْ)، وتحت وطأة حمولة الحطب (تَازْدمْتْ)، ونقل قراب الماء فوق ظهر ممنوع من الأنين، وبين إمكانية الحمل، وأوجاع المخاض، وضرورة معانقة حبال النقل، والمخض، وفك رموز الترقي بمِنسَجٍ (أزْطًّا) تأبى خيوطه رغم تعنيفها الوصول بسرعة إلى خط نهاية موشوم باليحموم (لَعلامْ).

ذعر موموح، توقف وقد خطّاه الفزع مُقهقرًا لعدة خطوات، حتى لا يعتدي على حرمة المكان... مكان كانت أُم موموح تضع عليه مائدة الأكل على الأرض مباشرة...

يدقق موموح جيدًا، فتبدو له ضفاف القصعة الخشبِية "ضَّزِيوَا" رقراقة يضيء تقادم خشبها المشبَع بالدسم، ولو لم يمسسه

إدام، قصعة تقادمت حتى مال لونها إلى السواد، وزادها بعضٌ من الوسخ والقذر اغبرارًا حدّ من اسوداد الماعون...

يبتسم موموح وهو يتذكر كيف كان يطل إطلالة العاشق الولهان، وكيف كان يرى كل شيء في الدنيا من خلال بحر لُجِّيّ من البياض الذي بَلْبَل حبات "البَلْبُولَةِ" حد الغرق... حبات مبخرة حبكت أُم موموح فتلها. يتذكر جيدًا كيف كان يسمع لِجاج بطنه... كيف لا، وعشقه لأكلة "أَحْلاوْ" صار حبًّا ثقافيًا.

الْ "أحْلاوُ" أكلة أمازيغية تصنعها أُم موموح من بلبولة الشعير، وتُسقى باللبن حتى يصير مذاقُها بطعمِ الحُموضة اللذيذ، فتُأكل بملاعق من خشب " تَاغْنْجَاشْتْ".

يضحك موموح من نفسه وهو يتذكر كم كان استعمال هذه الملعقة الخشبية الثقيلة يعتاص على يده الصغيرة، فكان لا يملأها، ويستعيض عن ذلك بسرعة في الأكل مُستعذبة عند الأطفال.

كان وجه موموح ينفسِح لغزو الذباب الذي يتعيّش من مُخاط دائم بالأنف، ومن شارب أَبيض من بقايا "أَحْلاوْ"، ورغم محاولاتِ موموح مواجهة الغزاة باستعمال ظاهر يده اليسرى للتخلص ممّا طلى شفتيه، فإن عناد الذباب يدفعه إلى البحث عن "أَسْفُّوطْ" (قطعة من ثوب خشن بُنِّي اللون يُحفَظ فيه العجين حتى يختمر) لينظف به فمه، فتنتفض أُمّه مُنبّهة إياه بأن أدوات الأكل مقدسة، وأن الله سيحاسبه على ذلك.

يضع موموح يده فوق رأسه وقد تذكّر كيف قبّ شعره من قوة التناقض الصارخ بين تقدسُن "أَسْفُّوطْ " والسكوت عن استعمال ملعقة "أحْلاوْ" لقتل قمّل الملابس على ظهر القصعة الخشبية.

يضحك موموح مرة أخرى حين تأكد أنه لم ينس موقفه إزاء التناقض وهو يقوم مُنتفخَ البطن وقد أَفزَّه الأمر، واختلط عليه فصار منشغلًا بتفقيع أصابعه محاولًا مواجهة الشكوك التي بدأت تراود عقله الصغير.

لم يكن تذكُّر بعض الأدوات الثقافية لأمه لينسيه ثَمَله إلى شرب اللبن، فيصير بشفاهه التي طالها البياض كالجمل الهائج الملطخة مشافرُه باللُّغام.

يبتسم موموح ضاحكًا وهو ينظر إلى المكان الذي كانت أمّه تضع به (أيْدُور) بعيدًا عن نظرات ابنها الذي يعشق الألبان ويعجِبه أن يغرف، خِلسة من أُمه، بضع مِلعقات خشبية من الرائب الخاثر قبل إخضاعه لعملية المخض. زهراء ناصعة كبياضِ القمر تظهر رَوْبَة الحليب وهي تضيء سواد (أيْدُورْ)، يسيل لعاب موموح فلا تفارق حدَقَة عينيه البياض المستفز إلا بعد الفوز بخُلْسَته.

اِنتقل موموح إلى الجانب الآخر من موقع أطلال الدار التي كانت، فتوقف حيث كانت غرفة النوم، فتملّكته ابتسامة ممزوجة بشعور من الحزن على من كانوا ينامون بالمكان لكنهم غادروا هذه الدنيا.

اِبتسم وهو يتذكر معاناته مع جنِّيِّ الحشرات الأسود الذي كان يظهر له بالكاد كنقطة سوداء متحركة، كلما استطاع رؤيته، يحس بوثباته المرفقة بوخز رمحه الذي يوَقّع على بقع حمراء...

(قْطِيطْ أُوبُوقْطِيطّْ، يْنْطْوْ أُورتْ تِينّْيْ طِيطّْ)، قليلٌ أقلُّ من القليل، طار ولم تره العين. هكذا يصف موموح صديقه الأسود.

على وقع ركلاته، كان مومــوح يستيقظ وقد أصابته الثُّؤَباء كأنه لم ينم قط، فصار يتلذّذ بتنفيذ حكة أثارتها لديه لدغات الطفيلي البُنّي الذي استجلبه دفء "تَاحلاسْت"، وآوته الأرضية الترابية المغبرّة للغرفة حيث يلتجئ ورفاقه تحت حماية الحصير.

يجلس موموح وقد أشاح بنظره عن ظلام الغرفة، وصار يلتمس الغوث من ضوء باهت ينفلت من زجاجة نافذة صغيرة يكاد الديجور يخنقها، فبدَا له خوفُه قادمًا يتسلل عبر السواد المخيم على الغرفة.

يستيقظ "عبد الرحمان"، الأخ الأصغر، على الصراخ المتكرر لموموح وهو ينادي أُمَّه ويحثها على إضاءة "اللَّامْبا"، فينخرط الإثنان في نوبة بكاء من أجل الاستغاثة بأُمٍّ لا تردّ. تأتي الإغاثة عبر النَّافذة المقابلة لغرفة النوم حيث تغلَّب الصوت الجهوَري لعزيزي "امْحَنْدْ"، عمِّ أمّ موموح، على بكاء الطفلين اللذين صارا يُنصتان إلى العمّ الأكبر وهو يطلب منهما مناداة أُمّهما بِ "رْقْبَّه".

بمجرد أن نطق موموح بالاسم الغريب، أجابت الأُمُّ مباشرة: "ما يْغْنَى" ماذا هناك؟ دون أن تتحرك.

يحضر خال موموح الذي ينام بالغرفة المجاورة، ويضيء "اللّامْبا" ليجد الأمّ جالسة الى جانب الأطفال شاخصة ببصرها إلى السقف، ناداها "رْقْبَّه"، فأجابت: "نْعَامْ أوْمَا"، اِحتضنت طفليها، وبدا عليها تحرّرها من كابوس مخيف.

كذلك حصل موموح على القِنّ السّري لتفكيك لغز يعلمه كبار العائلة فقط. لم تكن القصة لتمر هكذا دون محاولة الطفل تفكيكها.

يستفسر مومو‌ح أُمَّه في الصباح المُوالي عن "رقبّه" فلا يتلقَّى جوابًا عن سؤاله، لكنه علم فيما بعد "أنه اسمٌ لصديقة جنِّيَّة لأمّه..." !!

بين الصديق "شُورْدُو" ووخزه المزعج، وبين "رْقْبَّه" سفيرة الخوف، تاه موموح حين تأكد أن محيطه لا يتوفر على عناصر الأجوبة المنطقية لتساؤُلاته...

لم يستطع موموح حتى اليوم تشخيص الأمراض النفسية عند أهله... ولن يقدر على تفكيك التأويل الخُرافي لمعنى الصداقة عند ساكنة وادي الخوف بتاحفورت...

أشاح موموح عينيه لوهلة... اِستجمع كل قواه لعله يستطيع العودة بذاكرته إلى أيام الطفولة...

تذكر كل شيء، اِشتعل في نفسه كل ما هو أمازيغي وعائلي، اِمتلأت رئتاه بعبق الماضي، اِنفتحت أذناه لسماع ضحكات الطفولة البريئة، ونقنقة الدجاجات وهي تقود صيصانها بِ "أزْقَاق".

اِستحضرت مخيِّلته صخب المنزل الذي كان، المنزل الذي ولد فيه، وتربَّى وهو يحبو، وحيث كبر وهو يخطو.

نظر إلى مكان عتبة الدار، دقق النظر في عمق الفراغ، فظهر له "موموح الطفل" وقد خرج راكضًا حافي القدمين، تعثر قدمه عند قاعدة عتبة الباب "أمنار"، يقع، ثم ينهض وقد علا جبهته أثر التراب. لا بأس، لقد ألفت قدماه العِثار.

قام موموح من حيث كان يجلس على الصفاة محاولًا مساعدة عاثر الحظ على النهوض، لكن الطفل رفض الاستمساك، فأمسك موموح بخيط الغبار الذي هبا من تحت أقدام الفراغ.

نهض الطفل وهو يضرب على ركبتيه لإزالة ما علق بهما من تراب، ثم يُزِيل "إيزيكْرْ" القفْل على فم "أيْدِّيذْ" فيضغط برجله الصغيرة على بطن القربة الموضوعة على الصفاة بالجانب الأيمن للباب الخارجي.

ثم توارى بسرعة عن أنظار مومُوح خلف جذعِ زيتونة غير بعيدة لقضاء حاجته...

في طريق عودته من مهمته الفيزيولوجية، اِنبطح الطفل ليرتوي من الساقية كما يفعل أطفال القرية عدة مرات في اليوم، فلم يجرؤ موموح على توجيهه للاغتسال بها وقد رجع ليجلس تحت الزيتونة التي تدعم مدخل الدار، حيث ألف الجلوس لساعات.

نظر موموح في مرآة ذاكرته فتراءى له "الطفل موموح" وهو جالس بإيوانه بعمق جذع الزيتونة... كان يلبس قميصًا باهت البياض (تاكْذْوَارْثْ) رقِط بسواد يفيد حضور جنّ الحشرات (إِشُوردَانْ)... القميص قطعة واحدة من القماش الرديء يربِطها الطفل بخيط على مستوى الحزام (فُولُو)، وتُشَدُّ على مستوى العنق بزرّ صغير (بُونْيْ) يُدخل في عروة.

غابت طفولة رجلي الصغير، فصارتا كأنهما بوريتان لم تعرفا الماء منذ مدة. خشنةٌ يداه، بدت قمم أظافر أصابعه مزينة بخط أسود من عصير وسِخ، كما علت قمة أنفه الصغير وفتحاته بقايا مُخاط تقادم حتى نال حقه من السواد.

- أنسيتَ الطريق إلى تاحفُورتْ؟

اِنتبه موموح وقد فاجأه الصوت المنبعث من جذع الزيتونة، رد حين فهم أن "الطفل موموح" هو من يخاطبه:

- وهل ينسى المرء ما يعرفه عن نفسه؟ خطواتي هي الطريق إلى هنا... أنا لا أطمئن إلا في حضن تاحفورت. إنها الخير المطلق، كنت متأكدًا من أنني عنها لن أتحوَّل. كنت أعلم أن لديها كل الوقت... لتنتظرني.

عن استفساره حول تحمُّله لبعده عن تاحفورت، وعن صبره حين ينساب الدمع موال أنين، أجاب مومومح بأن الفقد يُزهر وقتها، ويثمر أناشيد الحنين...

عن سؤال الطفل عن الرجل الذي صاره مومومح هل يكون صادقًا؟ قال مومومح:

- ألم أقل لك من قبل إِني ما تركتك قط... "مومومح الطفل" ما زال يسكنني، "والرجل الصادق دائمًا طفل".

قال الطفل:

- ذهبتَ تبحث عن المستقبل لتحسين أوضاعك، فهل وجدت ما كنت تبحث عنه؟

سرعان ما اكتسى وجه مومومح تعبيرًا يفيض بالحرج، فقال متلعثمًا:

- هو صحيح... إنني خرجت من تاحفورت، لكنني لم أكن أعرف كيف أُدير مقبض "أسْفْلُو" مطحنة أمّي الحجرية لأربح السباق، ثم إنني بحثت عنه يوم السباق فلم أجده.

قال الطفل متهكّمًا:

- لقد خسرتَ سباق التناوب يوم سقط منك "أسْفْلُو" على طريق الهجرة، يوم قلتَ له: "وِيشّ يِّينْ (أيَاسْفْلُو) زِّي لْقَشّ؟": من جعلك أيها المقبض من المنافع المنزلية؟

قال مومّوح متسائلًا:

- أَلم تقل لي إن لديك ما يغنيني عن كل شيء؟

قال الطفل:

- قل لي قبل ذلك ما الذي جعلك تحيد عن الاعتدال، والتّقيّد بأعراف القبيلة لتركب الزحام وتبعاته الانفعالية؟

رد مومّوح:

- عن أي حيْد تتحدث يا هذا؟ وِجهتي هي تاحفُورتْ... لست عنها أحيد.

قال الطفل:

- ولِم اخترت نصفك الآخر من خارج القبيلة أيها الأولق الكذاب؟

قال مومّوح:

-هو القلب... ثم إن تاحفُورتْ ما عادت قرية من قرى الله.

قال الطفل:

- ها أنت وقد عدت، وعودتك هي أَملك الوحيد أَيها الغريب... ثم إن تاحفُورتْ نالت حقها من عدالة الكهرباء.

قال مومّوح:

- كهرباؤُك ما عادت تنفع لرفع التعتيم المفروض من خلال خنق الأنوار، منذ تُركت المدرسة فضاءً لبيوت العنكبوت.

قال الطفل:

- "المرء من أصله" يا مومّوح، "فلا تطارد أرنبين في نفس الوقت، فإِنك لن تُمسك أيًّا منهما"... ثم قل لي كيف وجدت الزحام هناك حيث حطت بك هجرتُك؟

قال موموح:

- أزعجني أن أسمع هناك حيث رمت بي حافلة حمّادي أشياء مختلفة عما سمعته هنا من جدّي. كما أنني نظرت إلى أم قرى الأعالي من خلف جبل بُويْبْلان (سُوغِيرِينْ إِي پِيشّْ)، فما رأيتها فضاء آمنًا لعقلي ليطرح أسئلته التي تؤرقه، وليبحث عن الأجوبة التي تريحه.

قال "الطفل موموح":

- ذاك أمر طبيعي، أنت ذهبت لتعتمد على عقلك ونسيت أنه قد يخدعك، وفي جميع الأحوال يبقى ضميرك هو الوحيد أهلًا بثقتك لأنه يوافق فطرتك...

رد موموح:

- يكون ضميري كما تقول لو كنتُ صفحة بيضاء خالية من المخطوطات الموروثة، أنا لو كنت اخترت جدّي ما كنت وُلدت.

قال الطفل:

- الأمر لا يستقيم، كيف لك أن تعيش حياتين في نفس الوقت؟

قال موموح:

- أنا أركض خلف عقلي، لكنني أشعر بأنني تركت جزءًا مني هنا رغمًا عني... حتى لا أنسى. فكيف يكون واجب التذكر حياة أخرى؟

قال "الطفل موموح" بصوت خافت به حنية، وقد بدت نيته على تغيير الموضوع:

- أما زلت تذكر طفولتنا البئيسة، أم أنك نسيت؟

مد مومو ح عينيه في اتجاه الزاوية الشرقية لطلل الدار، حيث ما زالت شجرة التين صامدة، رغم اليُبْس الذي بدا على جذعها وعلى بعض أغصانها، وأخذ يتجول بنظره بين أوراقها مُداريًا تأثره بحمولة السؤال، ثم قال:

- أنا لا أحب العودة إلى الماضي، رغم أن زمن تاحفورت كان جميلًا، وسيئًا في نفس الوقت. لكنني ما نسيت، ذكريات آلامي مهمة بالنسبة لي، هي مُخزَّنة في أعماق ذاكرتي التي يصعب عليها دائمًا استحضارها والوصول إليها. الحقيقية هي أن الماضي لم يكن سعيدًا، كان وما يزال يحمل في طياته الألم والشقاء. أنت قبلت بالعيش طويلًا في الماضي لأنك اخترت أن تبقى طفلًا، أما أنا، فيشدني الحنين إلى المكان فحسب... لأنني لم ألعب ولم أعرف معنى أن أكون طفلًا.

قال "الطفل موموح" وهو يعرض على موموح خدماته:

- أفهم أن يكون غيابك الطويل عنا من دواعي تواضع ذاكرتك في استحضار ذكرياتنا بمعظم تفاصيلها، لكنني هنا من أجل أن أستمتع معك باستعادة ذكريات طفولتنا بحلوها ومرها. سأقصّ عليك منها ما يشفي غليل عشقك للحكايا، ويمدنا بالقدرة على جعل قلبنا يتحمل دفن الماضي لينسى جراحه.

12

جلس مومو على الصفاة الطلل، وقد اغرورقت عيناه حين استعادت ذاكرته كل شيء. هادئًا كان ينصت إلى "الطفل" الذي قرر أن يقرأ عليه "مذكرات موموح"، فصار يحكي بانسيابية وبدون رتوشات.

ينظر "الطفل موموح" إلى داخل المنزل الفراغ قائلًا:

- لن ينسى "الطفل" أبدًا كيف كان جده ينكُزه كل صباح نكزًا خفيفًا بعقِب عصاه مستحثًّا إياه لينهض، فيستيقظ باكرًا وكأنه لم ينم قط.

على الدوام يحس بألم خفيف بفخده الأيمن من جراء احتكاكه بسيقان نبات الحلفاء "أَرْيْ" التي نُسِجَ منها الحصير "أجْرتِيلْ". لم يكن بوسعه تفادي طابع الحصير على فخده. لقد أوصاه جده الفقيه بالنوم حصريًّا على جنبه الأيمن.

يضع يده على فخده ليتلمس آثار الفقر المرسوم على جسده. كمن يرى في الظلام، يتفرج "الطفل مومموح" على التشكيل البارع الذي رسمته سعوف الحلفاء الرقيقة باللون الوردي على جلده الغضّ.

يتذكر وصية جدّه، فيتخيل نفسه متأبطًا لوحه بيمينه، ويقدم رجله اليمنى، ويدخل مسجد تاحفورت ليجلس بين أصحاب اليمين.

يختلط عليه السمع، فلا يعرف من أين يبدأ... أيختار التركيز على نباح "جرمون" المطَمْئن، أم الاستماع إلى ثغاء الغنم التي أزعجها تبيُّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود. ربما فضل الطفل التلذذ بسماع صوت خال أمه وهو يرفع أذان الفجر، الذي رافقه صياح الدّيكة معلنا عن حلول الملائكة، وميلاد يوم جديد...

هي لحظة كانت تصنع ل "الطفل مومموح" سمفونية تنسيه نكز عصا جدّه، وعدوانية حصير الأرض الذي يفترشه في الصيف والشتاء.

يمد أصابعه و يحركها باحثًا في الظلام المسيطر على الغرفة عن صندله البلاستيكي، فترتطم يده بالإطار الخشبي، كان ينام لدى الباب... لأنه كبير إخوته.

وقف الطفل عند أسفل الدرج، يفرك عينيه حين خاطبه جدّه:

- اِملأ المقراج بالماء من القربة (أيْدِّيذْ) واستعد للوضوء لمرافقتي إلى المسجد لصلاة الفجر...

يرد "الطفل مومموح" على أمر جدّه باستنكار مبطّن:

- تيفاوِينْ، صباح الخير، أتُوقظني يا جدّ في هذا الوقت من الغسق وأنا الطفل الذي يحتاج جسمه الصغير إلى النوم والراحة؟!

يقول الفقيه:

- صبّحتُ عليك بنكْز عصاي فما رددتَ علي. يا بُنيّ، سيعَلِّمك الفجر النظر إلى السماء في الظُلمة، سيُسمعك صوتَ دعاء العصافير، هي فرصة لا تُعوّض. سيجعلك الليل تتَفَرَّج على المصابيح التي جعلها الخالق راجِمات للشياطين. ستغرف الأجر كله... ثم إنك ستتعلم باستيقاظك الباكر تجاوز برد الشتاء وحر الصيف.

ينظر "الطفل مومو ح" إلى القمر في تجاهل تام لجدّه، فيتعجب من حجم هذا المصباح الذي يشع ضوء لونه الأبيض. يتمنى الفتى لو سارّ القمر بمعاناته، ويودّ لو استطاعت هذه الدائرة العملاقة البيضاء إضاءة آماله، فيخاطب نفسه:

- يا موموح، سارِر القرص لعله يبادلك المناجاة ويقاسمك البهاء.

يلتفت الجدُّ... راعه أن يرى حفيده يدقق النظر في السماء، يقول معاتبًا:

- ما بالك فاغرًا فاك في الفراغ؟

يرد الفتى المشاكس:

- أو لم تقل لي قبل قليل إن استيقاظ الفجر كان مشهودا، يتيح لي التفرّج على السماء؟ فهل تعلم يا جدي كيف ستصير تاحفورت لو غاب عنها القمر؟

يرد الخبير في شؤون السماء:

- هو بالتأكيد سيغيب بعد حين، سينسحب هاربًا من أشعة الشمس... وسيعود إلى الظهور بعد الغروب.

ما كان جواب الجدّ شافيًا ولا مقنعًا لِ "الطفل مومو ح" الفطين الذي يدفعه عقله للجدال وطرح السؤال. هو متأكد من أن الفقيه لن يجيبه على أسئلته، فرفع عينيه إلى السماء كما رأى أهله يفعلون كلما اشتدّت حيرتهم، يخاطب نفسه:

- أهي تاحفورت وأهلها يفضلون ظلمة لياليها حيث ينشغلون بالنوم ومناجاة القمر، ويعشقون صلاة الفجر، ويخشون النهار وأشعة الشمس الكاشفة التي تفضح كل شيء؟

هو يعلم أن أهله ليسوا كسلاء، لكنه لا يفهم اعتمادهم الكلي على السماء، فيسأل الطفل نفسه مرة أخرى:

- أهي تاحفورت قادرة على صناعة الأجوبة على ما يعتمل في عقلي من أسئلة محيرة، أم أن هنالك عالمًا آخر خلف كل هذه القمم والأخاديد التي تحيط بقريتي؟

ينتبه "الطفل موموح" على مواويل يستحسنها، يا لها من سمفونيات، هي ألحان من خُوار بقرة أمّه ذي النبرة الاحتجاجية، ونهيق حمار "العطّار" النادب لرفقة مفقودة...

يقول الجدُّ بصيغة الأمر:

- موموح، تعوَّذ من الشيطان فإن حمار "العطّار" ينهق عند رُؤيته.

يرد الطفل المشاكس:

- لكن يا جدّ... كيف له أن يراه ونحن لا نراه؟ ثم لماذا ينهق لرؤيته؟

يقول الجد بصرامة الفقيه:

- موموح، أعرض عن هذا، ولا تجادلني فيما لا تعلم.

يرد "الطفل moموح" بنبرة المتأكد مما يقول:
- أنا أسأل لأنني لا أعلم، أتريدني يا جدي ألا أعلم؟!

ينهى الجدّ صراعه مع حفيده، قائلًا:
-"اِنتهى الكلام".

يخرج مع جده إلى المسجد، يُلفي "الطفل موموح" صديقه "جرمون" لدى الباب، يداعبه بحنّية، ويربت على ظهره، ويمسح بيده على شعر رأسه. يبادله الحيوان الوفي نفس الشعور وهو يحرك ذيله.

كان "جَرْمونْ" أبيض اللون لطيفًا، لم يكن كلبًا شرسًا كما هو حال كلاب قرية "إسَافْنْ"، لكنه كان كثير النُّباح ليلًا كباقي أترابِه من حرّاس القرية.

يميل "الطفل موموح" إلى الكلب "جرمون" مَيل المحبين الأوفياء، هو متأكد من أن الحيوان يحبه، ويغفر له تركه وحيدًا بالخارج يواجه لوحده تقلبات الجو.

"جرمون" منبع الاطمئنان عند أفراد عائلة "الطفل موموح"، لا ينام الليل، بل يقضيه حارسًا يواجه كل الحركات والأصوات بنباحه الحاد الذي لا ينقضي.

يصرخ الجدُّ في وجه حفيده:
- لا تدعه يلج إلى داخل المنزل، ستغضب الملائكة لذلك وستغادر.
يرد الحفيد كعادته بتحد:
- عن أي ملائكة تتحدث يا جدّ، أنا لا أرى أحدًا، وليس لدينا ضيوف...

يصعّد الفقيه بصيغة الأمر:

- هيّا... اِغسل يديك عدة مرات بالماء، والأخيرة بالتراب... ثم أعد وضوءك، ولا تلمس الكلب مرة أخرى.

يرد الشقيُّ "مومو ح الطفل":

- أهو التراب أنظف من شعر "جرمون" الناصع البياض؟!

فهم موموح بعد ذلك أسباب غياب الكلاب في محيط منزل جد أمّه الفقيه سي مرزوق. كان الجد الأكبر شديد التديُّن ملتزمًا حد الغُلُوّ... كما أنه لم يكن يملك قطيعًا بتاحفورت.

إذ هما في الطريق إلى المسجد، إذ يقول الحفيد لجدّه:

- إن لسواد الليل لرهبة، وإني أخاف أن يهاجمني "بْرُور"، ويخنقني بجناحيه كما يفعل بالرضّع، هكذا تقول يْمَّا "تْشْفَا".

يقول الجدّ:

- لا تخف يا بني في الظلام، إنما سخره الله لنا لراحتنا، تعاطف مع مجالك تلق الأمان.

يرد "الطفل موموح" متفلسفًا:

- حتى تكون آمنًا، وجب عليك ألا تكون متعاطفًا مع محيطك، فالعقل يقول إنه من المستحيل أن نكون آمنين ومتعاطفين في نفس الوقت.

يقول الجدّ:

- فلماذا أنت متعاطف مع "جرمون" وتطمئن إليه في نفس الوقت؟ يا بني، الأمر ليس قضية أمان وتعاطف، هي قضية إيمان فحسب.

يرد الحفيد:

- أنا لست متعاطفًا مع "جرمون"، أنا أحبه... ثم إنني لا أرى تعارضًا بين حبي لذاتي وخوفي على نفسي واجتهادي في حمايتها، وبين تعاطفي مع "جرمون" وحزني لرؤيته وحيدًا يشتغل لدينا في ظروف قاسية مقابل لا شيء تقريبًا.

كان مبنى المسجد من تراب، لم تكن له صومعة، يرفع الأذان بالصحن الخارجي. حمل الجدّ بلغته حين وصل إلى الصحن الذي يعتبره جزءًا من المسجد.

جلس بردهة المسجد ذات المساحة المحترمة شخصان وقت دخول الجد وحفيده، الإمام، وعابر سبيل قضى الليلة نائمًا بالمكان الأجوف الذي يقف فيه الإمام للصلاة عند المحراب.

كانت الأرضية بداخل المسجد من تراب مغطاة بأحصرة من الحلفاء (أَرْيْ). بدا المنبر الذي رُفع إلى جانب المحراب شامخًا، رغم اصطباغه بفعل تقادم خشبه بسمرة غامقة.

رغم تديُّن أهل القرية الذي سارت بذكره الركبان، أُقيمت صلاة الفجر بحضور أربعة أشخاص فحسب.

عاد الجدُّ مع حفيده من صلاة الفجر. جلس "الطفل مومو ح" إلى الكانون مادًّا رجليه على قطعة من حصير قديم (أسِيطُوطْ)، جاء أخوه عبد الرحمان يفرك عينيه فتخطّاه ليجلس على قطعة خشبية نُشرت من جذعٍ قديم (تْكَايْرْتْ).

يعتبر الكانون إلى جانب قصعة الكسكس عنصرين أساسيين لِلَمِّ شعث العائلة، وضمان انتظام واستمرارية مجالسها. كما يحتل بأثافيه الثلاثة، الحجرية أو الحديدية، الركن المركزي بفضاء

"تادّارتْ" حيث يشتغل الدخان على صباغة الحيطان بتقنية تراكم اللون الأسود الذي يتوسد كل شيء. إنه المنتج الوحيد للدفء بالمنزل.

مد "الطفل" كفيه نحو ألسنة النار التي تبث الدفء في الأوصال وتنثره في المكان. قالت الأم التي جاءت تحمل ما جادت به ضروع بقرتها من اللّبن في "تاقْبُوبْتْ" (إناء من صفائح خشب الجوز مثبتة في الأسفل وبالأعلى برقائق نحاسية، يُحمل بعلّاقة معدنية نصف دائرية مركبة في عروتين)، مخاطبة ولدها عبد الرحمان:

- رأيتك وأنا قادمة تتخطى أخاك الأكبر وهو ممدّد على الحصير، قُم يا بني وأعد عملية التخطي معكوسة حتى لا يحُدّ مرورك الأول من طوله، وقد يبقى قزمًا.

هكذا هم أهل تاحفورت، كل ما هو مجرد خرافة غريبة في البداية لا يلبث أن يصير أمرًا مألوفًا وسائدًا وقد يصبح مقدسًا بعد حين.

ينهض عبد الرحمان وينفذ أمر أمّه... أما "الطفل مومواح" فقد أرخى أذنيه ليشنِّفهما بسنفونيّة صباحية متعددة الأنغام، اِفتتحتها الديكة، وأنهتها قطعان السيد "عازار"، وبقرات العمّ "مُوسى".

يلبس "الطفل مومواح" جلبابه، ويخرج وبيده إناء صغير أبيض اللّون، لم يعد يُستعمل للشرب بسبب ما أصابه من ثقوب. الإناء ليس لعبة، "الطفل مومواح" لا يلعب، لقد خرج في مهمة، هو راح يبحث بجنبات أشجار الزيتون عن حبات قد تكون الريح الليلية قد أسقطتها...

عاد "الطفل مومو ح" يحمل "الغرّاف" الأبيض وقد ملأه بحبات الزيتون، لكنه لم يعد يُحس بِأصابع يديه ورجليه من فرط البرد الصباحي (أَفْلاطْ)، اِحمرّت قمة أنفه، وتجمدت شحمة أُذنيه...

أجلسته أُمُه بالقرب من الكانون، ونصحته بعدم الاقتراب كثيرًا من النار حتى لا تصيبه "تِيرْخْثْ" (حَكَّة مؤلمة ناتجة عن الانتقال السريعِ من البُرودة الشَّديدة الى السُّخونَة المُفرطة).

يدب الدفء في جسمه الصغير، فيعاوده النعاس على جعجعة رحَى أُمّه، وهي تديرها قابضة على "أَسْفْلُو" لطحن الشعير لخبز الغداء و"بَلبُولَة" المساء، ومرافقة دوران الرحى بحركات نصفها العلوي، وبدندناتها، وترديداتها الشجية.

لم يكن اليوم يوم مدرسة، فكان على "الطفل مومو ح" أن يلعب لعبة أخرى، كان عليه أن يُوصل البقرة إلى حيث مرعاها ثم يعود، إنها مأمورية ستعلّمه كيف يصير رجلًا قبل الأوان.

يتذكّر "الطفل مومو ح" جيدًا تفاصيل الطريق إلى "بوفْروخْ" حيث يجب عليه أن يترك البقرة، فيسرع خطى عودته حتى يخفّف من وطأة الخوف عليه... ولا يعود إليه الاطمئنان إلا بعد تجاوزه لصفائحِ وادي "بوفروخ" الرمادية، واحتضانه من طرف جذوع أشجار الزيتون...

يقضي "الطفل مومو ح" يومه عند عمّ أمّه "لمعلّم امحند الحداد" بورشة الحدادة، حيث يقدم المساعدة بالاشتغال على النفخ في "الكير"، أو يستمتع بالاستماع إلى دندنات "لمعلّم" التي ترافق الطرقات وصوت المبرد، وحكاياته الغريبة والجميلة.

تضرع الشمس، وينزل الظلام على تاحفورت، فيتسلل الخوف إلى نفس "الطفل مومو‌ح"، يلتصق بتلابيب أمّه وهي تحكم ربط البقرة، وتراقب وجود العنزات ب"تَادْرَاتْ" وصغارها ب"إسْدِّيِيْنْ".

لا يمنعه خوفه من حلول الليل من التعجب من ثبات الدجاجات فوق الأحطاب نائمة دون أن تسقط، يسأل أمَّه عن حقيقة نوم الدجاجات:

- (مَا جْنِينْتْ ثْيَازِيطِينْ أَيْمَّا؟) هل نامت الدجاجات؟

تنهره مؤكدة أن الكل نام إلا هو، فيرد "الطفل مومو‌ح" قائلًا:

- أُنظري إلى التّيس، إنه لم ينم بعد...

ثم يسأل أُمّه مرة أُخرى عن سبب إِطلاق التّيس لنَبيب مزعج محاولًا ركوب إِحدى العنزات ولا يدعها تنام... يكسّر "الطفل مومو‌ح" سكوت أُمّه ممعنًا في السؤال:

- لماذا يحبّ التّيس اللعب في الظلام؟

طفح الكيل... فأخذت الأُم يد صغيرها وجرجرته خارج "تَادْرَاتَّ"... اِستسلم "الطفل" دون احتجاج خوفًا من أن تصفعه أُمّه كما فعلت من قبل حين سألها ببراءة عن ماهية ما سمع أصدقاءه يتداولونه عن الأَخوين "حمُّو لْحرايْمي" و"حمّو قْرشال".

إنه النظام المحافظ الذي يرعى الطابوهات، والعادات والتقاليد، والمبادئ الاجتماعية الموروثة.

تُنشَر المائدة لتناول وجبة العشاء... "أَنْدُو"، وعليه صحن أبيض اللون، به بقَع سوداء بفعل اصطدامه بأواني أخرى.

تُفرَغ البلبولة بالصحن من "مَاذُونْ" ("كسكاس" من مواد نباتيّة)، وتُسقى بشبه مرق من ماء به ملح وزيت غلى حتى جاش بقوة في قدر خاصة ذات فوهة مقاسها مطابق لمحيط قعر "مَاذُونْ" تُسمى "البَرْمَة"... هي سوداء على الدوام بفعل الدخان رغم إزاحتها لِ "أَيْذُور" أَوْ "أَقْنُوشْ" من تراتبيّة أَواني الكانون عند أَهل "الطفل مومَوح"...

يأكل "الطفل مومَوح" بيديه ويشتكي من سخونة الوجبة، وكيف له أن يستعمل الملعقة المعدنية وهو لا يعرفها؟ ثمّ إنها رفاهية تفسد البركة وبدعة تذهِب سحر البلبولة اللذيذ...

يلتهم "الطفل مومَوح" اللّقم بعد تكويرها بالضغط عليها بداخل يده "يْسّْلُولُوبْ"، حتى إذا انتهى لحس ما علق بأصابعه ومسح يديه بتلابيب فستان والدته. ثمّ يتوسد فخد أُمّه التي لم تنته بعد من الأكل.

خلال مغالبته للخوف وللنوم، يستمع إلى سنفونية عجيبة هي خليط من نقيعِ الضفادع، وعواء الذئب، ونباح متردد لكلاب القرية...

يدقق مومَوح في عمق ذاكرته فيرى "الطفل" يدعوه إلى النظر جهة حظيرة الماعز (تادْرَاتْ)، ويسأله هل ما زال يتذكر كيف كان السكون يُخيم عادة على زرائب تاحفورت بعد انقطاع ثغاء الماعز، وخوَار الأبقار، وقد ابتعدت في لهفة في اتجاه المراعي الجبلية، فيحل الهدوء بأرجاء القرية التي تبدو كأنها لا تملك شيئًا؟

ثم يسأله هل نسي حادثة استيقاظه ذات صباح في عجلة من أمره ومغادرته الغرفة مفزوعًا منزعجًا؟

تيس وعنزة ضرّهما أن يُعزَلا عن القطيع وألا يرافقاه، فانخرطا في ثُغاء متواصل حدّ التوسل... ثغاء أزعج الطفل وأفزعه.

وكمن اشتد به الخوف صار زوجُ الماعز يُبعبِع بأصوات مبهمة، يكاد الطفل يتضامن مع ما تحمله من استعطاف.

فهم الطفل مومو ح أن "لا جدوى من البكاء عن اللبن المسكوب"، فقد اختار الجدُّ الأضحيتين، وانتهى الأمر، و"وقعت الفأسُ في الرأس".

وقف الجدُّ عند باب "تَاذْراثْ" يوزع نظراته بين حفيده وبين القرابين، فقال مخاطبًا موموح بثبات المؤمن المتشبث بقناعاته:

-"يا بُنيّ، أتُراك تشفق على التيس أكثر مما يحنُّ خليل الله إبراهيم على فلذة كبده إسماعيل؟ أم أنك تركن إلى هوى نفسك وإلى العطف على الحيوان ولا تستسلم كما فعل سيدنا إبراهيم لما رأى في المنام أنه يذبح ابنه في سبيل الله؟

هب الطفل موموح الذي لم يفهم معنى "في سبيلِ الله" من غفوة سرَحانه على وقع خطى جدّه ينصرف إلى المُصلّى لأداء صلاة العيد...

طبعًا، يقول الطفل موموح، لم نكن في مستوى الصراع الذي نشب في نفسنا، صراعٌ بين ما هو أهْوَن علينا وأطيب لروحنا وبين ما لا يجيزه عقلنا الصغير.

ذُبح التيس وسُلخت العنزة، كان السلخ أهوَن علينا من الذبح، و"هل يضرُّ الشّاة سلخُها بعد ذبحها؟" كما تقول العرب...

لعبَ الطفل، المكسور الخاطر، على جنبات الساقية مع أقرانه ببقايا مصارين العنزة... ولم ينته من ذلك إلا على صوت أمِّه تطلبه لتضع على رأسه رقيقة من الشحم المستخرج من التيس، منبهة إياه ألا يتحرك حتى تيبس القطعة، أمرٌ لها فيه مآرب أخرى...

مرّ كبار القرية، رجالها ونساؤها، على منزلنا مهنئين بالعيد وقوفًا مستفسرين عن جودة القربان، ومراقبين لحمه وشحمه.

باكيّين من شدة الفرح، ننطلق مُلتحفين ظلال الزيتون مقتنعين بأن الثبات على الموقف يمر عبر الإيمان والصبر... الصبر على تبعات الصعود والخوف.

الطفل مومو لا يعرف إبراهيم، وليس بالقرية رجل أو طفل يحمل هذا الاسم... وضعُ الطفل لا يسمح له باستيعاب انقياد إبراهيم لأَمر خطير، وبفهم دلالة إخضاعه لامتحان عسير، ولا يخال جدّه يفهم ذلك. لكنه يعرف إسماعيل... أو خالَه "سِي اسْماعْل" الذي جاء إلى العالم بإعاقة مستديمة، فرضت عليه استعمال عكاز.

"آيْتْ اسْمَاعْلْ"... هو اسم أهل مومو، اِسمٌ فرض على الفتى مقارنة عجيبة جعلته يتمنى لو يسمع الرب صوت شقاء أَهله كما سمع نداء إبراهيم، وينقذهم كما أنقذ إسماعيل.

يستعد مومو لمغادرة أطلال منزل أهله، يرتفع رجع الصدى في أذنيه ليفرض عليه الإنصات إلى الطفل الذي كانه وهو يحدثه:

- لم تُكمل الحج بعد، عليك بالطواف والمرور بالجهة الشرقية، أم أنك لا زلت تائهًا لم تختر بعد بين (آيت تْرݣا) أهل الساقية حيث مال العقل، وبين (آيت وْغْزْر) أهل الوادي حيث تغذى

القلب من حب جدّتك الكبرى؟ آه، نسيت... أنت تتفادى المرور من هناك لأن الخوف من فيضان الوادي ما زال يسكنك؟

يتذكّر مومو ح فوبياه القديمة التي أصابته في ذلك اليوم المشؤوم، يوم اسوَدّ السقف من فوق تاحفورت، وصارت السماء في لبـد كثيف، فكان كل ما يدبُّ فوق الأرض في اضطراب شديد.

اِلتحقت الدجاجات قبل موعدها المعتاد ب "أَرْكينْ" الأَحطاب، وأرخى "جرمون" ذيله وبدا فاقدًا كل ربط مع محيطه المباشر.

صارت أم موموح ونساء العائلة يمشين ويجئن في اضطراب ملحوظ.

لم يكن الطفل موموح، رغم ذكاء طفولي متقد، ليفهم أسباب هذه الاستنفارات شبه الحربية، وما كان ليعي خطورة الوضع الذي سيقوم بعد حين.

صار الطفل الخوِّيف مُشوش الفكر خائر النفس، فآوى إلى ركن بجانب الكانون، وافترش بقايا حصير قديم تآكلت أطرافه، وتوسد شِوالًا من الخيش على الأرض به شعيرٌ، وعليه أجلال البغلة "تْرَاطِيبْ" إلى جانب بردعتها.

يقفز الطفل موموح مرعوبًا من شدة قوة الهزيم، ويرتد بصره خاسئًا من لمعان برق شطر السماء نصفين، ولم يُقلل من روعه سوى وضع أحدهم لحصير فوق الكُوة الوسطى لسقف (تَادَّارْتْ) "تَانْـفيسْرَا".

لم يكن دويُّ الرعد رؤوفًا بقلب الطفل الذي أحس بحزازة عميقة كما ردة الفعل تجاه الصوت المرعب لأجنحة الحجل عند إقلاعها المفاجئ.

هدأت العاصفة مع دخول الليل إلى تاحفورت والتحاق الرجال بالبيت تحسُّبًا لأيِ "تسونامي" قادم من الشعاب الجبلية، لِيُكوِّن اللقاء حمولة تُخرج النهر عن مجراه يصير فيضانًا يعزل الدُور بالسفح.

اِستيقظ الطفل موموح في ذراعي أمه وهي داخلة به إلى بيت جارتها الموجود خارج مُتناول الفيضان الذي أتى على ورشة الحدادة، وغمرت مياهه جزءًا كبيرًا من المنزل.

راجع الطفل المشاغب موموح قائلًا:

- آه، حتى لا أنسى... خوفك من الماء لا يفسره الفيضان وحده، هي فوبيا أُصبتَ بها بسبب غياب القناطر على وديان قرى الأعالي، ما جعلك تكره الماء والبحر... فلم تتعلم السباحة.

أنسيت يوم جلسنا تحت ظل الزيتونة المحاذية للباب الخارجي، وصرنا نتابع باهتمام خروج إحدى دجاجات أُمنا من شَوْنة التبن ب "السَّنْداسْ" وهي تشق الطريق أمام صيصانها في حنية رائعة ويقظة شديدة؟

كُميتٌ لونُها... أما الصغار فكانوا باصفرار يحكمه شبهان موحَّد الكمال، منفوشة الريش تصير أكثر حجمًا لتخيف كل ما يدبُّ في محيط الصِّيصان. تمشي مشية الدلع دون عجرفة وكأنها تبحث عن شيء ضاع منها، تُصدِر أصواتًا تنادي من خلالها على كل صوص تأخر عن الركب.

هل تذكُر كيف كانت الدجاجة تتقدم ب "قطيعها" الصغير في اتجاه المطارح الخاصة بفضلات البهائم، حيث الديدان والحشرات؟ فكان عليها أن تعبُر الساقية حتى تبلغ وجهتها... هو تمرين لا يخلُو من خطورة بالنسبة للصغار، فتراها تبحث عن النقطة الأقل عمقًا والأضعف صبيبًا بالساقية لتأمين عبور سالم لفراخها.

أنسيتَ كيف وقفنا مذعورين؟ ليس من خوفنا على "الفلاليس" فحسب، لكن الموقف أيقظ عندنا فوبيا جعلتنا في مواجهة خوفنا من الماء.

تفور الأسئلة... فيخاطب مومو ح نفسه من خلال معاتبة قريته... أأنت أرض الخوف يا تاحفورت؟ أأنت من صنعت مومو ح الخوِّيف الذي يرهبه المكان، والزمان، والماء؟ أهو الخوف كحقيقة وواقع تُنتجه عناصر الطبيعة فيصيب الطفولة؟ أم هي لعبة تحدي الخوف تفرضها العائلة، والقبيلة لصناعة الرجل الملائم لمحيط تاحفورت؟ أم هو غياب التجهيزات الخدماتية الذي يجعل قرى الأعالي معزولة عن العالم الخارجي فيصير أطفالها قلقين خوِّيفين؟

فهم مومو ح كيف صار الخوف أستاذَه بتعيين من القبيلة، حين جعله لا يقوى على مساعدة صيصان أُمه على عبور الساقية.

مرة أخرى، وهو يستعد للانصراف، ينبهه الطفل المشاغب بأن حجه ناقص إن لم يلق نظرة تفقدية على بداية السفح المحاذي لديار أهله (تسطار)...

هز مومو ح رأسه، فهم إمعان المشاغب في تذكيره بمعاناته... إنه يذكّره حتى لا ينسى.

يتذكر مومو ح عودته من "بوفروخ" وقد أوصل بقرة أسرته إلى مرعاها... سريع الخطى في عدو فاق الهرولة، كما البغلة عائدة من السوق في اتّجاه مربطها، كذلك يرجع مومو ح من مهمته بِـ "بُوفْرُوخْ" هاربًا من خوفه، والشمس تحاول في كسل ملحوظ مغالبة ارتفاع الجبل الشرقي. كان يحب تلك الصباحات الجميلة ذات

الصحو. ينتظر بعد عودته، كما أهل القرية قاطبة، بشغف قدوم الشمس بما تحمله من دفء ليملأوا قلوبهم بأشعتها، فتراه وأُمَّه يصعدان إلى "تِسْطارْ" الدرجة الأولى من الواجهة الجبلية حيث نقطة الالتقاء مع الأشعة الأولى.

لم يأت مومو ح مع أُمّه ليتدفأ فقط بل يتوسّد فخدها ويصير في حالة استرخاء وسعادة من جراء مداعبة أنامل أُمّه وهي تُفلّي رأسه التي لم تتصوْبن منذ وقت غير يسير.

صئِبتْ رأس مومو ح حتى صارت الصّئْبان كاللَّآلِئِ المتحبّبة من جليد "بُويْبْلَانَ" أو كجُمانات الصقيع فوق وريقات نبات "تاقْزِينْتْ" على جنبات ملعب "تَاشُورْتْ" بِتاحفُورتْ... لامعة تبدو الحبات الفضية وهي ملتصقة بالشعيرات السوداء كالنجوم تضيئ وجه الظلام.

ينتقل مومو ح وأُمُّه في الفترة ما بعد الزوال إلى الواجهة الأخرى من الجبل المقابل حيث تنسحب الشمس فَيُسابِقان الظِّلَّ الآتي من أسفل السفح، فتُخضِع الأم الجانب الآخَ من رأس مومو ح لعملية تنقية قمَل استعمر حتى باض.

تنتهي الأمُّ من رأس مومو ح فتنتقل إلى قميصه "تَاكْذْوَارْتْ" فتراها تبحث عن الحشرات بين الثنايا الداخلية لثوب اسودّ عنقه من تراكمات العرق، وتبدأ عملية القصع بِ "مَعْسِ" كل المقبوضِ عليها من القملات بظاهر ابهميها...

يتذكر مومو ح جيِّدًا تقنية جدّته لقتل القمّل والتي تعتمد على استعمال أدوات أُكلة "أَحْلاَوْ": "ضْزِيوَا" و"تَاغْنْجَاشْتْ"، وهي منتوجات محلية من مادة الخشب.

بغض النظر عن طبيعة هذه الأدوات ووجودها بالمتناول، وفعاليتها في عملية قصع القمّل، فإن اللجوء إليها وإلى غيرها من الأساليب الأخرى المستعملة عند أهالي قُرى الأعالي، كنفض الملابس فوق النار، يلبّي رغبة النفس في الاستمتاع بالاستماع إلى "طرْطَقاتٍ" كأصوات الشهب الاصطناعية، وفي التأكد من أن الحشرات قد قضيّ عليها نهائيًا رغم العلم بحتمية رجوعها... كيف لا، وموموح متأَكد من أنها منه وإليه.

13

حل طَفَلُ العشِيّ، واصفرت الشمس وهي تودع قمة جبل "تايْلْمَامْتْ"، فقال "الطفل موموح":

- سنكتفي بهذا القدر على أمل اللقاء بك غدًا لنُكمل الحكاية.

سكت "الطفل موموح" القادم من أساطير الطفولة، ما عاد موموح يسمع الصوت الذي بداخله، فأفاق من غشيته التي أخذته إلى ما بعد التفكير. لم يستطع النهوض من فوق الصفاة، تمنى فقط لو انفتح الباب الذي في خاطره ليلج الدار، ويتوسد الفراغ، وينام.

حل الظلام حين بدأ الليل ينزل بأجنحته على تاحفورت، فتمنى موموح لو لم تغب الشمس، أخذ يناجي الليل ويخاطبه لعل الأمر يخفف عنه غشاوة الظلمة:

- أيها الليل... أنت لا شيء، أنت مزيف لا شكل لك، لو لم تكن الأرض كروية الشكل لما كنت أَيها الليل... أنت مجرد شمس هاربة، أنت محنة ترفض التفكير، أنت الخوف الذي يسكن تاحفورت، هدوؤك يزعجني.

مناجيًا ثوران الشفق تذكر مومرح موعده مع "عصّو"، لم يسمع أذان العشاء، لقد مر عليه وقت غير يسير. نظر إلى مكان الأحطاب (إركْنَانْ) حيث كانت دجاجات أمه تنام واقفة... لا شيء هناك، إنه الفراغ، إنه اللّا شيء...

يا لعشوائية هذا الوجود التي تفضح فراغ الروح... فراغ روحك حين تنهزم فلا تستطيع أن تستوعب، وتتأثر منصتًا إلى "الطفل مومرح" يحكي، فراغ روحك وقد قبلت بأن يصير المكان الذي يختزن صدى صرختك الأولى لا شيء.

كيف تنهزم يا من يحسب نفسه حصاة من هذا الجبل؟ حصاة صقلتها مياه تاحفورت لتصير رجلًا قبل الأوان؟! كيف تسمح بأن يصير هذا المكان فراغًا يا سليل أهل تشكيل الحديد الذين صنعوا أدوات الحياة؟

مومرح لا يجد الأجوبة لأسئلته... هو يسمع فقط تضرع التراب شاكيًا مَن عقَّه من الورثة إلى رب الأرض والسماء.

نهض زائر الفراغ منصرفًا ليلتحق بمنزل مضيفه "عصّو".

يمشي مومرح عكس الهواء الذي حرره انسحاب أشعة الشمس من قيود أغصان أشجار الزيتون، فأحس بلفحات النسيم تنعش روحه التي اتخذت، اِضطرارًا، النسيان هوية.

على طريق المسجد، ألفى مومرح السيد "عصّو" يرافقه شخصان. ألقى التحية:

- "أزول فلّاون".

ردّ الثلاثي ب "وعليكم السلام".

قدم "عصّو" ضيفه لصديقيه وهو يسألهما:

- أتعرفان موموح نّْغْ؟

رد أحدهما:

- موموحاتنا كثيرون، فمن يكون ضيفك الغريب؟

أسرها موموح في نفسه، رغم أن "عصّو" حاول إنقاذ الموقف موضحًا:

- هل تتذكّران ابن أهل الحديد الذي صار رجلًا قبل الأوان فركب حافلة حمّادي، وترك هنا طفولته عند "الطفل موموح"؟

قال أحدهما:

- ما به ذاك الذي خان طفولته، ونسيها بين سقط متاعه الذي تركه هنا؟ لا تقل لي إنه ضيفك الماثل أمامنا.

قال "الغريب" وهو يداري حرجه:

- نعم، أنا موموح، لكنني لم أكن خائنًا، أنا هاجرت للمساهمة في تحقيق الخير العام.

قال أحدهما:

- بل إنك ضحيت بإنسانيتك من أجل شيء يسمى الترقية الاجتماعية. مبتغى ضخّمه الطمع، فلما تمخض ولد فأرًا، فجعلك تنام هناك فوق مجاري الصرف غير الصحي.

أحس "عصّو" بسخونة الحوار في تصاعد، فقاطع الجميع ليعتذر عن عدم تقديم صديقيه "قْسُّو" و"سّي رحُّو" لموموح وليسأل الأخير هل أدى صلاة العشاء أم ليس بعد.

قال مومِوح:

- نعم لقد صليت فوق الصفاة التي كانت أمي تضع عليها قربة الماء (أَيْدِّيدْ).

قال "سي رحّو":

- كيف تصلي على الصفاة والمسجد قريب منك؟!

رد موموح موضحًا:

- جلست فوق الصفاة أمام أطلال منزلنا القديم، أحست نفسي بحاجتها إلى الراحة، بحثت في الصلاة فوق الصفاة عن الطمأنينة والعزاء لقلبي. هو صحيح أن فضل الصلاة مع الجماعة بالمسجد أهم وأرقى، لكنني، بالمناسبة، أرى أن الدين ليس بالضرورة في المسجد فحسب، الدين هو كذلك وقبل ذلك في العمل، هو في السلوك وفي السوق. الاستقامة على أمر الله واجبة في كل مكان وزمان.

تحرك الجميع بإيعاز من "عصّو" في اتجاه منزل الضيافة.

كما يخوله اسمه المقرون بسين الاحترام الواجب لحامل كتاب الله، جلس "السِّي رحُّو"، إمام المسجد، في صدر البيت كأنه سيترأس مجلسًا، ثم طفق يشكر المضيف ويدعو له، فيما انخرط "قسُّو" في ترديد لازمة آمين.

كان "سي رحُّو" نظيف المظهر والملبس، توحي ملامح وجهه بشيء آخر غير طبيعي، يخفي أسراره، وخبايا شخصيته الحقيقية... كان شابًّا دون الأربعين، اِنزعج موموح لذلك، ألف أن يرى الأئمة الذين تعاقبوا على إمامة مسجد تاحفورت خلال طفولته وهم في سن تجاوزت الستين.

اِفتتح "سي رحّو"، كما جرت العادة بذلك، موعظته الدينية التي اختار لها موضوع بركة كتاب الله، دون أن ينسى التذكير بواجبات المؤمن، والدعوة إلى السيرة الصالحة. تحدث "السّي رحّو" عن كتاب الله باحترام شديد، ولا يسع المرء إلا أن يحترم عمق إيمان أهل موموح.

أنصت موموح إلى موعظة "سِّي رحّو"، فتذكر جده "سي مرزوق" واستحضر ما كان يتمتع به الجد الأكبر من جاذبية ساحرة، وكاريزما فطرية، وهدوء يسحر قبل كلامه المؤثر، دون أن ينسى عصاه الطويلة ذات السبعة أذرع أو يزيد (أقْرَقَابْ) التي كانت تطال المشوشين من (إِيمْحطرنْ) بآخر صفٍّ بالصحن. "لا مقارنة مع وجود الفارق" بين تمكن كبير فقهاء تاحفورت، وقدرته على الاستنباط واستخراج ما يلائم قضايا الناس من الدين، وبين أسلوب "سِّي رحُّو" الذي يعتمد فقط على ما علق بذهنه من النقل، وبعض "التراث"، واستظهاره أمام الناس فلا يفهمونه، بل يحسبونه أمرًا غريبًا عن بيئتهم.

أنهى "سي رحّو" موعظته التي ألقاها بلغة عربية فصحى سليمة، عم السكوت لدقائق قبل أن يدخل "عصّو" وهو يحمل أدوات صناعة الشاي ليضعها أمام الفقيه، الذي فاجأته الصينية النحاسية ليعلق على الأمر مخاطبًا "عصُّو":

- ظننتك تحمل إلينا طاس غسل اليدين لنتعشّى.

قال موموح الذي كان ينتظر فرصة مخاطبة الفقيه:

- أهو جدول أعمال سهرتنا هذه يتضمن نقطة واحدة، أنهيتها بانتهاء موعظتك؟

ضحك "قسُّو" مقهقهًا، وممعنًا في معاكسة الإمام قائلًا:
- ذاك هو حال الفقهاء، يعظون... ثم يمتعضون من تأخر العشاء.
ضحك الجميع قبل أن يتدخل "عصُّو"، الذي وقف ليفرغ الماء المغلى بالبراد من المقراج، ليغير الموضوع موجهًا سؤاله لموموح:
- كيف وجدت تاحفورت بعد طول غيابك هناك حيث الزحام؟

رد موموح وقد فاجأه السؤال:
- الهواء الطلق بتاحفورتْ وحده يوفر، في كل الأحوال، ظروف تحقيق الذات خارج الزحام.

قال الفقيه "سي رحّو":
- الأصعب هو أن التوافق داخل الزحام يفرض النظام...

يضع "عصُّو" البراد فوق المِجمر، ثم يقول:
- الزحام والنظام يسلبانك حريتك...

رد موموح على الاثنين قائلًا:
- الحرية لا تعني الفوضى... هو صحيح أن بعض مظاهر "السيبة" ما تزال قائمة رغم التطور الملحوظ، لكن مظاهر الخضوع للقانون مقابل الانتفاع بالحرية انتشرت على نطاق واسع.

قال "عصّو" معبرًا عن عدم موافقته:
- يقال "سيِّبْ تْكْسْبْ"، ثم إن تسييب الأغنام من شأنه أن يجعلها ترعى كما شاءت، وتلك لعمري هي أرقى درجات الحرية. فماذا لو كبلنا طاقات الغنم؟
رد موموح بصيغة الواثق مما يقول:

- ماذا لو تركت أبقارك حرة لترعى الذرة البعلية القاتلة (أَبْعلِي)؟ ثمّ إنك تضرب لنا مثلًا بأنعامك، فهل يستوي الإنسان والحيوان؟ إنه أمر لا يستقيم.

تدخل "سّي رحُّو" ليرفع الموضوع إلى ما فوق السحاب ويقول:

- أبقارنا حرة ترعى... و"لن يصيب(ه)ا إلا ما كتب الله ل(ه)ا".

قال مومْوح متعجبًا:

- أوَلم تصلك أخبار أبقار تاحفورت التي قتلتها ذرة حقول "سي لْحسَايْنْ"، وتلك التي قتلها النمر ب "لْحوَاطْ"؟!

قال الفقيه مجادلًا:

- لقد كتب لها الله أن تموت أو تُقتل... وكذلك كان.

يرفع مومْوح مستوى الحوار، فيسأل عمن هو صاحب الفعل إذًا؟ أهي الأبقار، أو هم أصحابها، أهو النمر، أم هي إدارة المياه والغابات؟

يرد "سي رحُّو" الفقيه:

- لقد خلق الإنسان ضعيفًا، لذلك عليه أن يترك أبقاره حرة ويتوكل... ثم إن الفرد في نسق قبيلتنا يخضع بسبب ضعفه لما ترغب فيه "الجّْماعة" من خلال قيم الدين، ونظام الأعراف.

يؤكد مومْوح بأن أهل تاحفورت ما كان لهم أن يتهاونوا في حق أبقارهم، حين غامروا بتركها ترعى الذرة القاتلة، وتقضي الليل ب "لحواط" بعيدًا عن مرابضها. لقد قصّروا في أمر أبقارهم حين أخلُّوا بالتزامهم بحمايتها.

يرد الفقيه قائلًا:
- أفهم من كلامك أن الإنسان حر في أن يختار... أليس كذلك؟
- بالضبط، هو كذلك. يجيب موموح.

يتدخل "قسّو" ليعبر عن امتعاضه من محتوى الحوار، وليدلي بدلوه رغم أن "سي رحّو" الفقيه لن يولي لرأي صديقه "قسّو" أي اهتمام لكونه "قُبّانِيًا" لم يسبق له أن درس بالمسجد قط... قال قسّو":
- أنتم كمن يضرب في حديد بارد، أولم يولد الإنسان حرًّا قبل وجود "القايْد" وحارس الغابات؟

قال موموح منتشيًا بمنطق تدخله:
- "القايْد" وحارس الغابات جاءا لحمايتنا من تجاوزاتنا باسم حريتنا.
قال الفقيه متهكمًا وهو يخاطب موموح :
- هل تظن أن حارس الغابات كان مسؤولًا حين استقدم صغار النمر، لتستوطن غابات ترتادها أنعام القرية، دون إخبار الأهالي؟

أعلن "عصُّو" مقاطعًا الحوار عن إقامة المائدة. غسل المدعوون أيديهم بالطّاس، وجيء بصحن من الفخار المزين برسم طائر الطاووس بلون ذهبي على خلفية زرقاء غامقة... به دجاجتان تغطيهما رقاقات البطاطس المقلية.

قال "عصّو": بسم الله، معلنًا عن بداية الأكل، ووزع قطع الخبز على أطراف الطاولة، فعمّ السكوت الغرفة إلا من صرير الأضراس الطاحنة. لم يجرؤ أحد على متابعة الحوار، كيف يكون ذلك والهدف الوحيد من الضيافة هو اقتسام الطعام؟

رفعت المائدة، وجيء بصينية الشاي مرة أخرى ليصر "عصّو" على بداية السهرة واسترجاع الحوار، قال مخاطبًا مومو ح:

- ما عادت أمازيغيتك الفصحى فارقًا بين الزمان والمكان، ولن تجعل منك أمازيغيًا متميزًا، لا أظن أن ذلك يكفي.

رد موموح مفتخرًا:

- قد يكون... ولكنني أنتمي إلى الجيل الذهبي الذي رافق مرحلة الصعوبات، وفهم الأبعاد المتعددة للسهل الممتنع... وذلك يكفيني.

قال "عصّو" متهِمًا:

- أيّ جيل ذهبي؟ أتقصد الجيل الذي تنازل ونزل... واستفاد من مجانية الانطلاقات وتسهيلات البدايات. من المؤكد أنك تقصد الجيل الذي زوّر التاريخ، وساهم في صناعة الفساد وطوّر تقنيات البحث عن السهل الممنوع.

رد موموح قائلًا:

- ما عاد صعبًا عليك التنقل إلى حيث تشاء، والتواصل مع من تشاء، وقت تشاء... أما حريتك ففاضت حتى غطت كل المساحات، وجلستَ إلى الفقهاء وأنت راعي الغنم، وحررك جيلي من سخرة "رَبْعِيَّام"... بل كل الأيام.

لم يصبر الفقيه "سّي رحُّو" الذي كان ينصت بإمعان، فتدخل قائلًا:

- ذلك فضل من ربنا سخره لنا... أما جيلك فما له علينا من فضل سوى أنه صيرنا مستهلكين كسالى.

رد موموح بصيغة النفي:
- بل أنا الجيل الحطب الذي استدفأتم به... إن كنتم قد صرتم عبيدًا مستهلكين، فلأنكم قبلتم بأن تصيروا أشياء متحركة لا تفكر.

قال "عصُّو" مستنكرًا:
- عن أَي دفء تتحدث يا هذا؟ بل هي نار جيلك شبت كما في الهشيم. سافرت إلى السراب وعدت، فما جدوى الهجرة إن لم يتغير الإنسان؟

اِستفسر موموح "عصّو" عن أي هجرة يتحدث، مؤكدًا له أن الأمر بالكاد يكون سفرًا فرض عليه، ولم يختره لأنه كان متعلقًا بالأحجار التي سقطت عليها رأسه بتاحفورت.

تدخل "سي رحُّو" ليواجه موموح بهروبه من صعوبة الحياة بأخاديد تاحفورت، وذهابه للبحث عن السهل الممنوع، وليصارحه بشكه في تعلقه بتاحفورت.

قال موموح مستنكرًا:
- من منا اختار السهل؟ أأنا الذي ركبت حافلة حمادي مضطرًّا، أم أنت الذي بقيت واخترت إعادة إنتاج النموذج السائد منذ استنبات العُشّة الأولى "بتانْشْرَرامْثْ"، وبناء باكورة الخيام ب"أكْرطوط"؟ أنا ذهبت طلبًا لحرية إعمال عقلي حين تأكدت أن أهلي خضعوا للخوف الرهيب الذي فرضته عليهم الجغرافيا، فصنعوا لأنفسهم حماة من نسج خيالهم.

قال "سي رحُّو":
- قولك لا يستقيم يا موموح، أهل تاحفورت شديدو التدين، فعن أي حماة تتحدث؟

رد مومو‌ح مبتسمًا:

- أنت ما زلت تتبع ذنب أمور فائتة خرافية، وترتبط بها روحيًا رغم فقاهتك في الدين. أنسيت "أزرُو نْ تْسْلِيتّْ" أو صخرة العروس، "لَلَّا مُولْ تَاقَّا" أو السيدة صاحِبة شجرة التَّنُّوب (Sapin)، "تْرْكَو" أو الغُولة التي حكمت عالم االطفولة باسم الخرافة؟ ثم إن لائحة أولياء نسق القرية طويلة: سيدي بوقنادْلْ، سيدي أحمد، مولاي عبد القادر... هي طوطمات سيطرت على أهل تاحفورت، رغم تدينهم الشديد. أليس كذلك؟

اِشتد الصراع حين رد "سي رحُّو" بأن فقهاء تاحفورت يتقنون نشيد السماء، ويتلذذون بترديده، ولا يؤمنون بالخرافة... لكن موموح قارع الفكرة بفكرة أخرى حين قال إنهم فعلًا يتقنون لغة السماء ويحفظونها عن ظهر قلب، لكنهم لا يفهمونها. ثم إن الطوطمات التي ذكرها هي رموز حقيقية خضع لها أهل تاحفورت وقدسوها، إنه شاهد على ذلك.

قال "سّي رحُّو" محاولًا دحض أقوال موموح:

- اِسمع أيها السيد موموح، لا أدري من أين أتيت بالأخبار التي تحكيها، ولكنها مجرد إشاعات. طوطمية تاحفورت مجرد خرافة، أهلنا كانوا شديدي التديّن، والمسجد دلالة القرية والبياض الذي ينير وحشتها...

رد موموح بأن البياض الدال هو المدرسة ونصاعة "إِبْلَان" أبيه... أما المسجد فهو أكبر من كل شيء، إنه الفضاء كله، حيث نتعبّد ونشتغل ضد الرداءة والفساد.

لم يقتنع "سي رحُّو" فرد قائلًا:
- أما المدرسة فأُغلِقت، وأبوك "إبْلَانُ" تذيبه الشمس كلما حل الصيف، وأما الصحن حيث فاضت عيناك لسماعِ نشيد السماء فما زال قائمًا.

هو صحيح يقول مومو ح، لكنه ما نسي، يوم بحث بالجنبات فما وجد سوى مُسلَّمات من صنع "لَالَّا جْبْرَايْنْ"، وخرافات من نسج "لَالَّا مُولْ تَاقَّا" صديقتي أُم موموح... وطلب من "سي رحُّو" ألا يزايد عليه، فهو يُخضع كل شيء للبحث والتقصي في بناء اعتقاده.

لم يكن "سي رحُّو" هيّن المأخذ، كان يقارع الحجة بالحجة... رد الفقيه على موموح بأنه لا يفهم أسباب إصدار الحكم بالإفراغ على جده الذي قال عنه إنه ما زال يسكنه... لكن موموح يرد قائلًا:
- بل إني أسلك نهج اليقين حتى أَجد ضالتي... وما طريقي على النفاق السهل المريح.

يتدخل "قسّو" ليسأل إن كانت تاحفورت هي طريق النفاق، وإن كان موموح يعتبر أن جده كان يلعب على الحبال كلها.

رفع موموح عينيه، وصار يدقق كأنه يقرأ على ألواح السقف، ثم قال إنه صحيح كون جده كان يأكل على كل الموائد ولا يختنق، ولكنه لم يكن منافقًا أو شعبويًا، كل ما في الأمر أنه حين يكون هناك عنصران متناقضان، يبحث الجد عن الحقيقة في الوسط... هو كان وسطيًا. كان "المرجع الأعلى" يُفتي في كل شيء له علاقة بالفقه و"بالعلوم الطبية"... يُطل بوجهِه الزيَّان الذي يحمل لحية كاملة لفعها الشّيب فصارت تُضفي على الشخص الوقار والجدية، فيسعد موموح بهذا الحضور الممزوج بحنية الجَدّ وصرامة الفقيه المربّي.

يدخل "عصّو" على الخط ليواجه مومـوح ويسأله عن أسباب غيابه الطويل عن تاحفورت، وعن موقفه من جده، رغم وسطيته، وعن كونه صار من الناسين.

يرد موموح قائلًا:

- أنا ما نسيت... بل تفيض عيناي كلما تذكرت بقايا نباح صديقي "جَرمُونْ"، وهزني الحنين.

يلاحظ "سي رحُّو" بصيغة الاتهام أنه رغم وسطية الجدّ، فهو يرى أن موموح مغرق في الابتعاد عن روحانيته، وعن طريقته في التفكير...

يرد موموح:

- وهل كان جدي يفكر حتى أتخذه نموذجًا في التفكير؟

قال "عصّو":

- أوَلم تقل إنه ما زال يسكنك؟

يتعجب الجميع من رد موموح حين قال بأن "الجاهل هو من يعثر بالحجر مرتين."

يحتج "سي رحُّو" قائلًا:

- كيف يكون جدّك حجرًا، ويصير نباح "جَرمُون" مدعاة للحنين؟

يرد موموح بأن نباح "جَرمُون" كان صمام أمان يطمئنه، أما جدّه فقد خبره، كان رجلًا شجاعًا صادقًا، لكن روحانيته كانت قائمة على القصعة الروْحاء، ورباعيات الأربعاء. كان رحمه الله فقيهًا بل "عالمًا"، على الأقل بالنسبة لأُمّ موموح التي لم تتخلّ يومًا عن

ترديدتها الأزلية (يْنَّاتْ بَابَا) قالها أبي. فقد اشتهر رحمه الله بتوفره على مقومات "الطَّالْبْ سِيدْ العارْفينْ" من دلع وسكون رزُن به عقلُه، وحب للأكل الجيّد، وكسل الفقهاء، وكاريزما يستمدها من صفته حاملًا لكتاب الله، ومن فضول "مؤسَّساتي" يطال كل شيء.

قال "سي رحُّو" بصوت منخفض، معلنًا بذلك عن نهاية الحوار، بأنه لو قام الجدّ من مرقده لاستنكر عبثية هذا الزمان، ليجيبه مومِوح بأن لكل جيل سياقه ونسقه.

رفع "سي رحُّو" أكفه، وافتتح حصة الدعاء التي خص بها "عصُّو" منظم الوليمة، وأهل داره عن المجهود المبذول في إعداد الطعام قبل أن يصلي على النبي، ويترحم على الأجداد، وعلى موتى المسلمين.

قال "عصّو" مخاطبًا موموح:

- أنت ضيفي لمدة ثلاثة أيام، سنحضر غدًا اللّمة الموسمية (اللّاَمّْتْ) التي ينظمها الرماة بقرية "تاوْرطَا"، وستبقى معنا بعد غد للتفرج على رقصات أحيدوس في حفل عرس تقيمه عائلتي بمناسبة زفاف أخي.

14

في اليوم الموالي، غادر مومحو باكرًا منزل "عصّو" الذي ضرب له موعدًا بعد صلاة الظهر لتناول وجبة الغذاء سويًّا.

يخرج من منزل صديقه، فتحتضنه جذوع أشجار الزيتون... باستثناء حقول السقي ب"لْمْرَاجْع"، تحفّ تاحفُورت كلّها غابة من الزيتون... أشجار عالية، بجذور ضخمة، يعود غرسها إلى أكثر من قرنين. لا تكون الزيتونة بالضرورة في ملكية صاحب الأرض التي تقع عليها الشجرة، كما تتخلل غابة الزيتون أَشجار الوقف التي تم حبسها لفائدة المسجد على ملْكية الله تعالى.

يتم جمع الزيتون بواسطة النساء، والأطفال بعد صعود الرجال إلى الأشجار، وتنفيضها بعصي (أقْرقَابْ)، أعمدة من أغصان شجرة "تُوزَّالْتْ"... تبنى عدّة وحدات من "أَنْغْر"، بأغصان شجرة الدِّفْلى، وتخزن بها ثمار الزيتون لعدة أسابيع قبل طحنها في "تاسيرتْ".

يطحن الزيتون بتناوب العائلات على الرحى خلال أسابيع عصر المحصول... فيجلس مومـوح وأطفال القَرية فوق جِفْت الزيتون الذي تراكم عبر السنين بجنبات رحى الطحن، متأبطين بكِسَر خبز الشعير (إفْنْجِيجْنْ)، في انتظار عصير الزيتون الأول، وهو يطفو فوق ماء "النِّقِير". يتنافس الصبية في رسم الحفر "تِيخْبَاشْ" بالإبهام على لقم الخبز وملئها بالزيت، فيضحكون... وهم سعداء.

على طريق الساقية متوجهًا إلى "بُوفْروخ" عاصمة الخوف، وقف موموح وكأنه يُحدث الساقية التي تخترق البلدة، وترافق الطريق في تواز لا يشكو من عيوب، الساقية التي ذكّره النظر إلى بريق مائها الذي ينساب كالحية بقديسة تاحفورت... "يْمَّا تْشْفَا".

يصل خرير ماء الساقية إلى أذني موموح وكأنه شكوى لمتأوِّه يعاني من أوجاع الفقد والغياب، غياب سيدة عانقت الموت ولفتها لحائف التراب.

"يْمَّا تْشْفَا"... القديسة السمراء، شخصية متميزة من نساء تاحفورت، قوية الحضور في ذاكرة موموح الذي يعتقد أن قائد "الْبِيرُو" لم يكن محظوظًا ليتعرف على هذه الشخصية الفذة التي لم تكن تخاف أحدًا إلا الله و"الْكُرْدْ" (حارس المياه والغابات).

اِمرأة طيبة القلب، عطوفة تسعى لخدمة الآخرين، بوجه حفر الزمن ملامحه الهادئة. كانت قدما "يْمَّا تْشْفَا" تجهلان شيئًا اسمه الأحذية، هي تمشي على الدوام حافية. تزوجت، وجاءت بفريق كرة من الأولاد، ولم تر الطبيب قط.

يتذكّر مومو‌ح اهتمام "يْمَّا تْشْفَا" به، حيث كانت تُهديه بعضًا من بيض دجاجاتها.

تكتفي القديسة بقطعة واحدة من اللباس بالصيف، تُعزّزها بِ "تَابْرْدوعت" بالشتاء. لم يسبق لموموح أن رأى أكثر من بعض خصلات شعرها المُخشوْشَنِ تُطل من على أذُنيها، أما باقي الرأس فكانت تغطّيه بِ "تَارِيطَاتْ".

نشيطة الحركة كالنحلة، تستيقظ "يْمَّا تْشْفَا" على صليل مقارعة المطرقة للسّندان بورشة الحدادة الملاصقة لبيتها، فيلتقي بها موموح وهي راجعة تحمل على ظهرها "أَيْدِّيدْ" مليئًا بالماء.

دؤوبة على العمل كالنملة، كانت "تعشق" نقل الأحْطاب على ظهرها من عمق جبال "بُوفْرُوخ". مباشرة بعد نقل الماء، تذهب لاستقدام حطب التدفئة.

حافية القدمين تمشي الهوَيْنى على طريق ليست كالطريق... فتسمع لها أنينًا وزفرات من وطء ثقل رُزمَتها التي تحملها لساعات كأنها محكومة بالأشغال الشاقة.

كانت "يْمَّا تْشْفَا" نموذج المرأة الأمّيّة بامتياز، فكان موموح يُشفِق من حالها، وهو يسمع ابنها "حمُّو" يحاول دون جدوى أن يُحفِظها الفاتحة لتقرأها في صلواتها، فتردّ عليه بعد فشلها بأنها لن تستطيع إلى ذلك سبيلا، وأنها تُعوّض عن ذلك بدعاء بالأمازيغية تقول فيه: "يا رْبّي شْكّْ تْسّْنْتْ نْتّْشْ أُورْ سِّينْغْ، قْبْلْ زَّاكِّي تْسَامْحْتْ إِيِّي" وهو دعاء مَفادُه: "يا ربِّي أنتَ تعرفُ وأنا لا أعرف، فتقَبَّل مني واغفِر لي"، ثم تسجد وتسلّم لتنهي صلاتها.

يعتبِر مومو دعاءَ "يْمَّا تْشْفَا" من أحسن الصلوات على الإطلاق.

اِنتبه فتى تاحفورت على صوت حوافر حمارة عادت من المنبع محمّلة بقارورات بلاستيكية من الماء الصالح للشرب، تقتادها فتاة، تتبعها أخرى تراقب الحمولة، وتوجِّه الدابة ب "راءات" الضبط المتكررة. دخلت الشراكة الحيوانية على الخط، فما عاد حمل الماء من اختصاص النساء.

عند مدخل "الصَّارِيجْ نْتّْجْ"، مجمع مياه الري، دقق مومو النظر في الصفائح الحجرية التي كانت نساء تاحفورت يغسلن عليها الملابس، والأفرشة، والحبوب.

يضحك من نفسه وقد تذكّر مفاجئته لأمّه بالقول:

- بالأمس رأيتك والنّسوة ترقصن عند الغدير.

ردّت الأم بعنف غير ظاهر:

- أهاوْ أَيَازْوَارْ، أُمك لا ترقص، كنت مع النسوة نغسل بعض القمح.

تقلب النّسوة القفف بجعل باطنها ظاهرها حتى لا تصاب أرجلهن بأعقاب خيوط الدوم وينصُفْنها بالقمح والماء وينخرطن في الفرك بالأرجل في رقصة لا تخلو من إثارة. ثم يغطِّسن القفف في الغدير فيذهب الماء بقشور القمح الذي ينشَر تحت الشمس حتى يصير صالحًا للطحن بعد تنقيته.

لا يخضع الشعير للفرك بالأرجل، لكنه يعالَج في "المَهْراز" الخشبي بالضرب (أدَاذْيْ) بعصًا خاصّة (أزْدُوزْ)، وبتسخين خفيف (أسِيزْغْ)، وعبر إزالة القشور (أزْوَايْ)، قبل طحنه في (تَاسِيرْتْ).

عمليات جعلت مومومح يتذكر كيف كانت أمه تنهيها وهي تتحكم في رحاها ذات الفكّين الحجريين، من خلال (أسْفْلُو) الخشبي الذي يدير الفك العلوي، في حين يلعب (ڤُومْ) الحديدي دور المحور الأساس في عمليتي التثبيت والدوران.

تنتهي أمُّ مومومح من عملية الطحن فتريح مَن حولها وتستريح من ترديدتها "ازَّاضْ ازَّاضْ أتَاسِيرْثْ إينُو."

لم يفهم مومومح وقتها أسباب مخاطبة نسوة تاحفورت لأدوات ثقافتهن وهن يشتغلن، لكنّ ذلك كان يسعده ويدفع به إلى الانخراط في دعم أمّه ومساعدتها.

على طريق "بُوفْرُوخ"، وقف مومومح عند عتبة "أيْلْمامْ"، اِرتاحت نفسه واستسلمت لسكون المكان واستعذب الأمر.

تُذكره العتبة بقطعان الماعز المستلقية عند منبع "تَاصْبَّابْثْ"، وقد استحلت قيلولة الظهيرة فانخرطت في شبه إضراب عن الثغاء، لتتفرغ للاجترار. يحسبها الرائي تحدّثه حديث الأبكم وهي تحرك فكيها في حركات مضغ مسترسلة يتخللها إرجاع العلف إلى الفم في تأنّ كأنه وقفة للتروي والتفكير.

كان الطفل مومومح يجلس عند العتبة قبالة منبع "تاصْبَّابْثْ" بين قطعان الماعز، فينقل انتباهه بين اجتهاد حشرة الجعل (مْسْكَرْنْعْ) أَمامه وهي تغالب غذاءها الكروي في قهقرة ناجحة، وبين الإنصات إلى صوت الجدجد (وْرْجِيجْ) وهو يغني لحرارة الصيف، تارة، وبين حرص طيور تاحفُورثْ على الارتواء من ماء الساقية تارة أخرى.

لم يفهم مومرح هضم الاجترار عند الماعز، وما استوعب تناوب الطيور على الارتواء، ولم يفكر يومًا في الذي جعل أهله الأولين يختارون الاحتماء بين ثنايا تاحفورت، لكنه وعى أسباب وجود قريته واقتنع بالذي جعلها تسكن قلبه.

ترجع به ذاكرته إلى الماضي عقودًا من الزمن، فيخاطب نفسه: ذهبتَ يا مومرح... فمن ذا الذي تولّى تأويل الأصوات، والحركات وقراءة الروائح، والألوان على لوحة فضاء طفولتك؟ أنت وحدك كنت تسمع دبيب النمل، وتفهم لغة الطير بالأعالي. أنت وحدك دون غيرك كنت معجبًا بسواد ومجهودات حشرات الجُعَل، وتُقدّر لَجاجتها في فن التَّكوير، والدحرجة، وصناعة الكُلَلِ الطبيعية حق قدرها... أنت وحدك يا مومرح، كنت تستطيع سماع حديث جُذوع لا تتوقف عن الحكي، تروي حكايات ووصايا الجذور، وتحكي أخبار من بقريتك كانوا وإلى ربِّهم ساروا ...

رفع مومرح هامته، اِمتد أمامه جبل "إيصفَّاحنْ" كالسد المنيع باسطًا كتفيه بالوصيد الجنوبي لتاحفورت، صار يمتع بصره بالنظر الى "إيصفَّاحنْ"، أحجار أثبتها الخالق بعناية بأعالي العلالي. ينظر أهل تاحفورت الى "إيصفَّاحنْ" باحترام شديد، صفائح رمادية تبدو كالسبائك الفضية، إنها ساعة شمسية ناطقة. وحدهم أهل مومرح يستطيعون تأويل مقاسات ظل أشجار "إِيصفَّاحنْ" لتحديد الوقت بدقة.

حل مومرح ب "أغرمْ"، ألقى السمع... لا شيء. اِنقرضت كل الأفكار والأساطير التي سكنت القرية حتى وقت قريب، تلاشت قصص "تْركُو"، واندثر صدى أصوات الباكيات من نسوة "أغْرمْ"،

وصهيل جيادها التي دُفنت تحت سيل الصخور التي نزلت من عل. هي أسطورة تناقلها الأسلاف جيلًا بعد جيل كنصيحة مؤطِّرة لاختيار المواقع الصالحة لبناء الدور. نظر مومـوح بإعجاب ممزوج بالإحساس بالذنب إلى الصخور التي كان يتوارى مختفيًا خلفها بعد نصب شراكه للسناجب.

وصل موموح بعد لأي إلى "صخرة العروس"، وضع يده على الصخرة محيِّيًا وهو يقول:" أزول، مامش تييت أتاسْليتّْ؟" أهلًا، كيف حالك أيتها العروس؟

لم يتلقّ موموح جوابًا، اِتخذ الصخرة مُتّكَأً لاستراحته، وصار يتغنى بأنشودته "هل ظننت أنني سأنسى؟" (**مِّيغْ تْشْفُوتْ آدْ تُّوغْ؟**).

تْبْدّْ خَافِي لَالَّا...
يامْ أُويُور،
تْبْدّْ آبْدِّي نْ تْخَابْشْتْ.

آمْ تِيشْلِي نْ تْمَالَّا...
إِمْشْ تْگُّور.
تْسِّيغْ تْمُوغْلِي أَلَّاغْ وُّولْ...
يُوزْغْ، تْكّْر دَاگْسْ لْعافْشْتْ.

لِّيغْ نّْفْحرَارِيغْ حَالَّا...
تْيَا يِي مُوشُور،
إِنِي يِي... أَيْلِّيسْ يّْزْرَا،
شْمّْ مَا دْ يْلِّيسْ نْ تْرگُو لّْبْيُور؟

نّْ يْدّْجِينْ أُولْ إِينُو يْفْرَا،
مَا دْ يْلِّيسْ نْ دّْجْنُونْ إِسُومَّار؟
نّْ تُّوغْ تْعزّْ خْ وُولْ ٱنْشْتْ.

لّيغْ حُويْزْغْ شْلَّا...
إِنِي يِي...
أَ تَاگَّايِينْ أُوسَاسْنُو،
شْمّْ مَادْ يْلِّيسْ وّْغْزْر مُوعُّور؟
لَالّْ نْ تِيطَّاوِينْ أُوسَاسْبُو...
نّْ يْدّْجِينْ مُومُوح يْجْنَا يْگُّور؟

ما تّْنّْ وّْزْرُو نْ تْسْلِيتّْ؟
ٱنِي... يْتَّاشْر وَاطُو إحرَاوْنْ،
ٱنِي تْرَّا تايْرِي أَزْرُو دْ زَّاوْشْتْ.

يتغزل موموح بفتاة الأحجار التي وقفت أمامه وقوف الخابية وعذبت قلبه. يسألها عمّن تكون... أهي ابنة غولة آبار "بُوفْرُوخ"، أم هي حفيدة جنّ "إِسُومَّار"؟ أم أنها عروس الأحجار حيث تسرق الريح الملابس، ويصيِّر الحب الصخرة زاوية؟

غفا موموح، رأى في عمق الصخرة بابًا... اِنفتح، خرج منه "الطفل موموح"، جلس إلى موموح وقال إنه يحمل كل الإجابات المطَمْئنة، ثم سأله هل تنازل عن قلقه وخوفه المزمنين؟

قال موموح:
- لمَ تسألني عن خوفي وقلقي؟

أجاب "الطفل مومـوح":

- أنسيت أن طوطم الخوف يسكن هذه الصخرة؟ هنا كانت دقات قلبنا ترتفع تلقائيًا فنلجأ إلى الاختفاء خلف بقرة أمّنا ونحن صعود... ونبدأ في ترديد نشيد السماء كما أوصانا جدُّنا الفقيه فيهرب الخوف وينسحب القلق.

كان "الطفل مومـوح" يتحدّث مثل جدّه... هما يعتقدان أن العالم مجرد رواية يحكيها الخلف عن السلف... قال الشبح:

- أنفرت من الزحام وأتيت "صخرة العروس" زائراً لعلك تطفئ الشكّ المعتمل في قلبك؟ أم أنك جئت تبحث عنّي لأُكمل لك حكايات طفولتك؟ دقق النظر، إن في عمق الصخرة بابين... واحد خاص بالعروس، أُنظر إلى حذائها أمام الباب، إنها بالداخل، والآخر هو باب لإغاثة الخائفين، وقد لجأتُ إليه حذر "ثْرِكُو" التي تسكن غير بعيد.

قال مومـوح:

- بل قُل القلق الذي يعتمل في عقلي، ثم إن كل طموحي هو أن آتي إلى هنا حتى يُظهر طابع الأعالي حمرة السعادة على وجنتي... أما صخرتك فقد تكون وثنًا، وأنت الذي تسأل عن قلقي قد تكون منافقًا تعاني من تقية مزمنة. قل لي يا جار العروس، هل سبق لك أن رأيتها عين اليقين؟ أنا لا أعتقد أن بالصخرة عائنة.

غضب الطفل من موقف مومـوح من الصخرة وهو الذي يرتاح إليها كلما مر بجانبها، إنها طوطمه الذي آمنه من الخوف والقلق. ورغم ذلك فقد أبدى الطفل رغبته في أن يذكّر مومـوح بحكايات مروره بطريق "صخرة العروس" ليوصل بقرة أمه إلى مرعاها ب"بُوفْرُوخْ".

قال "الطفل مومو ح":

- أتذكر مرورنا من هنا، وتلقّينا جرعتنا المعتادة من الخوف، ذلك الخوف الذي صيّرك رجلًا قبل الأوان؟

يتفاعل مومو ح مع الطفل قائلًا:

- كانت منهجية ماكيافيلية، عانينا منها كثيرًا...

يتابع الطفل وهو يحكي:

- أُنظر... كنا نمر من هنا عبر هذا الفج العميق ذي الطبيعة الخالبة والمخيفة، لم نكن نجرؤ على الابتعاد كثيرًا عن البقرة التي لا تحيد عن طريق تعرفها جيدًا، كنا نبحث عن حالة تَخاطر مع الحيوان في محاولة للهروب من خوف تفرضه علينا رمادية هذه الجغرافيا المخيفة. كنا نخضع لضرورة تقزيم مجالنا السمعي البصري، وفرملة جموح خيالنا الجمالي حتى لا تتمثل لنا "تْرْكُّو" الغولة في شجر أو حجر.

واصل الطفل وصف المكان قائلًا:

- دقّق النظر يا مومو ح في هذا الفج الذي لا يتسع إلّا في حدود خمسين مترًا، تنقص أو تزيد قليلًا*. متع عينيك بهذا الوادي الذي يفصل بين جبلين يرتفعان لأكثر من ألفين من الأمتار. أُنظر إلى عمق العلو، تر زرقة السماء كأنها تطل لتحيتنا... هل تسمع أصوات ساكنة "بوفروخ" من الطير؟ يا لهدوء المكان وجماليته!

أفاق مومو ح من غفوته، نظر من حوله... لا شيء، لا طفل، ولا باب، ولا حذاء، ولا زغاريد تحتفي بالعروس وصخرتها. كان يتغنى فقط بفتاته التي صنعها خياله بمساعدة مروره المتردد أمام الصخرة.

ما عادت رمادية الأحجار تغريه، ولا هدوء المكان يخاطبه، ويحثه على ركوب جياد خيال أهله... إنه صار عاجزًا عن سماع حديث الأشجار، والأحجار، وعن قراءة التوقيت على صفائح "أَغْرمْ" الناطقة.

كان يمر من أمام العروس الطوطم فيدقق النظر لعله يراها، ينحني تقديرًا للصخرة، أما الآن وهو في حضنها ولا يرى شيئًا، ولا يغمره إحساسه القديم، فذلك أمر غير يسير.

ما الذي تغير يا ترى؟ أهي الأمكنة يُنسي بعضها البعض؟ أم هو نسق أهله تجاوزه السفر إلى حيث العولمة الثقافية؟ لا هذه ولا تلك... هو لا يرى فرقًا كبيرًا بين النسق المحلي والنسق الوطني. الفرق يتجلى على مستوى الشكل، في كون الأخير بالألوان فقط.

هو صحيح... كان طفلًا مشاكسًا يعاكس أهله في كل صغيرة وكبيرة، لكنه كان معجبًا بأخلاقهم، وببساطة تفكيرهم، وسلامة نيّتهم، ومشروعية أحلامهم... أحس مومو بالفراغ يلف رأسه التي لم تعد مليئة بالأحلام المطَمئنة، ففهم فتى تاحفورت أنه ما عاد له مكان بين تلك الأخاديد.

وصل مومو إلى حيث كان الطفل الصغير الذي يسكنه يحلحل تمارين الخوف الصادر من مطارح الغولة "تركُّو"، وصل إلى عاصمة الخوف "بُوفْرُوخْ". طبيعة غنية بالألوان والأصوات، تشبه إلى حد بعيد تَبَرْقُش جناحي أحلى الفراشات...

يوفر ممر "بوفروخ" فضاء لعشاق جمالات الله بين جبلين شاهقين، تكاد قممهما تخترق السحاب. ممر تراقبه أشجار الأرز، وترعاه غابات البلُّوط، ويحُفه الشيخ الوقور "بُويْبْلَانْ" ببركاته. موقع يتنفس نسائم البُحيرة الحسناء "تامْدَا"...

يؤطر وادي "بوفْروخ" جبلان صخريان عملاقان، بذؤابات حادة، ومنحدرات صعبة التسلق. هو فج عميق يسحر النفوس بجماله، مكان مفروش ببساط طبيعي أخضر، مليء بالأزهار مختلفة الألوان. ترفع رأسك فترى الغيوم تمضي بسرعة فوق الممر العجيب كأنه القطن تحلُجه الرياح، تنظر إلى صخوره الرمادية، فيتفاعل معها قلبك بشكل غريب.

بعد لأي، يتجاوز مومّوح " تِبْحَّارْ بُوفْرُوخْ" عبر "تُوزْلين" ليصل "أَسْنْسُو يَّنْفيفْنْ". رغم أن المكان كان ملجأ لبعض عائلات تاحفورت لنصب خيامهم وفقًا لرحلة الشتاء والصيف، فإن جغرافيته بدت كأنها لم يلوثها بقر، ولا دنسها بشر. فضاء تسود فيه الطبيعة بكل مكوناتها ...

بلغ مومّوحُ "أكْرطُوطْ" صعودًا، حين غادره تركيزُه لترفعه روائحُ المكان وجماليتُه الى القمة. فلما استعاد انتباهه، وجد نفسه جاثيًا على ركبتيه فاغرًا فاه ينظر الى السماء، ثم يرتد البصر الى الأسفل صاغرًا وهو خسآن. ما عاد مومّوح قادرًا على أن يعيد النظر رجعتين ليتملّى بطلعة هذا المخلوق الفارع طولُه، والوارف ظلُّه.

رن الهاتف، يجيب مومّوح...

يرد المهاتف:

- أنا عقلك المشاغب الذي ينير لك الطريق... من حقك أن تفتخر بالوارف الظلال، والدائم الاخضرار الذي تجلس إلى جذعه، ولك أن تعتزّ بأغصانه المُعلقة كالجنائن في الهواء، وفي الخواء. هو مَن استُخدِمت ألواحُه لبناء هيكل سليمان، من بقايا أخشابه اخترع "بُوكْرينُ" و"عُمَر أحداد" "تِرْجِينْ"، فطوّعوا الحديد، وصنعوا منه

الحياة. هو مصدر اليحموم الذي استوطنت منك روائحُه الخياشيم... قف له ووَقِّه التبجيل، فهو من رفعَت سيقانُه اليافعة السقف فوق رؤوس أهلك.

اِستفاق مومو ح من غشية من شاهد منظرًا عجبًا، اِستكان إلى الجذْع رافعًا رأسه، وصار يستعذب النظر إلى هذا السامق القائم في حذقة الأعالي، الذي لا تنال الشمسُ من نضارة أوراقه، ولا تئنّ أغصانُه من ثقل الثلوج.

إنه "إيدِيلْ"، ملك الأشجار قاطبة، هو شجرة الأرز.

دُمت يا "إيدِيل" مُغالبًا للدهر والأزمان، ومُقاوِمًا لقرارات التكالُب، ولنهَمِ من باعوك "بثمن بخس دراهم معدُودات"...

كذلك كانت أمنية مومو ح وهو يتجه صاعدًا جهة الجنوب.

تجاوز مومو ح أعالي "أكْرطُوط" ليبلغ الحواشي الشمالية لبُحيرة "تَامْدَا" الشهيرة، مُجْتَمَع مياه يفوق طوله ميلين أو يزيد.

اِضطر فتى تاحفورت، حين أطل على المكان، إلى أن ينحني قسرًا حتى لا يُتابِع النظر إلى مرايا طبيعية حقيقية، يرتد البصر من قوة إشعاعها. تتميز "تامْدا" بحسن ظاهر يأخذ العين... وتتوفر على مناظر تموج بأسباب الأنس والسعادة.

صفت نفس مومو ح من خلال الإيقاعات المضمرة التي وفّرها له الإمعان في النظر إلى جمال البُحيرة، وإلى مكونات أرباضها، اِمتطى حسّه العميق وشعوره الرقيق، وتفاعل وجدانيًّا مع البُحيرة وأرجائها، وصار يمتّع سمعه بالإصغاء إلى جوقات خليط من الطيور والحشرات.

إنها بُحيرة "تامْدا" التي تشبه بما لها من سطح ناصع اللمعان، وبما يطوّقها من إطار جبلي ملفوف في غابات من أشجار الأرز... تشبه القمر المضيء وقد حفّ به الليل وديجوره.

زرقاء صافية تتراوح ألوان مياهها بين الأخضر الفيروزي والأزرق المتدرج، حسب عمق مياهها التي تنحدر من أعالي الجبال.

وقف مومح تمجيدًا للجمال، واحترامًا لقدسية الضفاف التي درج عليها أجدادُه، حين صنعوا الفحم "تِرْجِينْ" من بقايا الأخشاب التي تُلقي بها مياه "تامْدا" على حواشيها.

بُحيرة معلقة فوق الأعالي، كل مكوناتها عجب لا يراه سوى الباحثين عن الهدوء والسكينة، بعيدًا عن صخب البحار، وضوضاء المدن.

15

عاد مومـوح من جنّته متأخرًا إلى بيت صديقه "عصُّو"، تناولا وجبة الغداء سويًّا، ثم ضربا لبعضهما البعض موعدًا عند خيمة اللّمّة بقرية "تاوْرْطَا" التي تبعد عن تاحفورت بميل أو يزيد.

وصل مومـوح قرية "تاوْرْطَا" بعد نصف ساعة من المشي، وقف عند الخيمة البلاستيكية البيضاء الغريبة الشكل. لم يتعرّف عليه أحد، جلس من دون أن يستأذن الحضور على كرسي من الكراسي البلاستيكية البيضاء التي تؤثث الخيمة. نظر إليه الجميع، ألقى التحية:

- أزُولْ...

رد الجميع ب "وعليكم السلام". لم يجرؤ أحد على استفسار الغريب عن هويته، وعن دواعي حضوره. "اللّاَمْثْ" عند قبيلة مومـوح كما العرس، لقاء موسمي مفتوح يُعلن عنه، فيحضره من يرغب في ذلك.

فهم مومـوح مما نما إلى سمعه من الحوار الدائر أمامه أن الموسم روحي بامتياز، وأن قطيعًا من الماعز لا يقل عن عشرين تيسًا ذبح لأغراض الوليمة التي يرتكز عليها موسم اللمة، إلى جانب قراءة الأذكار، وإقامة صندوق الأدعية، وتوزيع صكوك الغفران.

عشرون تيسًا! أخذ فتى تاحفورت يسأل نفسه متعجّبًا، كيف يمكن له ولقرية "تاوْرْطَا" أن يتوَرّطا ويتغيّرا ليفقدا ما كانا عليه، وهل استطاع موموح أن يتكيف مع فضاء غربته، دون أن يفقد جزءًا من ذاته، أو ينسى؟

نطق موموح وهو يفكر بالجهر دون أن يدري، قال:

- يا حمّادي، ما لحافلتك انحرفت إلى واقع مختلف عن العالم الذي شيّده موموح بأحجار استخرجها من عقله وبعقله؟ وأنتم يا أهل "تاوْرْطَا"، قلتم إنكم لستم طالبي ريع... والريع على الأرض، لا يؤخذ إلّا بالانحناء. إنه من العمى أن يعيش الإنسان بهذه الطريقة في قرية تكاد تتبدّد فيها كل الآمال.

وقف أحدهم أمام موموح ليسأله:

- هل طلبت شيئًا أيها الغريب؟

يرد موموح:

- لا يا سيدي، كنت فقط أحدث نفسي، ثم إنني لست غريبًا، أنا من هذه الأخاديد.

قال السائل متعجبًا:

- لست غريبًا! إن لم تكُنه فأنا الغريب إذًا. كيف تكون من أخاديدنا ولم يسبق لأحدنا أن رآك؟

اِنصرف السائل قبل أن يجيبه مومو ح ليستقبل مجموعة من زوار "اللّامثْ" وصلوا في التوّ يركبون سيارتين.

كان المنظمون والضيوف جميعهم يلبسون لباسًا غريبًا عن القرية القديمة، أحذية رياضية مستعملة أكلها الطريق، وسراويل إفرنجية، ورؤوس عارية، ووجوه بدون شارب... لا أحد يلبس جلبابًا، أو سلهامًا.

اِلتحق "عصّو" بالخيمة، وانخرط في تحية الحاضرين والسلام عليهم قبل أن يسأله أحدهم عن هوية الغريب الجالس لوحده.

قال "عصّو":

- هل سمعتم من قبل باسم موموح؟

همهم الجميع قبل أن يرد الناطق الرسمي:

- أتقصد موموح الذي تقول الأسطورة إنه اختار ركوب حافلة حمَّادي وحملته الريح الخلفية، وكان منذ البدء خائنًا وعاقًّا.

نظر "عصّو" جهة موموح وقال:

- موموح ليس أسطورة، وكلامك يا عزيزي "أمْنايْ" غير دقيق، موموح يقول إن رحيله كان من تبعات الريح الخلفية التي كان جدّه يذكيها بالنفخ عليها بمراوح من تعويذاته...

نهض موموح الغريب وقد سمع مجمل الحوار، سلم على الجميع فردًا، فردًا، ثم قال:

- لقد صارت الصّفائح (إصفَّاحنْ) خرساء ما عاد لها صدى منذ هبّت أَراويح الرداءة على الأعالي، لو لم تكن كذلك لنطقت وأخبرتكم بأني أنا موموح.

قال "أمْنايْ":

- لو كنت مريدًا لتاحفُورتْ كما تدّعي لاحترمت صفائحها وما اتهمتها بالخرس والرداءة.

قال مومومح:

- أنا لا أتهم... "إصفَّاحنْ" كانت من قبل تتفاعل مع كل شيء يدبّ بين هذه الأخاديد، فاسألوها حتى تطمئن قلوبكم. اِسألوها فقط، تفاعلوا معها، فإنها بالتأكيد ستخبركم بخارطة الطريق. ثم إِني لست مريدًا يضحّي لأجل لا شيء، بل أَنا أريد ...

قال "أمْنايْ":

- وما عساك تريد... أيها البعيد؟

أجاب موموح:

- أريد من العالم اكتشاف القرية... ذلك أهم وأجدى.

رد "أمنايْ" بنبرة الواثق:

- لن تنجح في مسعاك ما دمت تبحث عنِ الحقيقة خارج "العُرَّام".

رد موموح بأنه يريد فقط أن يرافق تاحفورتْ في خطواتها.

لكن "أمناي" قال يسأله إن كان مستعدًّا لمرافقتها في قهقرتها... مؤكدًا أنه قد ينجح في خدمتها إن هو سلك شعاب شعبويتها، واستظل بظل لالَّاه "مُولاتْ تاقَّا" اتقاء حَرور أشعة الحقيقة.

متهكمًا ينفعل موموح:

- مولاتك "تاقًّا" لا تُزهر ولا تُثمر.

يرد أمناي" مباشرة:

- مثلها مثل جهودك، ما أَثمرت قط... ثم إنك لن تبلغ أَباك "إِبْلَانَ" طولًا، ولن تنجح في مسعاك "حتى تُنفق مما تُحب".

قال موموح:

- أنا أَعشق "تْوِيزِي" وتقديسها للعمل، وأَكره "المُعاوَنة" التي تروم مأسسة الكسل. أنتم على الحق بثباتكم على البقاء بالقرية، اعملوا ولا تتقاعسوا فتذهب ريحكم وينقرض المكان.

وعن اتهام "أمناي" له بأنه يحاول فقط التستر على عجزه وشُح نفسه، رد موموح بأنه يحيا بإعمال عقله، وأنه لا يستلذ استرزاق اللقط، لأَن به متعة تجعل النفس تميل حيث شهوة الاختلاس تميل.

اِلتحق "سي رحّو" الفقيه بالخيمة، فأنهت تحيته الحوار الذي كان قائمًا... جلس إلى جانب موموح وأخذا يتبادلان أطراف الحديث حول أحوال تاحفورت وأهلها.

قال موموح متعجّبًا وهو يخاطب "سي رحُّو":

- جمْعُكم هذا ذكوري لا تحضره الإناث! والمعلوم من الحق أن المرأة نصف المجتمع.

ردّ "سي رحُّو" مشيرًا إلى أن النساء منهمكات في إعداد طعام الوليمة، ثم إنه لم يستوعب قولته "المرأة نصف المجتمع".

يسأله موموح إن كانت النساء سيحضرن إلى الخيمة ليتقاسمن مع الرجال وجبة طعام الوليمة بعد إعداده. وأردف بأن عدد النساء بالقرية يساوي نصف الساكنة أو يزيد.

أجاب الفقيه بأن حضور النساء غير وارد... فتعجب مومو ح من ذلك وقال:

- الرجال يشجعون دائمًا على اتباع التقاليد القديمة، لأن ذلك من شأنه ألّا يزعزع السائد الذي هو في كل الأحوال يصب في مصلحتهم.

قال "سي رحُّو" بنبرة واقعية:

- أنت تدعو إلى المساواة بين الرجل والمرأة وتطالب بأن تكون ندًّا له، فهل تزوّجت امرأة متساوية معك وندًّا لك؟ أنا لا أعرف زوجتك ولكنني لا أعتقد ذلك. كذلك هم المثقفون الذين يقولون ما لا يستطيعون فعله، لأنهم يخافون من ندية المرأة وتحرُّرها.

رد موموح مبتسمًا:

- وهل أنت خائف من ندية زوجتك؟

قال "سي رحُّو:"

- الندية؟! زوجتي بالكاد تصلح للفراش وتربية الأطفال وإعداد الطعام...

رد موموح بصيغة الإِحتجاج:

- كيف يكون تقسيم العمل بدون استحضار مقاربة النوع؟ كيف تقول ما قلته وقد وجدتُ عند وصولي إلى القرية أغلب النساء يشتغلن بالحقول؟! ثم إنني عايشت "يْمَّا تْشْفا" وكنت شاهدًا على الأعمال الشاقة (حمل الحطب، وقرب الماء، وعلف المواشي والبهائم...) التي كانت تقوم بها، والتي لا تندرج بالضرورة ضمن الاختصاصات النسوية التي ذكرتَها. ذكوريتكم تمنعكم من رؤية الحق والحقوق.

قال "سي رحُّو" وهو يُربِّت على كتف مومو ح:

- اِهدأ قليلًا... أنت تعلم أن تقسيم العمل وفقًا لمقاربة النوع هو مجرد مقاربة، ثم إن مقاربتك غير ممكنة لأن العمل بالخارج يعرض نفسيًّا وجسديًّا للاصطدام مع الطبيعة، وامرأة القرية بالكاد تقوى على مزاولة الأشغال بداخل المسكن أو بالأماكن والحواشي القريبة منه. ثم قل لي، ماذا تقصد بالذكورية؟

رصُف الجواب حين رد موموح بأن الأمر لا يعدو كونه من الأوضاع التي فرضها الرجل على المرأة وسخرها لمقتضياته. أما الذكورية فتتجلى في الأفكار التي تحملونها وفي سلوكياتكم التي تضمن لكم السيطرة على عالم الإناث.

دون أن يرنّ الهاتف هذه المرة، يسمع موموح صوت عقله المشاغب وهو يحدثه:

- جئت متأخرًا يا موموح، كان عليك أن تأتي في وقت كان جيلك في أمس الحاجة إليك. هل نسيت أم أنستك رفاهية المدينة؟ تذكّر فقط، ستأتيك الصور تلقائيًا وإن لم تستحضرها.

يتذكر موموح ذلك اليوم الذي جلس يتابع مرور سرب من النسوة وهن يحملن على ظهورهن من الحطب ما كان ثقله لتئن منه الجبال...فتمنى لو لم يُحمّل نفسه صعوبة المنظر.

اِستسلمت النساء للثقل واستعذبن التمايل والزفير للتخفيف من وطأة ما يحملن.

لقِن موموح وقتها أسباب غياب فتيات القرية عن قسمه بالمدرسة، بل ذهب به الأمر إلى الاعتقاد أنه فهم كذلك دواعي إكثار

أهل القرية من إنجاب البنين، فساءه التفكير في أن يكون والداه قد أنجباه لمجرد إيصال البقرة الى "بُوفْرُوخ"، أو الذهاب كل صباح لجمع حبات الزيتون.

ينتبه مومٌوح على صوت "سِّي رحُّو" وهو يقول:

- لم يفرض الرجل أي شيء، هي ثقافة كانت سائدة في العهود السابقة، ورثناها عن أجدادنا لأنها صالحة لكل زمان ومكان.

يرد موموح وقد أصابه الملل:

- كان مجتمع القرية وما يزال قائمًا على الذكور الذين يعود إليهم القرار في كل شيء، في حين يبقى دور النساء ثانويًّا. بقي نمط الحياة يعتمد توزيعًا معينًا للأدوار ويضع جدارًا بين الذكور والإناث يجعل مكانة المرأة مجرد دور ممنوح من طرف الرجل.

يتدخل "سي رحُّو" قائلًا:

- أظن أنك تبالغ فيما ذهبت إليه يا سيدي موموح، من ينصت إليك سيفهم أننا نميز بين الذكور والإناث، ونجعل عالمهما عالمين مختلفين.

يشير موموح إلى أن الواقع لا يرتفع، هما فعلًا عالمان مختلفان فرضتهما ثقافة أبوية ترسخت منذ قرون.

لا يمكن للفقيه "سي رحُّو" أن يقبل بإشارة موموح، فرد بغضب ظاهر:

- هل يستقيم يا موموح أن يلازم الذكور منازلهم وسط زوجاتهم وهن يقمن بالأشغال المنزلية؟ وهل يجوز للنساء مرافقة أزواجهن إلى عالمهم الخاص؟ الحقيقة هي أن الطبيعة البشرية للمرأة

تختلف عن طبيعة الرجل، وهذا الاختلاف هو الذي فرض اختصاصات مختلفة.

يفضل مومو ح عدم التعليق على ما قاله الفقيه "سِّي رحُّو"، لكنه يرفع من مستوى الحوار في محاولة لإقناعه، ويقول:

- "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، التغيير من دواعي التطور، والتطور يستلزم السير وفقًا لخطة طريق تستوجب هي الأخرى نموذجًا يستدعي شروطًا، من بينها المودّة، والمساواة في الحقوق والواجبات بين الجنسين، والعمل جنبًا إلى جنب في تكامل لا يمكن إلا أن يكون مثمرًا.

يعود الجنِّيّ الذي يفتي بكل ما من شأنه أن يغضب "سِّي رحُّو" وقد استغنى عن المهاتفة، ليُوَشوِش لمومو ح ناصحًا:

- يظهر أنك لم تستطع إقناع الفقيه، رغم أنك انتهجت منطق العقل... أتعلم لماذا؟ لأنك اعتمدت على حقائق جديدة ولغة جديدة.

بعض الفقهاء أيها السيد مومو ح يعشقون الاعتماد على السائد، ولا يحبون البدع... هم مهووسون بأفكار جدّك الذكورية التي لا تترك للجنس اللطيف مجالًا أوسع... حاول مع الفقيه "سِّي رحُّو" من خلال سرد أحداث وشهادات من قديم أهلك. قصَّ عليه حكاية عمَّتك الوحيدة، كيف استغل والدك أملاك جدّك المرحوم، دون أن يصيبها منها نصيب بدعوى ضرورة بقاء التركة بين أيدي الذكور المسيطِرين والحاملين لاسم العائلة "الضامنين" لاستمراريته. ثم إن وسائل الإثبات لا تنقصك بخصوص الوضع الحالي حيث يمكن للفقيه "سِّي رحُّو" أن يقتنع وهو يرى كيف يتحايل اليوم بعض الناس قيد حياتهم لإبعاد الإناث عن التركة أو لإرضائهن بالقليل في أحسن الأحوال.

أنهى المشاغب وشوشته قائلًا:

- إن لم يكن فقيهك يرى ما كانت عليه وما آلت إليه أوضاع النساء، فاعلم أنك هرمت من أجل لحظات لم تأت بعد.

دقق الفقيه النظر في عيني مومواح وقال:

- ما الذي أصابك؟ لماذا سكتت؟ أتراك اقتنعت بدفوعاتي؟

يرد مومواح وقد اصطبغ كلامه بالتهكم:

- لا، أبدًا، لم أقتنع. وجدتني فقط أفكر في موضوع آخر يتجلى فيه غياب العدل بين الجنسين بامتياز... إن الظلم الذي يلحق ببعض النساء من جرّاء حرمانهن من حقهن في الإرث يرسخ وضعيتهن الدنيا. هو حق أعتبره من شروط الاستقلالية، اِستقلالية أراها من المستلزمات التي تجعل المرأة شريكًا في تنفيذ النموذج الاِقتصادي الذي من شأنه أن ينهض بالقرية.

يرفع "سي رحُّو" من عقيرته منتفضًا، ويقول:

- لا يا مومواح، إلا ما ورد فيه نص صريح، لن أناقشه ولن أسمح لك بمجادلتي فيه، "اِنتهى الكلام".

ردّ مومواح موضحًا أنه يحترم النصوص، ثم إنه ليس متخصصًا في تأويلها حتى يفتي في مسألة المساواة، إن ما يهمه هنا هو العدل في تمكين النساء من حقهن كما هو منصوص عليه، حتى يتمكّنّ من المساهمة في انتقال القرية من نسق إلى نسق.

اِعتذر الفقيه عن سوء الفهم وقال:

- الآن استوعبت قصدك، وأنا معك فيما ذهبت إليه، لكن علي أن أوضح لك أمرًا أراه محدِّدًا بخصوص ما أسميته حرمان النساء من حقهن في الإرث. لقد جرت العادة التي فرضتها الثقافة المحلية،

وهي تكاد تكون ملزمة للجميع ولو لم يكن هناك اتفاق، بأن تبقى التركة على الشياع لأسباب مختلفة قد تكون موضوعية.

وفي جميع الأحوال فإن أمر إدارة المشترك يبقى بين يدي الأخ الأكبر الذي يبقى مستقرًّا بمنزل العائلة، في حين يغادره كل من تزوج من الإخوة والأخوات. هي وضعية لا تستفيد منها البنات اللائي لا يتجرّأْن على إخوتهن الذكور لمطالبتهم بحقهن.

دون أن يقصد، ينشّط مومو الحوار من جديد وهو يقول:

- إنه أمر لا يستقيم، وأعتقد أنه حان الوقت لتغيير الوضع.

وهل يسكت "سِّي رحُّو" وهو الذي يعاني من حساسية شديدة كلما سمع كلمة التغيير؟ قال الفقيه:

- لا أعتقد أن المرأة مؤهلة لخوض الشراكة مع الرجل خاصة في المجالات التي تستلزم الاختلاط.

يرد مومو بهدوء هذه المرة:

- أما أنا، فمقتنع بأن المرأة جديرة بالاحترام، أثق بقدرتها على الانخراط في قيادة التغيير، كما أنني متأكد من وعيها بدورها في إنجاح النموذج التنموي الذي ستختاره القرية. المساواة ليست بدعة، هي حق من الحقوق الطبيعية التي ستمكن المرأة من إبراز شخصيتها، ومن اكتساب التجربة لحماية نفسها...

يرد الفقيه الذي كان ينصت باهتمام قائلًا:

- هذا العالم غابة مليئة بالذئاب، ولا أرى للمرأة حظًّا بين مسالكها.

يتدخل مومو مقاطعًا:

- أنصت إلي جيدًا أيها الفقيه، سأروي لك شهادة لجندي فرنسي من عهد الحماية البائد، قرأتها في مذكراته، إنها شهادة تقول كل شيء.

كتب الجندي يقول: "كنا نقوم بعمليات التمشيط، ومداهمة القرى الجبلية للبحث عن المقاومين، فكنت أشعر بالخجل من نفسي من ردة فعل النساء الأمازيغيات عند رؤيتنا، كن يهربن بسرعة البرق نحو اسطبلات الحيوانات، ويقمن فورًا بتلطيخ أجسادهن بروث البهائم كي لا نجرؤ على الاقتراب منهن لاغتصابهن بسبب رائحة الروث الكريهة التي تنبعث منهن."

يزيد الجندي الفرنسي قائلًا:

- " حقًّا إنها صورة لن تغادر ذهني ما حييت، صورة جعلتني أكنّ الاحترام لهؤلاء النساء اللائي تمرغن في الروث من أجل شرفهن."

رغم أن الموقف عظيم، إلا أن "سي رحُّو" رد ساخرًا:

- وهل يحضر الرّوث في كل الظروف؟!

فجأة... رفع أحد فقهاء "تاوْرطَا" عقيرته واستنهض كل قواه، اِختلط عليه الأمر بين الموعظة والنهي عن المنكر وبين التواصل في شأن شكاية. أشار إلى أنه آسف أن يجد نفسه مضطرًّا إلى إخبار الجماعة بتصرف مشين صدر عن إمام المسجد الذي كانت القرية تنتظر بركته، فإذا به يحط من كرامة أهلها بفعلته.

اِكتشفنا، يقول الفقيه مستنكرًا، أن الإمام "سي زهوان" يعيش في فضاء مزدوج، فتراه ينظر على الدوام إلى السماء ويدّعي أنها منزلته الأولى، لكنه ينتشر في الأرض، منزلته الأخرى، اِبتغاءَ

فاكهتها، فيُزيل لباس تقوَاه وينظر إلى سوءته، فيكتشف أنه يعاني من الجوع... وجدناه يخضع لنفسه كلما همّت به... لكنه يشكو في نفس الوقت من ادّعاء تخمة الطُّهرانية... فيبحث في ناموسه عن حيلة يُجيز بها حربائيته حتى يتمكن من غرْف الأجر المصفَّى دون أن ينسى حظه من الدنيا...

يتدخل فقيه آخر، طفق يوضح الأمر الطارئ الذي لم يكن واردًا بجدول أعمال اللقاء، قال:

- لقد تبين لنا أن "سي زهوان" إمام مسجدنا حُرم من التربية على العفة، فألقى بنفسه في مستنقع يتعايش فيه المقدس والمدنس في تناغم مثير. لقد ضبط "الفقيه" متلبسًا بالتحرش بالمحصنات. لا يتعلق الأمر بإشاعة، لقد تأكد لدينا أن الأمر حقيقة لا غبار عليها. فماذا تقررون؟

ساد الصمت لبضع ثوان قبل أن ينطق "أمنايْ" داعيًا الجمع إلى التروي لتقصي الحقيقة. مشيرًا إلى أن الأمر قد يكون مؤامرة دبرها في الخفاء أحد الفقهاء من منافسي الإمام "سي زهوان". وأردف بأن الغرابة هو أن يكون الذين يتهمون الإمام من الفقهاء. وفي كل الأحوال، فإن البينة على من ادّعى. ثم نظر في اتجاه الفقيهين اللذين جاءا بالخبر/التهمة وقال:

- قلتما إن الإمام "سي زهوان" ضُبط متلبسًا بفعل التحرش الجنسي، فما هو هذا القول أو الفعل أو الإشارة التي صدرت عن الإمام، حتى يُتهم بالتحرش؟ ومن الشاهد الذي سمع أو رأى؟ هل يتوفر المدعيان على الدليل والحجة؟

اِنتفض أحد الفقيهين قابضًا بلحيته على مستوى ذقنه تارة ويمسح بها تارة أخرى، وقال:

- لقد رأيناه أنا والفقيه "سي بلقاسم"، وسمعناه يلقي التحية على النساء اللائي مررن أمامه يحملن قراب الماء.

قال "أمنايْ":

- ثم ماذا؟

رد الفقيه:

- ألا يكفي ذلك لإثبات التهمة؟

يحتج "أمْنايْ" وهو ينفث دخان سيجارته:

- اِتّق الله يا فقيهنا، هل لإلقاء التحية مدلول جنسي؟ متى كانت التحية خدشًا للحياء؟ ثم قل لنا، هل اشتكت النساء موضوع التحرش من تصرفات الإمام وقمن بالإبلاغ عنه؟

رد الفقيه بعنف ظاهر مخاطبًا "أمْنايْ":

- اِلزم حدودك... لست مؤهلًا للدعوة إلى تقوى الله. يكفيني فيك دفاعك عن منافق يستمتع بتحية نسوة القرية ظانًّا أن خُفيَتَه خَفِيّة الأثر... لم يعد "زهوانك" هذا إمامًا لمسجد قرية "تاوْرْطَا" بالنسبة لنا، اِسمه يدل على حقيقة ازدواجيته. قضي الأمر، وانتهى الكلام.

يرد "أمْنايْ" بعنف:

- لم تكتفيا بالتطرف في تقييم أفعال الناس والإفتاء في ما لا تعلمان، بل تجاوزتما حدّكما بالحلول مكان "الجّماعة" لتقررا ما يناسب هواكما. "سي زهوان" بريء، هو إمام المسجد حتى تثبت إدانته. أما أنتما، فإنكما تتستران تحت غطاء الفضيلة وتسرِجان مرِيدِي شعبويتكما بدعوى محاربة المنكر ليحملوكما على الأكتاف حتى تتمكّنا من بلوغ منبر المسجد...

تدخل الفقيه "سي رحُّو" إمام مسجد تاحفورت في محاولة منه لتهدئة الأجواء وقال:

- ما هكذا تورد الإبل يا أصدقائي، لابد من الاستماع إلى كل الأطراف لإظهار الحق. وأردف بأنه، في كل الأحوال، سيلتمس من الفقيه "سي زهوان" إعفاء نفسه من إمامة مسجد "تاوْرطَا" لأن المهة لا تحتمل أن يكون الإمام في موقع شبهة.

اِنصرف الفقيهان... ظهر أن الحل الوسط الذي اقترحه "سي رحُّو" لم يرضهما. بدا أنهما جاءا في مهمة، لم يكن يهمهما حضور اللّمّة.

غادر الفقيه زهوان هو الآخر اللّمّة غاضبًا. يتدخل "أمُوزّْلْ"، عضو معارض يمثل ساكنة "تاوْرطَا" بجماعة "البِيرُو" ليحتج بشدة، قائلًا:

- بغض النظر عن نوايا الفقيه ورفيقه "سي بلقاسم"، أنا لا أفهم "سي رحُّو" حين يقترح حلّا وسطًا يعفي الفقيه زهوان من المسؤولية. متى كان فقهاء المسجد يلقون بالتحية على نساء القرية حتى نعتبر ما صدر من الإمام زهوان سلوكًا عاديًا؟ ثم إن الجميع يعرف أن زهوان ليس فقيهًا رزينًا، هو خفيف القفشة تسمع له قهقهات لها حمولة توثّق لإزالة الكلفة، وهو في نفس الآن منافق يتقن النّقر على أوتار القلوب وفقًا لمقامات الكذب وركوز الشعبوية ذات الثّراء على مستوى استمالة العواطف والمواقف.

يرفع أحد الرماة الجالسين بالخيمة عقيرته ليزكي تدخل المعارض "أمُوزّْلْ":

- كلام صديقنا "أَمُوزّْلْ" هو عين الحق، سمعت زهوان مرارًا

يُناثر "العُزَّامَ" درّ الشعبوية، فسُلِبتُ العقل وكدت أَهُمُّ لولا أن كنت أَعرف ازدواجية الإمام. لقد جربت الرجل، هو يرفض ازْورار الشمس عن مغارة أفعاله حذر النور، فيكتفي ببريق حشرات كهفه المضيئة مخافة أن ينفضح أمره... هو لا يقوى على إخضاع ظله للشمس، هو يخشى أن يتسرب الشكّ إلى رواد المسجد فتُحصحص الحقيقة.

يتدخل "سي رحُّو" مرة أخرى مخاطبًا "أمُوزّْلْ" بعنف ظاهر على غير عادته، قائلًا:

- تصلي خلف الإمام زهوان وتأكل لحمه بعد أن غادر، أنت تتهمه بالظن فقط، والظّانُّ غير مُحق. أنت تعارض كل شيء، تزدرد الحلوى و تحتج على كثرة الحلاوة...

يتغوّل "أموزّْلْ" في رده على الفقيه "سي رحُّو"، متبجّحا بنيله ثقة المواطنين لأنه يتفانى في خدمتهم ولا يكذب أبدًا... قال إنه يمثل السكان وهو أدرى بمصلحتهم، ومستعد لبذل النفيس للدفاع عنهم.

قال "سي رحُّو" يواجه "أمُوزّْلْ" وقد غلَظ عليه في القول:

- كيف تقول إنك تتفانى في خدمتنا؟! وأنت الذي لم تخضع حصيلتك قط للتناظر والتقييم منذ أن اعتليت كرسي التمثيلية لعدة انتدابات؟ تدّعي أنّك جئت لتعارض وتحارب الفساد، لكن أمرك ما لبث أن انفضح تحت مجهر الواقع. تتشدق بديموقراطية الصناديق وتقول إنك لا تكذب! يا سبحان الله، ألست أنت من تفنن في استغلالها لتضحك على ذقون أهل المنطقة الذين صنعوا الصناديق العشوائية تحت جنح الظلام بإيعاز منك... فازْدردوا مرارة الهدم بسببك.

بإشارة من الشيخ، اِنتظم الرماة في مجموعات تحلقت حول الطاولات جلوسًا على الكراسي. اِفتتح الفقيه "سي رحُّو" تلاوة ما تيسر من الأذكار، سكت الجميع إلا ما كان من مرافقة أصحاب الجلابيب البيض ممن يحفظون نشيد السماء لاستظهار "سي رحُّو" بصوت جماعي لن ينكر شجوه إلا جاحد.

بالتصديق أنهى "سي رحُّو" الترتيل الجماعي... فوقف "عيّاد" شيخ الرّماة معلنًا عن إقامة صندوق الأدعية، ودعا كل من يرغب في التبرك بدعاء "الرُّمَا"، أو يريد أن يستبشر بهم خيرًا لأجل فأل مستقبلي، أن يساهم في دعم الصندوق الذي ستخصَّص موارده لتسوير مصلّى القرية، ولتجهيز مسكن إمام "تاوْرْطَا".

وقف الشاب "ميمون"، موظف يقضي إجازته بقرية "تاوْرْطَا" والذي احتفل بزواجه منذ أسبوع، رافعًا عقيرته معلنًا أنّه أوجب على نفسه دفع مبلغ ألفي درهم خلال الموسم القادم لفائدة الصندوق إن هو رُزق طفلًا ذكرًا.

صفَّق الجميع وانخرط أصحاب الجلابيب البيض بحماس منقطع النظير في الدعاء لفائدة "ميمون".

عن سؤال لمومو‌ح إن كان أصحاب الجلابيب البيض رماة، أجاب "سي رحُّو" أن جميع رجال "تاوْرطَا" رماة بحكم انتمائهم إلى القرية.

عم السكوت الخيمة، وتوزعت النظرات على أرجائها بحثًا عن مريد آخر...

أحسّ مومو‌ح وكأنه هو المعني بالانتظار المعلق بالهواء، فوقف مخاطبًا الحضور بالخيمة وقال:

- تمنّيت فقط لو صارت هذه اللمّة برنامجًا غنيًّا بالأنشطة، ومنصّة للتمويل الجماعي للمشاريع ذات الفائدة المدرّة للدخل، لكنها للأسف مجرد وليمة وبدعة أنشئ بموجبها صندوق للأدعية، يرسّخ الاتكالية عبر جمع التبرعات و"المُعاوَنات" لتمويل منصات غير مُنتجة... لذلك وجب التفكير في تحديث اللمّة، وإغناء برنامجها بأنشطة تستجيب للحاجيات الحقيقية للقرية في اتجاه تثبيت ساكنتها حذر الانقراض.

زاد مومومح قائلًا وهو يوضح مكوّنات المشروع الذي يحمله:

- من فضلكم اسمعوني جيدًا، لقد وقفت على أبرز محطات الماضي، وقرأت صفائح جدّ يوسف النادل بمقهى سوق الإثنين، ففهمت كيف صارت مخلفات عهد" الْبِيرُو" البائد فراملَ تحول دون تقدم قرى الأعالي.

هرمت يا أحبّتي، وتأكدت من أن مغامرة الكثيرين، ربما كنت أنا منهم، بالانتقال من مكان إلى مكان، كانت مجرد تفسير لحلم لم يتحقق. بلغت منتهى الكبر، وفهمت يا أعزائي أن موقف البعض من الانتقال من نسق إلى نسق، واستدعائهم لسياسة البين بين، أدّيا إلى انتهاج مشيتين... فأصيب الجميع بالإنفصام، فصاروا لا يعرفون هل هم من الحمائم أم من الغربان.

فهمت، بعد إعمال عقلي، كيف يهدد الانقراض قرى الأعالي في غياب نموذج حديث، يخفف من حِمل التخلف والخرافة اللذين يسيطران على القرية.

لذلك كله، رأيت أنه من واجبي أن أقترح عليكم نموذجًا من شأنه، حسب اعتقادي، أن يضمن مستقبل قريتكم.

أنصتوا إلي جيّدًا، إن الاجتماعي المبني على الدعم والمساعدة لا يدوم ولا يكفي. النموذج الذي أقترحه عليكم يرتكز على الاستثمار في المكان والركوب على الثقافي طبقًا لقواعد التفكير الصحيح، وانطلاقًا من المعطيات بعد التحقق منها، لجرّ النموذج بمنهجية مقاولاتية وعلمية سليمة إلى الاقتصادي، أو التعاوني الكفيلين بإنتاج العدالة الاجتماعية، العِلم وحده هو الذي يُغيّر العالم.

نظر الجميع إلى مومومح باندهاش كبير، بالتأكيد لم يفهموا ما قاله، إنهم لا يهتمون بالجديد.

مقاطعًا ومنفعلًا تدخّل شيخ "الرَّمَا"، لم يستدر ولم ينظر إلى الغريب، عبّر عن غضبه من موقف مومومح من اللمة وهو يقول:

- قلتَ إن العلم وحده يغير العالم، لكنك لم توضح لنا طبيعة اتجاه التغيير، أهو سلبي، أم إيجابي... من المؤكد أن حافلة حمّادي، وشاحنة الإيطالي هما من منتوجات العلم، لكنهما ساهما في إفراغ القرية من البشر، والشجر. أهذا هو التغيير الذي جئت تدعونا إليه؟! اِسمع أيها السيد الغريب، اللّمة عادة من عاداتنا المقدسة، فكيف تقول إنها بدعة؟ أهل القرية أدرى بمصلحتها، واعلم يا سيدي، أن لا وجود لفعل فكّر عندنا، لأن ذلك من شأنه إثارة المشاكل، وزعزعة السائد من عاداتنا، ورفع القدسية عنها. ثم إن موقف أجدادنا من تحديث اللمة واضح لا غبار عليه، الوضع محسوم، لأن الأولين ما تركوا أمرًا إلّا تناولوه، وأصدروا فيه موقفهم. صار التفكير تبعًا لذلك مضيعة للوقت، ومحاولة جوفاء، فكان التحديث بدعة لا تُوصل إلى المطلوب. أما بخصوص نموذجك فإنه لا يلزمنا، لأننا نفهم في حدود ما ينفعنا، ولا يضرنا.

ينفعل موموح ويعبر عن عدم رضاه:

- أهي البلدة ما عادت تلك القرية التي حملت مجد الأعالي عاليًا؟ يظهر لي من خطابك يا شيخ الرُّماة أن القرية صارت مكانًا جنيسًا، ما عاد له نفس تأثير النسخة الأَصلية... من فضلكم جميعًا، حرروا عقولكم من كل القيود، ففي ذلك اكتساب القدرة على الوعي بكل الأشياء التي ستمكنكم من اختراع أدوات نهوض القرية.

وزاد قائلًا:

- لن ترضى أَرواح الذين أثثوا هذا المكان في الزمن الجميل، بأن تقام لمّتهم لتمرير خرافة صندوق الأدعية، التي أَطاحت بها ثورتهم الثقافية. إن لعبة صندوق "من يربح المليون" مجرد خرافة، وإن العرض التنموي ليس صدقة... بل هو خارطة طريق واضحة العناصر، توضع بذكاء شباب القرية انطلاقًا من مؤهلاتها وحاجياتها وتنفّذ بسواعد أبنائها الذين يستحضرون في كل المراحل غيرتهم على مصلحة قريتهم.

يستمر الصراع بتدخل شيخ الرّماة من جديد ليؤكد أن القرية ما زالت كما كانت، وأن الغريب هو من يريد تجنيسها حين يقترح عليها نموذجًا غريبًا ما كان عليه الآباء والأجداد.

يرد موموح محاولًا تهدئة الحوار:

- مهلًا يا شيخنا، الأمر ليس كما تظن، أنا أفهم أن أهل القرية ظلوا منقطعين عن العالم، لا يعلمون شيئًا عن مشرق الشمس ومغربها. اِعلم حفظك الله، أن أجدادنا اجتهدوا فاخترعوا لهم نموذجًا يلائم حاجياتهم الحقيقية، أما اليوم فعليكم أن تصنعوا لأنفسكم نموذجًا

جديدًا، يناسب الوسائل المتاحة، والأوضاع الجديدة، لأن ما كان عليه أجدادنا تلاشى، وتحوَّل إلى قصص تُحكى للأطفال.

تدخّل الفقيه "سي رحّو"، فبدا ما قاله وجيهًا، رغم أنه لم يكن مقنعًا بالنسبة لمموموح، حين أكد أنه ليس من عادة أهل قرى الأعالي السعي إلى الأشياء التي لا يفهمونها. ينظر في عيني مومومح ويؤكد بأن إغناء اللّمة بأنشطة مستحدثة لم تألفها الساكنة، هو ذريعة قد تفضي إلى ما لا تُحمد عقباه. ثم إن التغيير يستلزم الرغبة في الانتقال إلى واقع جديد. الأمر في حالتنا لا يستقيم يا عزيزي مومومح، لأن القرية تعشق الوضع الحالي، ولا ترغب في الخروج منه إلى نسق ترفضه.

أصاب الحرج مومومح حين وجد نفسه يحاول أن يفسر الحياة لأناس قابعين في مكان لم ير الشمس إلا قليلًا... لم يفهموا كلامه، لقد انقطعوا عن عالم الأنوار منذ أن سقطت رؤوسهم على صخور "تاوْرْطَا". صار الشك يراود عزم مومومح، كان يظن أن الرماة سيرتمون على اقتراحه ويحتضنونه، فإذا بهم يتطرفون في رفضه.

سكت الجميع حين وصل "بِيرُو" يركب دراجته، وقف الفقيه "سي رحُّو" و"شيخ الرَّمَا" وفسحا لسيادته في المجلس.

قبل أن يجلس الذي جاء في مهمة، جال بنظره عبر أرجاء الخيمة كأنه يبحث عن شخص معين. كان صوت أحدهم قد ارتفع مخاطبًا مومومح:

- كيف لك أيها الغريب العائد بعد غياب دام عدة عقود أن تسعى إلى هدم ما بناه أجدادنا الأولون، بناء يحمينا مما ابتدعه

الآخرون؟ هو صحيح أنك ركبت حافلة حمّادي، أما نحن فقد فاتتنا. لكن لا بأس، بالتأكيد لم تكن وجهتها تناسبنا، ولسنا على ذلك نادمين.

خاطب المتحدث مومَوح دون أن ينظر إليه، كل ما بدا يهمه هو إسماع "بِيرُو" موقفه حتى يعلم بمعارضته للغريب.

يرد موموح بقوة:

- أنا لست غريبًا يا هذا، أنا ركبت حافلة حمّادي دون أن أعلم وجهتها، أنا لم أختر الذهاب، أردت فقط أن أسافر حيث تتوفر إمكانية الإبداع... كل ما أريده اليوم هو مساعدتكم على هدم الجدار الذي يمنعكم من رؤية ما خلف القمم المحيطة بكم، والأهم من كل هذا وذاك هو أن القرية تمشي القهقرة وأنتم عنها غافلون. هل تتذكّرون شابّين هاجرا قرية "تُورتُوتّْ" طلبًا للعلم، ذهبا إلى عالم فاس وجامعتها المُوغلة في العتاقة، وكل ما كانا يحملانه من زاد هو حفظهما لكتاب الله؟

رد شخص من الحاضرين:

- نعلم قصتهم، ونعلم ما آلت إليه هجرتهم وهروبهم من العمل بالحقول... لا شيء. عادوا كما ذهبوا، ثم هاجروا مرة أخرى كما فعلت أنت وأترابك، وتركتم بسطاء القرية يواجهون تبعات سخط "الأشراف"، و"الأولياء"، و"السّادات".

قال موموح موضحًا:

- هربوا! لا يا سدي، ليس صحيحًا، هم رحلوا حيث الأنوار. ثم إنه لا يرحل إلا ذوي العزم المتفوقين. ما لا تعلمونه يا سادة هو أن هجرة الشابين مكنتهما في الواقع من الحصول على بذور ثورة

ثقافية ضربت المنطقة ضرب الزلزال، وساهمت في تحريرها من بعض الحيوانات الخرافية.

يحكي مومموح لأهل "تَاوْرْطَا" كيف ساهم الشابان في محاربة الأساطير، والخرافات التي كانت متمكنة من القرية، وكيف كانت هجرتهم مفيدة في صناعة وعي جماعي جديد كان له الأثر الحسن في تحرير بعض العقول بأم قرى الأعالي.

يقص مومموح على الحضور بالخيمة حكايا من زمن جميل مضى وانقضى، حكايا أراد أن يضع بها أمامهم مرآة الحقيقة حتى يروا فيها واقعهم، فيقتنعوا بأن من سبقوهم بحثوا فعلًا عن نموذج آخر لقريتهم فوجدوه، وأن على الرماة الجدد العمل من أجل استعادة ما فقدوه.

كان مومموح حاضرًا وشاهدًا على الأحداث التي يرويها، فلم يجد صعوبة في استحضار بدايتها في يوم من أيام الصيف. كان اليوم يوم جمعة، فتوسط "سي الحُسين" جماعة وهم جلوسٌ بالمسجد، وصار يحدثهم بأمازيغية بسيطة في أمور الدين والدنيا.

قام "سي الحسين" ليعض الحاضرين ويفقههم، قال:

- إن التبرك ب "الأشراف" والأضرحة هو شرك بالله، ورجس من عمل الشيطان، فابتعدوا عنه لعلكم تفلحون.

بهت القوم وكأن على رؤوسهم الطير حين فهموا أن بعض سلوكياتهم بعيدة عن الدين الحقيقي.

صار لأحاديث الجمعة، ولجلسات ما بعد العصر جمهور يتحلّق حول "سي الحُسين"، وصاحبه "سي أحمد" بالمسجد أو

بصحنه، كما كان لأفكارهما الجديدة بالغ الوقع على نفوس أهل القرية الذين لم يتوانوا في تطبيق الأفكار الجديدة على أرض الواقع.

حل بِالقرية، في النصف الأخير من أيلول، قوم قيل إنهم من "حُوط لْمَا" يُدعوْن "آيت سيدي رحُّو"، ولهم بالقرية دفين يتبركون به في نهاية كل حصاد بإقامة الولائم، وذبح القرابين لوليّهم الصالح صدقةً تدفع عنهم البلاء، وتزكيهم، وتبارك لهم في الأموال والأولاد!

جاؤوا رجالًا ونساءً، شيبًا وشبابًا، مرفوقين بكلابهم ومحمَّلين بالزاد والعتاد، يبيتون بالعراء معتكفين لمدة سبعِ ليال كاملة على جنبات "سيدهم" ذي الضريح المقدس.

كان الجو جميلًا، حين غادر "أمغار" مرفوقًا ب "سي الحسين" و صديقه "سي أحمد" المسجد بعد صلاة العصر. توجهوا إلى ضريح "سيدي رحُّو"، طلبوا التحدث إلى شيخ الموسم. خرج إليهم من الخيمة رجل ظهر الوقار على محيّاه الذي تزينه لحية طويلة.

ألقى "أمغار" التحية:

- السلام عليكم يا شيخنا.

رد الشيخ التحية، رحب بالزائرين، وطلب منهم التفضل بالدخول إلى الخيمة.

قال "سي الحسين" الذي اصطبغ وجهه بسحنة عدم الموافقة والرضا:

- ما جئناكم للجلوس بخيمتكم، قدمنا بإيعاز من جماعة القرية وفقهائها، لنخبركم أن ما تقومون به فوق تراب القرية من طقوس

وولائم هي أفعال حرام. لذا، فإن الجماعة تطلب منكم الرحيل عن البلدة وألا تعودوا إليها أبدًا من أجل معتقداتكم التي لا قيمة لها.

رد الشيخ الذي تفاجأ بموقف أهل القرية بأن أهله ألفوا زيارة الضريح وذبح القرابين وإقامة الولائم منذ عهد قديم، وأن أهل القرية شاركوا في الموسم، وكانوا له على الدوام ضيوفًا زائرين. رمى الشيخ بجناحي سلهامه خلف ظهره، تقدم خطوة، وأردف وقد اصطبغ صوته بشيء من الغضب:

- نحن أحرار في أن نعتقد ما نشاء، أهلي يعتقدون أن جدّهم، دفين قريتكم، كان وليا صالحًا، يخلصون له، فيجلب لهم ذلك السعادة والأمل، ولا يضركم ذلك في شيء. ثم لماذا تتجاهلون دور موسمنا في تنشيط الدورة الاقتصادية لقريتكم، ورفع رقم معاملات دكانها التجاري، وتأثيره الإيجابي على تنمية العلاقات بين عائلات قريتينا؟ إن الحرام أيها السادة هو محاولتكم إثارة الفتنة والتوتر بين قبيلتينا.

عبر الشيخ عن استغرابه وعدم استيعابه للموقف الجديد مؤكدًا أن "آيت سيدي رحُّو"، في كل الأحوال، لن يغادروا حتى يؤتوا سُؤْلهم، ويتخيل لهم أن القط يسعى...

نزلت فتوى "أهل فاس" على أحفاد "سيدي رحُّو" كالصاعقة. تفاجأوا بالموقف الجديد الذي مس معتقداتهم في الصميم.

نسي أهل القرية أو تناسوا هذه المرة دعوة "الأشراف" لهم لازدراد لحوم القرابين. تمت المقاطعة... وتمنعت القرية عن محاولات التطبيع طوال السنين الموالية... الى أن مات "سِيدْهُمْ رحُّو" مرة أخرى، وتحول ضريحه الى ظل ظليل للقيلولة.

تدخّل "بِيرُو" مقاطعًا، ليشير إلى أن أفكار الشابين لم تكن ثورة ثقافية، بل كانت بداية غزو الوهابية للمنطقة كلها ومحاولة احتكارها للدين.

يرد مومُوح بديبلوماسية واضحة:

- ما تقوله صحيح يا سيدي، لكن السياق بالقصة هو الثورة ضد الخرافة، والمواقف بهذا الخصوص شخصية تكفلها حرية الِإعتقاد مهما تكن قيمتُها، ولا تهدف القصة إلى أكثر من سرد أحداث، ووصفها، وإستغلالها للتعريف بالمنطقة. وفي جميع الأحوال، فأهل القرية اعتبروا، وقتها، الأمرَ تحوُّلًا جوهريًّا، وانتقالًا من نمط للاعتقاد إلى أسلوب جديد للتفكير.

لقد صار أهل القرية ينتقدون... وهنا فقط تكمُن الثورة.

من خلال سرد ما كان من سيطرة الخرافة على العقول بقرى الأعالي، يواصل مومُوح محاولته إقناع أهل الخيمة بقرية "تاوْرطَا" بضرورة تطوير أدواتهم الثقافية... فيحكي عن تجربته الشخصية ومعاناته المريرة مع الخرافة.

في صباح من صباحات الصيف الجميلة ذات السماء الصافية، يسير الطفل مومُوح رفقة أمه على الطريق النازلة من "عين دّْجيرْ"، بعد أن قضيا الليلة بالخيمة عند الخالة "تلايتماس"... تأخر الطفل حين صار يقرأ آثار رجليه الحافيتين على الطريق الشديدة الاغبرار. استعجلته أمه متهكمة وهي تقول:

- أراك كالصياد وهو يقتفي أثر الخنزير البري... وما يدريك لعل من تبحث عنه هو منك قريب.

اِستنفر الطفل ساقيه فارًّا من خوفه، ومن الغبار من خلفه... حتى إذا لحق بأُمه صار ينفض الغبار عن تلابيب قميصه، فتنهره قائلة:

- يا بني لا يستحسن نفضُ ما علق بثوبك من غبار (إيسُوبَّانْ). إن الغبار تراب، والتراب يعني المال الوفير... ونحن في أمس الحاجة لفأل نستبشر به خيرًا.

نظر الطفل الى أُمه نظرة استفسار، ولم يعلق.

فجأة تخرج الأمّ عن الطريق في اتجاه شجرة مسنة فارع طولها، تكاد تفقد كل أغصانها، بدا جذعها فضي اللون يكاد يصير أبيضًا، بارزة جذورها المستلقيات فوق الأرض في التواء، يحسبها الناظر أفعى نائمة...

وقفت أمُّ الطفل مومو في احترام وخشوع تامّين عند الشجرة، واقتطعت من ثوبها خيطًا ربطته بأَنحف الجذور، وأزالت الغطاء عن "تَاقْبُوبْتْ"، وأخذت منها بعض الجبنة بيدها، وألقت به بحنية فائقة على أسفل الجذع، وصارت تتمتم متضرعة ترجو البركات.

بهدوء، كأنها لا تحب إزعاج راحة الجذور، ردت الأم على التساؤلات التي بدت واضحة في عيون صغيرها:

- إنه "سيدْشْ بُوقنادْل" سيّدك أبو القناديل... يا بني، لا تفوّت الفرصة، اِلتمس منه أن يحفظك ويبارك لك في دراستك. إنه ولي من أولياء الله الصالحين، من المؤكد أن بركته ستصلك إن طلبتها منه.

لم يرد الطفل على هلوسات أمه، كان يفكر في طبيعة العلاقة الممكنة بين اسم "الولي الصالح" والمكان. اِسم في لغة أخرى،

وليست هناك علامة تفيد وجود ضريح كما هو متعارف عليه. أيكون أبو القناديل هذا قد مر من هناك واستظل بأشجار المكان وانصرف؟ فصار الناس يتبركون بذكرى جلسته.

جاءت أفواج النمل تنسل من كل حدب في اتجاه الجبنة، فوقف مومو ح ينظر باستغراب شديد الى أمه التي لم تقم بأدنى حركة لصد الحشرات المُعتدية على حقوق الولي الصالح المُقدس.

حزن الطفل كثيرًا، وأشفق من حال أُمّه، وقد تأكد من كونها قد علقت وتعلّقت بشبكات لا يجد لها معنى، فأكمل الطريق في اتجاه القرية دون أن ينبس ببنت شفة...

يتدخل "بِيرُو" مقاطعًا مرة أخرى:

- هل أتممت حكايتك الخيالية أيها الغريب أم ليس بعد؟ ثم قل لنا كيف ساهمتَ بعد ذلك في إقناع أمك بأن الشيخ "سيدي بوقنادل" خرافة لا قيمة لها.

قال موموح وقد أغاضه نعته بالغريب:

- لست بالغريب يا سيدي، وأنت بحكم موقعك تعلم ذلك جيدًا... جلستُ بالمسجد إلى حلقات شابَّي قرية "تُورْتُوتٌّ"، ففهمتُ وأفهمتُ أمّي كل شيء.

قال شيخ الرُّماة وهو يُربِّت باعتزاز على كتف "بِيرُو":

- بين البدع والإبداع فرق أوهن من بيت العنكبوت... ثم إن للقرية أولياء أمرها الذين يحمون عاداتها من بدع الغرباء.

أعطى بذلك شيخ الرُّماة لموموح فرصة لم يكن ينتظرها، رغم أنه لم يكن ينوي قول كل شيء. أهداه إمكانية الإفصاح... فكانت فرصة ساءل موموح من خلالها ولاة الأمر بقرية "تاوْرطَا"، عن

دواعي قرارهم دفن العيون الجارية، ونقل مائها عبر الخراطيم المطاطية ليشرب الأطفال عكَر الصنابير الحائطية، ولإهاجة نباتات القرية، وإيباسها، وحرمان طيورها من نعمة الارتواء، والحكم عليها بالانقراض.

كما استفسر مومو‌ح أهل الحل والعقد بِ "تاوْرطَا" حول معايير اختيار أماكن حفر الآبار التي خضعت، حسب بعض التصريحات، لأنانية بعض ذوي النفوذ.

أشار فتى تاحفورت إلى أن ترسيخ الطابع الروحي للمة الأَكل بقرية "تاوْرطَا" لا يكفي لإنعاش منطقة معزولة ومحرومة من كل شيء، كما حاول إقناع الحضور بضرورة العمل حتى يستعيد الصحن الخارجي للمسجد عشبه، ليُغري اخضرارُه أَهل القرية بالجلوس بعد صلاة الجمعة ليتقاسموا كل شيء.

يواجه موموح الحاضرين باستفسارهم إن كانوا أقل همة وحبًّا للعمل من أجدادهم الذين قرروا في مقاربة فريدة من نوعها بناء الطريق الرابطة بين "أمُورْغُو" وقريتهم. فاوضوا القائد حول الترخيص بفتح الطريق، وتقديم الدعم والمساعدة، وحلحلة المشاكل، والمنازعات المرتبطة برسم مسارها، وساهموا جماعة في إنجاز المشروع.

يتدخل "العازِي"، أحد الرُّماة المعروف بمعارضته لكل شيء، والذي طُرد من وظيفة عون الخدمة التي كان يشغلها بجماعة "البِيرُو" بسبب نقابيته المفرطة، وآرائه المتطرفة، وعقليته المتعصبة، فعاد إلى "تاوْرطَا" بصفة نهائية وفقًا للمعلومات التي استقاها موموح من صديقه "عصُّو"...

كان "العازي" في سن اليأس، قصير القامة، يلبس ثيابًا متواضعة، سروال جينز ابيضّ على مستوى الركبتين، وقميص تآكل عنقه. ينتعل حذاءًا اغبرّ حتى اندثر سواد جلده. يضع على رأسه طاقية سوداء تشبه قبعة جيفارا. يحمل حاجبين غليظين يعكسان شخصية صاحبهما. لم يكن حليق الوجه، له شارب على شاكلة حدوة الحصان، خالطه البياض، وامتدت أطرافه إلى الأسفل دون أن يصل إلى الذقن.

يسعل النقابي بقوة ظاهرة سعالًا متكررًا لإزالة الدخان من رئتيه، وقد بانت علامات التوتر النفسي على وجهه. كان يدخن سيجارة يظهر من لفافتها أنها من النوع الرديء، كما ظهر أنه مدخن شره كما يشير إلى ذلك اللون الأصفر الغامق لأصبعي السبابة والوسطى.

يشرب دخان سيجارته، يبدو كمن يسبر أغوار الوجود باحثًا عما سيقوله، وكأن اللفافة هي عصب تفكيره، وينفث دخانه إلى الأسفل بقوة فيخرج من فمه كما يخرج الدخان الأبيض من عادم السيارة.

يتعجب مومو ويتساءل كيف لهذا الإنسان ذي الشخصية المهزوزة أن يكون نقابيًا يستطيع التحلي بالموضوعية، والمرونة في طرح المشاكل واقتراح الحلول؟ كيف له أن يكون مخلصًا لقضايا الشغيلة، ويتمتع بالوعي الحقيقي، ويمتلك شخصية مؤثرة تقنع العمال والمشغل؟

تدخل "العازي" ليقاطع مومو رافعًا سبّابته اليمنى واضعًا عليها يده اليسرى في إشارة لنقطة نظام وكأن اللّمة في اجتماع رسمي.

سأل أحد الرماة الرامي الذي بجانبه مستفسرًا إياه عن دلالة هذه الإشارة الغريبة التي لم يسبق له أن رآها. أجاب الرامي قائلًا:

- ومن أين لي أن أعرف معنى الحركات التي يقوم بها هذا الأحمق؟ أُنظر إليه كيف يدمر صحته، ويعبر عن انحرافه الأخلاقي بشرب دخان سيجارته. سيأتيك الخبر بما سيؤول إليه أمره، خبر سينتشر كما يتصاعد الدخان من فمه. لم يعد يدخن إلا السذّج العاجزين عن مقاومة الرغبة في استنشاق السموم.

قال "العازي" دون أن يأذن له شيخ الرماة بالكلام، بأن عهد استغلال المواطنين المنكسرين أمام القهر قد ولّى، وأن على "البيرو" أن يهتم بالبادية على مستوى التجهيزات والخدمات، حتى لا يضطر الضعفاء إلى ركوب حافلة حمّادي... فتنقرض القرى. زاد "العازي" موضحًا أن عهد "تْوِيزِي"، رغم حسناته كنظام تشاركي وتلقائي، ما عاد صالحًا بعد أن استغله أذناب "البيِرُو" القديم، وعملاؤه لفائدتهم ببشاعة ظاهرة... خاصة في مجالات الحرث، والحصاد، والدرس، وجني الزيتون، والبناء، وكل الأشغال الكبرى، من خلال الضغط والتخويف، أو إحراج أهل المنطقة في أحسن الأحوال. يختم مؤكدًا على أن القرية تعيش كجماعة، هي ليست مجتمعًا، وكل نموذج لا يأخذ هذا الواقع بعين الاعتبار سيكون مآله الفشل.

بعنف لفظي ظاهر، وبصيغة القمع المبطن، يقاطع شيخ الرماة "العازي" وهو يخاطبه:

- منذ أن عرفناك وأنت تفسد علينا الهواء بالخيمة بدخانك، وترفع لاءاتك في وجه كل شيء، وتملأ فضاءنا بصيحاتك النابية، واتهاماتك التي لا تنتهي، وتزعج آذاننا بمصطلحات الأذناب

والعملاء والأعوان، ثم نجدك تعانق من تتهمهم وتخطب ودّهم في الخفاء. اِلزم حدودك من فضلك، ولا تعكر صفو لمّتنا.

موموح لم تعجبه تدخلات "العازي" فخاطبه بصيغة الاتهام المبطن:

- رغم أنني أجدك جريئًا ومنطقيا، إلا أنني أراك تهوى العيش تحت ظلال الشعبوية وتدفع في اتجاه الفوضى العارمة...

يرد النقابيُّ بحماس:

- هي فوضى خلَّاقة، نريد خلقها للدفع في اتجاه إنتاج نموذج يحسّن من الوضع الاجتماعي للعنصر البشري.

بلغ السيل الزبى، كما يقال، حين صار "العازي" يمجد الفوضى، ما دفع بموموح للرد قائلًا:

- هي فوضى للتغطية على رداءة الموارد البشرية أيها السيد "العازي". أي نعم، فوضانا سارت بها الركبان، مِن نهوض الأصولية إلى ازدهار الوُصولية، ومِن ضجيج الشعبوية إلى القناعة باتباع السائد من العادات والأفكار المحنطة، وعوض تقديس العمل صار عشقُه سُبّة، وأصبح إعمال العقل تهمة.

يخاطب موموح جميع الحاضرين:

- أليس فيكم ذوو مهارات يقدرون على استجلاب الدعم الجماعي من أجل خلق لغة للأفكار الجديدة؟ أقصد أفكارًا تحلحل صعوباتكم الحياتية، وتستجيب لحاجياتكم الحقيقية وتطويرها من خلال استكشاف غير الظاهر منها.

يرد "العازي" وكأنه غير معني بما قاله موموح:

- عن أَيّ دعم جماعي تتحدث يا مومو ح؟! من كثرة النظر حصريا جهة الشرق عميّت الأبصار، وازدهرت العادات حدّ ترقية الأكل إلى درجة القدسية كما ترى.

يتدخل "أمناي" مخاطبًا "العازي" وهو يقصد إحراجه وقال:
- وما موقعك أنت من الإعراب في جملة التغيير؟

أجاب "العازي" بذكاء:
- ومن يستطيع أن يجد لنفسه موقعًا وقد عمّ الضّجيج الخرافي حتى أحاط بكل شيء... العادات عصية على التغيير.

يعلق موموح متأسفًا:
- ما الحل إذًا؟ والمعوّل عليهم يتأسفون على ما آلت إليه الأحوال، ويجيبون ب "الحمد لله على كل حال"؟ أرى أننا في أَمس الحاجة إلى "شيء" سحري غير قابل للإفساد والفساد، شيء يمدنا بالقوة المعنوية لنكران الذات، وتغليب المصلحة العامة.

سكت الجميع حين وقف "بِيرُو" مخاطبًا اللمّة:
- اِسمعوا من فضلكم... الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، نحن على أبواب سنة رائعة، "العام زِينْ". من أجل الحفاظ على نعمة الاستقرار فإن الهدوء مطلوب، وتعدد الآراء مرغوب، واللمّة قد تأتي وتغيب، هي فرصة سانحة للتلاقي، وصلة الرحم، وتقاسم ما لذ وطاب. وفي كل الأحوال فإن الحوار مفيد والاختلاف يغني التداول حول القضايا التي تهم العيش المشترك بالقرية.

يتدخل الفقيه "سي رحُّو" ليزكي أقوال "بِيرُو"، وليحاول ترطيب الأجواء، مؤكدًا على أن اللمّة هي كذلك مناسبة لذوي النيات

الحسنة لتقديم الدعم و"المعاونات" لإصلاح المسجد، والمساهمة في تحسين ظروف استقبال المصلين.

لاحظ مومو ح أنه، منذ حلوله بخيمة الرُّماة، وكلما خاطب أهله بلغتهم الأم، إلا وحاوروه بلغة أخرى. حاول استفسار الحضور عن إمساك الخيمة عن استعمال لغة المكان، فقال:

- هل يوجد بيننا أحد لا يتقن اللغة الأمازيغية؟

يجيبه "عصُّو" بأن الحاضرين بدون استثناء يتحدثون الأمازيغية جيّدًا.

يرد موموح بصيغة الاحتجاج ويقول:

- فلماذا تردُّون على حديثي معكم بالأمازيغية بلغة أخرى؟ الأمازيغية يا سادة، هي اللغة الأقرب إلى قلوبنا، هي لغة أجدادنا، هي اللغة التي تتحدث بها ذاكرة الأرض... وإن لم نتداولها بيننا ستنقرض حتمًا.

يتدخل "العازي" موضحًا أن اللغات الأخرى تُمكّن من رؤية العالم بطرق مختلفة، ومتنوعة تمثل الحقيقة البشرية. ثم إن التنوع اللغوي يتيح التفكير بشكل مختلف، ويوفر التحفيز المعرفي، وسهولة الحصول على فرص العمل.

يرد موموح قائلًا إنه ليس بصدد الحديث عن امتلاك لغات أجنبية أخرى، هو يقصد فقط ضرورة إستعمال اللغة الأمازيغية بالقرية، اللغة التي أخذناها عن أهلنا، والتي نستطيع بها فهم ذواتنا، والتعبير عن أفكارنا.

لكن "العازي" يرى غير ما رأى موموح، ويرد قائلًا:

- ظروف تنزيل الأمازيغية صعبة، وقد يتطلب ذلك وقتًا طويلًا.

تفاجأ मوموح بإصابة "بِيرُو" الحق حين قال بأن الحاجة إلى اللغة الأمازيغية أصبحت ملحة لحماية بعض الفئات التي لا تستطيع التواصل سوى باللغة الأمازيغية، خاصة في مجالات التقاضي، والصحة... مؤكدًا أن الصعوبة ما تزال مطروحة بالنسبة للنساء وبعض الفئات العمرية.

لكن موموح يوضح بأن ذلك يمثل حاجة واحدة من حاجيات كثيرة، وجب الاشتغال عليها لتنزيل رسمية اللغة الأمازيغية. فالتصورات الإجرائية كثيرة، وإحداث آلية وطنية للإشراف والمواكبة صارت ضرورية لتقييم وضعية الأمازيغية في منظومة التربية والتكوين والإنتاج الثقافي والفني الأمازيغي.

يتدخل "أمناي" مخاطبًا موموح:

- ألمْ تنتشلك حافلة حمّادي من الضياع حين حملتك من مكان إلى مكان، وتعلمت لغة أخرى ساعدتك على تغيير قشرتك الأولى؟ ألمْ تكن لغة "الْبِيرُو" هي من أزالت الغشاوة على عينيك، فرأيت العالم؟

يرد موموح مستفسرًا:

- ماذا تقصد بلغة "البِيرُو"؟

يجيب "أمناي" مؤكدًا:

- أقصد لغة المستعمر التي قال عنها أمثالك بأنها "غنيمة حرب"...

تبسّم موموح ضاحكًا وقال:

- "غنيمة حرب"! بل المستعمر الحامي هو من غنم حضور لغته، وما زال يستفيد من غنيمته. أما بخصوص سؤالك، فجوابي لا هذه ولا تلك. لولا لغة أمي لما تمكنت من رؤية العالم وفهمه، الكلمات الأمازيغية هي مفاتيح تحريك مشاعري، هي الأدوات والمواد الأولية التي تتيح بناء صورة حقيقية للعالم.

أثار مومرح انتباه الحضور بالخيمة إلى أن الجيل الحالي بقرى الأعالي أقل عزمًا وحزمًا من أهل الحل والعقد القدامى الذين انتبهوا إلى موضوع اللغة بالمدرسة. فطفق يحكي عن مجهودات القدامي وطموحات أطفال ذلك الزمان.

وقف التلميذ مومرح بين يدي جدّه وقال محتجًّا:

- تمنبت يا جدّي لو كان معلمي السيد "السوماتي" المحترم يتحدَّث إلينا بالأمازيغية، لكننا لا نفهم ما يقول. اِبن خالتي "علي" قال إن المدرسة غريبة لا تشبه القرية.

ردّ الجدّ وقد لاحظ قلق حفيده:

- كيف تكون المدرسة غريبة ونحن بنيناها بسواعدنا؟ السيد السوماتي معلم ومربي، لو لم يكن يعرف جيّدًا عمله لما تمّ تعيينه ليعلمكم. عدم فهمك ربما يرجع إلى عدم انتباهك.

انصرف الطفل مومرح دون أن يتفاعل مع تساؤلات جدّه...

جلس التلميذ مومرح بالقسم وقد راودته الأفكار والأحلام عن عقله الساذج. صار في يقظته يحلم وكأنّه جاء في صفة معلم بالأمازيغية حتى يُذهب الخوف عن رفاقه الصغار. لم ينته ممّا هو فيه إلا بصرخة... بل بكلام غريب من المعلم وهو يلَوِّح بالمسطرة كما لو كان مهددًا.

استيقظ موموح من وهم حلمه، ليكتشف الإطار الجديد... إنه بديل نظام أمّه، ولا قِبل له بتحطيمه... قال محدّثًا نفسه:

- "فانصب حرَّ وجهك للهجير" يا موموح، إن الصبر أَجمل بك.

انتشر خبر خوف الأطفال بين الآباء، فقرروا رفع الأمر إلى مجلس "الجماعة" في اجتماع طارئ بعد صلاة الجمعة.

قرر أعيان القرية تعيين "مكلفين بالدراسات" ومترجمين يرافقون المعلم، بالتناوب، في تبليغ اللغة الوطنية "الأولى" للأطفال. يحضر أَحد فقهاء القرية دروس السيد "السوماتي" ويترجم ما يقوله المعلم بالعربية إلى الأمازيغية، فصارت الدروس مسلية لموموح ولرفاقه كما هي الرسوم المتحركة لأطفال اليوم.

يتذكّر موموح جيدًا إحساسه بنشوة انتصار متّهم لم يرتكب جرمًا، لقد عين أَهله محاميًا ليرا فع عن هوية موموح.

لم يحصل موموح على البراءة الكاملة، ولم يقبل أَهله بوقف التنفيذ ...فسافر كبار القوم إلى "البِيرُو" ليشتكوا عجز المعلم التواصل مع أَحفاد مازغ.

تَمَّ، في السنة الموالية، تعيين شاب أمازيغي من قرية "أمُورْغُو" يحمل الشهادة الابتدائية ليُدرِّس الأطفال العربية و"العجمية"، وتلك سيرة أخرى.

يواصل "أمناي" استفزاز موموح قائلًا:

- رغم قصتك القديمة، فإن انتصار أهلك كان وهميًا. الوضع الحالي يحكي الحقيقة. فمدرسة لغة أمك ولغتك "الأولى" بتاحفورت أغلقت أبوابها، لكن فضاء لغة الأجنبي، كأداة للغزو الثقافي اتسع، وازدهر، وما يزال.

يعلق مومو قائلًا:

- هو صحيح ما تقوله، لكن الأمازيغية الضاربة في الأعماق هي التي نقشت في ذهني الوعي بكل شيء. ثم إنني غير متأكد من أن اللغات الأخرى قادرة على احتواء الحمولة القوية لكلمات اللغة الأمازيغية؟

يؤذن إمام مسجد قرية "تاوْرطَا" لصلاة العصر، إنها فرصة الفقيه "سي رحُّو" الذي تدخل قائلًا:

- على قول الله أكبر، قل لنا أيها السيد موموح، بأي لغة يُلقى الأذان الذي نسمعه الآن؟

يرد موموح الذي استفزّه سؤال "سي رحُّو":

- لا تزايد علي من فضلك، أنا أرفض الخوض في الموضوع، أنت تعلم حد اليقين أنني أتكلم في سياق آخر، يخص تداول الأمازيغية حتى لا تنقرض... أنا مغربي مقتنع جدًّا بدور الدين في تلاحم الأمازيغ والعرب، حتى صاروا شعبًا واحدًا يتقاسم أفراده كل شيء.

بعد صلاة العصر، عادت الخيمة للالتئام وعاد موموح لينهي مرافعته حول مشروع النموذج الذي يحمله... يؤكد فتى تاحفورت على أنه ليس غريبًا ولا متطفّلًا، هو ابن الحدّادين وله بالمنطقة مثل ما للحاضرين، ثم إنه لا يحلم بالصعود إلى سطح القمر، هو فقط رجل يحمل حلمًا بسيطًا.

يعود "العازي" إلى واقعيته الصعبة، ويقول:

- يا سبحان الله، ازدواجية واقعك يا موموح فرضت عليك الحلم كحل وسط لإرضاء رغباتك المتصارعة.

متهكمًا يعلق شيخ الرماة على حلم موموح:

- على الرغم من أن الوقت المخصص لطقوس اللمّة لا يسمح، وحيث أن ما تحمله إلينا هو مجرد حلم فقط، سنتيح لك الفرصة لعرض التخيلات التي رأيتها أثناء نومك؟ وفرضتها عليك نفسك لإشباع رغباتها الصعبة. سننصت إليك، رغم أنني متيقن أن الرماة لا يتقنون فن تفسير الأحلام. لا بأس، ما هو حلمك؟

يرد موموح:

- أن تقبلوا فقط بعجن خبزكم بمادة خميرتكم الرمادية، حتى تجعلوا العالم ينتبه إلى جمال قريتكم. كما أنني أحلم بالإصغاء لخطبة الجمعة تُلقى بالمسجد... بلغة أُمّي.

مؤكدًا على أن الصعوبات التي تعيشها القرية ليست كلها بسبب "البِيرُو"، بل إن جزءًا كبيرًا منها يوجد بين الرماة. ينهي موموح كلمته مخاطبًا الحاضرين:

- اِستفيقوا من فضلكم، ألا تشعرون بالخجل من هذا الكمّ الهائل من الجهل ورفض الحقيقة، الذي يسيطر عليكم؟ تنتقلون من غفوة إلى غفلة وأنتم لا تعلمون أن النموذج الحالي للمّتكم لن يغير من واقعكم شيئًا.

أنهى موموح تدخله، عمّ الصمت بالخيمة، وشوشة استخباراتية خفيفة بالصف الأمامي حيث يجلس "بِيرُو" الذي استدار ليلقي نظرة تفحُّصية على موموح.

حديث خافت بين "بِيرُو" وشيخ الرماة دام بضع ثوان، ظهر واضحًا أن الأخير يتلقى تعليمات.

مباشرة، يعبر شيخ الرماة عن اعتراضه قائلًا:

- أنا شيخ الرماة، أنا الناطق الرسمي باسم قرية "تاوْرطَا" وأدرى بمصلحتها... وبصفتي تلك، أنا المخول الوحيد لاتخاذ القرارات والمصادقة عليها. وتبعًا لذلك، فإنني أخبرك أيها السيد موموح بأن نموذجك هو مجرد حلم لا أراه يرقى إلى طموحاتي رغم براعتك في التقديم والترافع. أنا أعرف جيّدًا حاجيات قريتي. هي في أمس الحاجة إلى الترقّي الروحي، وهو، كما تعلم، محفز أساسي على العمل والاجتهاد.

يرد موموح بتحدٍّ مبطن:

- الزعامة بالمفهوم الأمازيغي لا تكون بناء على طموحات فردية، هي تتم من خلال آلية الاختيار الذي يعتمد معايير الكفاءة، والشجاعة، والقدرة على الإبداع، والخطابة، والاقناع. ثم إن الأمازيغي ينزع بفطرته نحو السلوك الجماعي القائم على المشاركة الإيجابية للجميع وفقًا لمنهجية التناوب.

يتدخل "أمناي" معبرًا عن استيائه، وهو يخاطب موموح:

- واضح أمرك أيها الغريب، أنت جئت لتحرض الخيمة على شيخ الرماة... كما يظهر واضحًا من حماسك الذي يفضح نواياك، أنك بصدد القيام بحملة انتخابية سابقة لأوانها.

متهافتًا يتدخل "العازي":

- (آشْ مْنْ تحريض حتى نْتَا الله يَهدِيكْ)، نظام الشيخ بقريتنا يعتمد تجربة الأقلية، حيث يتخذ أمغار القرارات بمساعدة "مْقْدّْمْ الرّْمَا"، و"لَمْسِيّْح"، وبعض النافذين. هذا وضع لا يستقيم، لأن الديموقراطية الحقة ترتكز على إعمال العقل في تدبير شؤون القرية،

وهي تقام على إشراك الجميع والتداول السلمي على ممارسة اتخاذ القرار، وتُبنى على قبول الاختلاف، وتدبير التعدد في كل شيء.

بعد التزامه الصمت لدقائق، يجد "سي رحُّو" الفقيه نفسه مضطرًّا للتدخل، قال معلقًا على كلام "العازي":

- يا الله آ سْيادْنا، تْلَاقَاوْ مْعَاهْ (يقصد العازي)... سمعتهم ب"البِيرُو" يتحدثون عن العجب الذي ذكرتموه (الديموقراطية)، وقال بعضهم، إنه نظام جاءنا من "الغرب" البعيد... إنهم واهمون، لأن الديمقراطية هي إنتاج إنساني، إنها نظام جاء به ديننا الحنيف تحت مصطلح الشورى. ثم إن شيخ قريتنا يستشير الجميع.

يوضح مومـوح قائلًا وهو ينظر إلى "أمناي":

- لا يا سيدي، أنا لست محرضًا، أنا أدعو فقط إلى الاحتكام إلى الديموقراطية، لا تهمني ديمومة الكرسي، ولا أهتم لأسباب وشروط تعيين شيخ الرماة... اطمئن يا سيدي، أنا أحترم الجميع، موموح لن يترشح أبدًا، أنا لا أشتغل على السياسة. أنا أعلم أن أهلي كانوا ديموقراطيين، وأعرف أن للديموقراطية عند الأمازيغ دلالة مختلفة عن غيرها من الممارسات البشرية. لكن، ماذا يضير لو سلكنا مسلك أجدادنا، مع العمل على تطوير ما ورثناه عنهم. ثم، أين يكون الضرر لو استفدنا من التجارب الإنسانية.

مرة أخرى، يهمس "بِيرُو" إلى رئيس الرماة بشيء غير مفهوم.

اِقترب شيخ الرُّماة من موموح وهو يحرك يده مادًّا سبابته في اتجاه الغريب، وخاطبه بصيغة الاتهام:

- اِعرف قدرك يا هذا، أنت بالكاد تكون غرابًا لم تعجبه القرية فغادرها منذ عقود، لكنه لم يستطع أن يحلق بعيدًا... فعاد. عدت إلينا بعد أن اصطدمت رأسك هناك بعمود غير مضيء، بطريق غير نافذ. عدت تبحث عن آثار أقدام جدك لعلها تدلك على الطريق. أتُراك ضللت وجهة أَمرك، أَم ظننت أَن آثار أقدام جدك قد طمستها الرياح؟

وقف مومو ورد قائلًا:

- أنا استبصرت الأمر جيدًا، لم أجد آثار جدي، لقد اندثرت، لكنني رأيت القوم بالخيمة ومِن حولها، ما زال القديم يسكنهم، هم على الدوام يرعون تمائم جدي القديمة... هم يؤمنون أَنها تصد عنهم كل الرياح وكل الشرور.

رد شيخ الرماة وقد ولّى ظهره مومو معلنًا عن نهاية الصراع، وقال متسائلًا: لنفرض جدلًا أن أهل "تاوْرْطَا" اقتنعوا بضرورة اختراع نموذج جديد وفقًا لحلمك، فهل ستسعفهم جغرافية المكان برعاية الحلم وتحقيقه؟

رأى مومو وسمع... ففهم كيف يريح الخوف والجهل أهل القرى، هم مقتنعون بأن في ذلك فرصتهم الوحيدة للعيش باطمئنان.

تأكد من أنه لن يشعر بالرضى وهو يصارع أشخاصًا يقفون على أرضية مختلفة وعلى مسافة بعيدة، وتعجب من قبولهم العيش محبوسين في قوقعتهم، ومن إهمالهم لأنفسهم كل هذا الإهمال. وصار يخاطب نفسه:

- ما الذي أصاب أهلي، أهو الجهل حرمهم من نعمة التفكير، أم هي الأمّية منعت عقولهم من استشراف التغيير؟

أحس فتى تاحفورتْ أنه في غير سربه، اِبتلع ريقه ولم يرد، حمل غصته في حلقه وهمّ بالانصراف.

وقف الفقيه "سي رحُّو"، اِستبق ذهاب مومرح، أخذه من ساعده وقال:

- من فضلك لا تغادر قبل مشاركة الرماة وليمتهم، ليس من آداب اللمّة أن تفعل ذلك.

يسحب موموح ساعده من يد "سي رحُّو" وهو يقول منصرفًا:

- الأكل، الأكل... ولا شيء غير الأكل! في العرس تأكلون، في الحفلات تأكلون، في الجنائز تأكلون، وفي اللمّة تأكون... كأنكم خُلقتم لتأكلوا فقط. أجدادكم لم تكن لوجبات أكلهم أوقات محددة، أغلبُهم يأكلون عند انتهائهم من تنفيذ أعمالهم، أو كلما تضوَّر أحدهم جوعًا. يأكلون لكنهم لا يشبعون، فيحمَدون خالقَهم على ذلك فيحفُّهم الاطمئنان، وتنزل عليهم البركات.

متأسفًا على انسحاب موموح، يخاطبه الفقيه "سِّي رحُّو":

- آسف يا صديقي على قرارك، لكنني متيقن من أن المشكلة ليست في الرماة، بل في النسق الذي صنع شيخهم وطقوسهم. شيخ الرماة على شبكة واسعة ونافذة، هو يريد إنقاذ بنية نسق هو نتاجها... لن يستقيم الأمر إذًا. أما أنت، لوحدك، فتريد تغيير النسق لأنك من ضحاياه. تمنيت فقط لو تحليت بقليل من الواقعية والوسطية ولم تنسحب، أردت أن أراك تفاوض على الحد الأدنى. في كل الأحوال، لا يغرّنّك نموذجك الجديد وجدواه، ربما مكّنك من تأجيل حكم انقراض القرية، لكنك لن تستطيع الحيلولة دونه... إنه حتمي يا عزيزي، لأن طبيعة البنية تفرض ذلك.

لكن فتى تاحفورت ليس من النوع الذي ينسكب بسهولة في قالب واحد، لن يستطيع التغلب على ازدواجيته.

أن يحس مومو ح أنه في غير أهله فذلك أمر جلل... أهله الذين يحملهم في خاطره كانوا أمازيغيين شديدي الإيمان بسطاء يقيمون على شظف العيش، يرضون بالقليل لكنّهم مرفوعو الهامة يمشون.

كانوا متضامنين في السراء والضراء، رحماء بينهم، يعيشون على عرق جبينهم.

أهل مومو ح يعشقون العمل، هو رأس مالهم الأول... يستيقظون عند الفجر، وينامون بعد الدجاجات والدّيكة بقليل.

بعد الذي جرى... هل ما زال مومو ح يعتبر أهل "تَاوْرطَا" أهلَه؟

الذي يهم، هو أن مومو ح رفع الراية البيضاء حين ألقى الرماة القبض على أفكاره. اِنسحب معلنًا عن هزيمته واستسلامه.

يرن هاتف مومو ح، يجيب رغم مزاجه الذي عكر الرماةُ صفوَه...

يرد المهاتف:

- هل نسيت يا من حملتك حافلة حمّادي إلى اكتشاف نموذج آخر كيف كان الوضع الاقتصادي لعائلات القرية؟ لم يكن يسمح لأفرادها بنصيب أدنى من الأكل الجيّد... وما الأكل الجيد؟ الأكل هو الأكل... والسلام.

يرد مومو ح قائلًا:

- أتريد أن تقول بأن أجدادنا عاشوا محرومين من كل شيء. أنا أرى أن ثقافتهم على مستوى الأكل كانت ترتكز على القناعة.

لكن العقل المشاغب لا يرى الأمر كذلك، فيقول متهكمًا:

- هل تذكرت يا من عدت إلينا راكبًا سيارتك الفارهة اصطبارَنا الممزوج بتلقائية صبَوِية، ونحن ننتظر أن تتفتّق عبقرية أُمّنا عن اكتشاف مكونات غذاء من شأنه أن يُسكِت مطالبنا؟ هل نسيت كيف كانت المسكينة تفتّش بين ثنايا "أسْقُّوطْ" لتُخرج منه لائحة مأكولات اليوم (le menu)؟ مادة واحدة على اللائحة: "أغْرُومْ". إن نسيت فأنا أتذكر جيدًا أمّنا وهي تمد الخبز في اتجاهنا ثم تزيد قائلة: (هَانَّايْنْ تَازارْتْ بْرَّا) شجرة التين أمامكما بالخارج. نتسابق، وكل واحد منا يطمع في ربح رهان الوصول قبل الآخر إلى جذع شجرة التين. نتسلق كالقردة، ونبحث بين الأغصان عن حبات التين الناضجة.

يُناوش موموح عقلَه المشاغب دون أن يكون مقنعًا وهو يقول:

- ذلك نموذج مضى وانقضى...

يرفع العقل من منطق شغبه فيستدعي الحقيقة من خلال اللجوء إلى سرد شهادات من زمن الطفولة، ويقول:

- آهٍ يا موموح، (هَانَّايْنْ تَازارْتْ بْرَّا)، اليوم خبز وتين، وغدًا خبز وعنب، وبعد غد خبز و"تابْغَا". وفي الفصول الأُخرى، غير الصيف، خبز وزيت، ثم خبز وزيتون، فخبز وبصل نيّء...

يقول موموح مفاخرًا:

فمَن مثلنا من الخلق كان له غذاء متنوعًا كغذائنا؟! ومِن أين لساكنة خيامِ الأعالي وقراها، وقتها، بمثل غذائنا ذاك؟ بقرات سمان عاشت على إيقاعها تاحفورت اكتفاءها الذاتي في كل المواد الفلاحية من حبوب، وخضراوات، وفواكه. كانت علاقة أهل تاحفورت

بالنقود محدودة، إلا ما جاءهم من بيعٍ استثنائي لتيوسهم لأغراض محددة كشراء السكر، والشاي، والقهوة، والشمع، وقليل من الصابون... يقرض السوس شعيرهم في "إِقْبَّاطَنْ" ولن يبيعوه أبدًا، وكذلك كان الأمر بالنسبة للسمن والزيت...

يمشي مومح على وقع صدى كلمات المشاغب الذي يسكنه وهو يحدثه:

- حسنًا، أفهم أن ثقافة الأكل لا تغريك كثيرًا أيها السيد مومح، فليكن... لكن قل لي، كيف تدعو الرماة إلى إعمال العقل، وتقترح عليهم نموذجًا اقتصاديًا تقول عنه الحقيقة إن منطقه أعوج؟ رماة رفع عنهم القلم كما تقول، وفقدوا الأهلية على التفكير، فكيف يستطيعون تنزيل نموذجك وأنت تراهم عاجزين عن تحمل المسؤولية؟ أنت ترى الأمر سهلًا، تكفي الإرادة لتحقيق أهدافه، لكن الأمر يستلزم منهجية للتغيير، والتغيير يستوجب شروطًا.

ينتبه مومح من سرحانه على وقع حوافر بغلة تمر مسرعة، وعلى صوت راكبها وهو يلقي التحية:

- السلام عليكم.

اِلتفت مومح، رد التحية:

- (أزُولْ). ثم رأى ما رأى. رجل بجلبابه وعمامته الأنيقين يمتطي بغلته، وترافقه امرأةٌ يظهر أنها زوجته، تمشي خلف الدابة وهي تقبض بيدها وبقوة بذنب الحيوان. كانت المسكينة تحمل على ظهرها طفلها الصغير، وتتقدم وهي مضطرة إلى مسايرة إيقاع البغلة الذي كان سريعًا، فبدت كما لو كانت مجرورة. اِغبرّت رجلاها حد

الكعبين، أخفى الغبار شربيلها، فظهرت وكأنها تمشي حافية القدمين. رفعت عقيرتها ونادت على زوجها قائلة:

- (آ بْدُّ آ سي موحنْدْ، يْلّا غْري إِيدّْجْ نْ تْكْدْ أُوّْزْرُو دِي وْهْرْكُوسْ)، من فضلك توقف، لدي حجر بالشربيل.

دون أن يلتفت، أمر الرجل البغلة بالتوقف عن المسير لإتاحة الفرصة للزوجة لإزالة حجر صغير من شربيلها في عملية مترددة بحكم طبيعة الطريق المليئة بالأحجار. ثم انطلقت البغلة من جديد.

تريّث موموح في وقفته، وراح يتابع ابتعاد العائلة وقد جاشت مراجله، وامتلكه الاستهزاء من ذكَر يدَّعي المَرجَلة...

اِعتنف موموح الأمر، وأَنكره رغم أَن "السيّد" الراكب لم يكن حالة معزولة، بل هي حقيقة مرّة من الواقع المعيش في مجتمع جبلي لا تتساوى فيه المرأة بالرجل.

فهم موموح دواعي غياب النساء عن خيمة الرماة، واستوعب الصعوبات التي تعترض محاولات التغيير.

لم يعد موموح يسمع وقع حوافر البغلة، ابتعدت العائلة، لم يعد يراها، فضحك من أدعياء المناصفة والمساواة في نسق متخلف بسبب أمية النساء.

فرض الموقف على موموح استحضار أمه مرة أخرى، فتذكر يوم دخل عليها وقد رجع إلى البيت ليَسْأَلَها:

- هل سبق لك يا أماه أن ركبت البغلة بمفردك؟ وهل تستطيعين أن تردفيني خلفك على ظهر دابة أخوالي؟

ضحكت الأم مستغربة طموح قزمها الصغير وردت مُحذّرة:

- إيّاك من عواقب محاولتك الاقتراب من البغلة.

ردّ موموح بحدة الطائش النزِق قائلًا:

- متى تصيرين يا أُمي مصدرًا لفخري واعتزازي وأنت لا تركبين بغلة جدّي؟ تقومين بكل الأَشغال وتتعبين، ويركب جدّي البغلة وأنت حافية القدمين تترجَّلين... ثم قولي لي يا أُمّاه: لماذا تحملين الأحطاب على ظهرك والبغلة عند المِدوَد تستريح؟ لماذا تستكينين قهرًا لجدّي وتُقِرّين على الضيم حد الامتهان؟ أَيّ رضىً هذا تطلبين؟ وهل رَضاك جدّي حين رضوْتِه؟

16

هل كان موموح قاسيا في حق أهل "تاوْرْطَا"؟ سألتُه فأكد لي أنه لم يفكر في المسألة قط.

كل ما كان يشغل باله وهو عائد من "تَاوْرْطَا" إلى تاحفورت هي حمولة العلامات التي لا يمكن أن تخطئ. صهريج صنع مجد تاحفورت، لكنه استوى مع الأرض حتى صار موقفًا للسيارات، مدرسة ساهمت في الترقية الاجتماعية لأسر القرية أُغلِقت حتى صارت أبوابها بيوتًا للعناكب. شباب لا يقدسون العمل، ويكتفون بالعيش على ما غرسه الأولون وعلى التعلق بالمنصات غير المنتجة... كلها علامات تنبئ بالانقراض المحتوم.

هو متأكد، حسب ما حكاه لي، من أن دور العنصر البشري أهم من كل الإمكانات المتاحة وغير المتاحة. لقد علّمته رحلة هروبه من تاحفورت إلى دفء الزحام أن الخلاص الذي يبدو اليوم مستحيلًا لن يصير ممكنًا إلّا بالوقوف في وجه الماضي بحزم وجرأة.

فهل سيعلّمه هروبه من قرية "تَاوْرْطَا"، وانهزامه أمام رُماتها بأن رجوع أهله إلى الماضي ليتمترسوا خلفه هو أقوى من آماله وأحلامه؟

في جميع الأحوال هو متأكد من أن سعي الإنسان نحو التغيير لا يكفي، لكن الأهم هو أن يكون هذا الإنسان واعيًا بحتمية التغيير، ثم إن وضع أهل القرية لن يتغير إلّا إذا غيّروا ما بأنفسهم... أمّا وأنفسهم مخدرة بعبق الماضي، فالأمر لن يكون سهل المنال... وهنا مربط الفرس.

مشيًا على الأقدام عاد مومو ح إلى تاحفورت، اِختار المشي وسيلة للتأمل، لم يكن يعبأ كثيرًا بممشاه بقدر ما كان يفكر. كان حريصًا على ألّا يحس بأن ذهابه إلى قرية "تَاوْرْطَا" كان مضيعة للوقت، وسوء تدبير لزيارته لأهله.

يحدثك عن اختياراته وأحلامه، فتحس بعمق أفكاره حين يرفض أن يعتقد أهلُه أنهم متيقنون بالضبط من الطريقة التي يجب أن يتّبعوها في حياتهم، ذلك بالرغم من أنهم لا يعرفون كيف ينبغي لهم أن يعيشوا.

هو يكره أن تتشابه الأيام عند أهله، لأنه يرى أن ذلك يعني توقفهم عن التفكير واطمئنانهم للعيش على السائد الذي انتهت صلاحيته. بتقديس العمل تتكاثر وحدات الذكاء، لكن هيهات لهم أن يدركوا ذلك...

جلس مومو ح على الصفاة/الإيوان عند الدكان الوحيد بالقرية، إيوان ما عاد له عمدة، فأحس بأن المكان يعاني الفقد وكأن الموت طال كل شيء من حوله. لقد أرهقت مواجهته مع الرُّماة أعصابه

واستنفدت صبره، فأخذ يتأمل بإمعان مسألة نهوض قرى الأعالي من خلال موقف الرُّماة ومقارنته مع ما يجب أن يكون.

فلما استشف حقيقة الوضع، قرر ألا يستسلم، إنه يحب تاحفورت، وقد يقتنع بالعيش في واديها ما تبقى من أيام حياته.

لحق الفقيه "سي رحّو" و"عصّو" بمومَوح بعد أن نالا حقهما من الوليمة، فبديَا سعيدين بذلك. جلسا إلى جانبه عند جذع الزيتونة التي تشهد على قرارات لعبت دورًا أساسيًّا فيما عرفته تاحفورت من أحداث، وما آلت إليه أمورها.

أخذ "سي رحُّو" الفقيه يبحث له عن مكان نظيف حذر اتّساخ ثيابه (لباس العمل) الذي لم يكن كما يجب أن يكون، خشنًا أو صفيقًا كما تحكي السيرة. كان الإمام يهتم كثيرًا بأناقته، ومفرطًا في الاعتداد بنفسه لدرجة تجعل الفخر يجد فيه مسلكًا.

قال الفقيه مخاطبًا موموح:

- الأمر صعب يا صاحبي، لماذا تلح على أهلك في فهم ما استعصى عليهم من الأمور؟ يبدو لي، والله أعلم، من خلال كل ما قيل، أن أفكارك تحتاج إلى فضاء أوسع ووقت أطول. أنا معجب بأفكارك، لكنك تدعو إلى التغيير... والتغيير هو الانتقال من حال إلى حال، وهو أمر حتمي يتم على مراحل ويستلزم عدة شروط.

رد موموح معاتبًا:

- اِسمع أفادك الله، السهل لا يستدعي الفهم، المفيد للإنسان هو أن يحاول فهم صعاب الأمور. ثم قل لي، هل علي أن أنتظر حتى يصبح كل الرماة أذكياء؟ إذا كان الأمر كذلك، فعلي أن أنتظر طويلًا كما تقول.

تدخل "عصّو" منبهًا مومو ح إلى أن أحلامه الثقيلة ستتعبه بالتأكيد... وأن أهدافه بعيدة، وأنها تبعد كلما ألح في السعي نحو زعزعة السائد لأجل تغييره، وإنه يخاف أن يكون موموح نائمًا على إستبرق أحلامه ليصحو بعد حين، فيصطدم بواقع ألفه الناس وما زالوا يعشقونه.

تعجب فتى تاحفورت في قرارة نفسه من واقعية "عصّو"، وأُعجب بمستوى منطقه رغم أن الرجل "قُبّانِي" تحت خط الأمية، لكنه رد بأن الوضع لا يمكن أن يستمر على ما هو عليه، وقال:

- أُنظر إلى السماء، الغيوم لا تستقر، هي تتحرك، وحركتها ضرورية حتى تمد الأرض بالمزن.

قال الفقيه:

- ألم يقل لك "عصُّو" إن أحلامك ثقيلة وبعيدة؟ ما لنا وللسماء وغيومها؟ الرماة أكثر ثباتًا من صخور "بوفروخ"، كان عليك أن تخاطبهم بما يناسبهم. الأمر يتطلب بعض التدرج حتى يستأنس الرماة ويستوعبوا جدوى نموذجك الاقتصادي.

رد موموح غاضبًا:

- كيف تكون أحلامي بعيدة وثقيلة وهي بالكاد تكون كأحلام دجاجات أمّي "تْشْفَا" التي كانت تحلم بالطيران؟ أيكون طموحكم أقل شأنًا من أحلام دجاجات "يْمَّا تْشْفَا"؟ ثم قل لي أيها السيد الفقيه المبجّل، كيف تدعوني إلى ممارسة النفاق وملاءمة ما يجب أن يكون مع ما يمكن أن يكون وأنت المنوط بك حماية الأخلاق؟

قال الفقيه وقد غرّز بنظره في الأرض:

- ما لنا ولحلم الطيران؟ أتريد أن تضحك منا القبائل؟ اِعلم هداك الله أن الرُّماة ورثوا تقاليدهم وعاداتهم عن آبائهم، ولا أراهم إلّا عليها محافظين. نحن لا نعرف إلّا غنمنا... وحتى إن كُتب عليها أن تطير يومًا فستبقى غنمًا، ولن تتغيّر أبدًا.

رد مومُوح بأن أهل القرية ما ورثوا الماضي فقط، بل ورثوا عن أجدادهم جنائن وحقولًا تستوجب العمل... ويكفيهم أن يتركوا لمن سيأتي من بعدهم ميراثهم من التجارب والأعمال الصالحة المنتجة. لكنهم يشتهون سماع أشياء تُوهِمهم بأنهم سعداء رغم أن الحقيقة شيء آخر...

قال الفقيه متهكمًا في سياق آخر:

- لقد لبثت مقيمًا في الزحام فارًّا من الخوف الذي تنتجه صخور تاحفورت، ثم حملك الحنين فجئت على قدر يا موموح...

رد فتى تاحفورت بأنه ما جاء على قدر... كان له موعد مع "الطفل موموح" لم يستطع أن يخلفه، حمله حبه الصادق لموطنه الذي فقده، حبّ نفخ في جدوة الشوق ليشعل بداخله نارًا، وحده ماء تاحفورت يستطيع إخمادها.

قال "سي رحّو" مستغلًّا تأويله الخاص لسكوت "عصُّو":

- بل انتهت مدة تحمُّلك للزحام، اِنقضى أجل صبرك، ثم كان قدومك موافقًا لقدر الله وإرادته من غير ميعاد... لكنني، في جميع الأحوال لا أفهم لماذا تضيع زمن تقاعدك في الكلام؟ لماذا انتظرت هذا الوقت كله؟ كنت مشغولًا بالعمل لأجل ضمان تقاعدك المريح، أليس كذلك؟ ما الذي جعلك تتذكر فجأة قرية طفولتك؟

تأكد موموح من أن التفكير عملية صعبة بمُخرجات قاسية، كما تيقن من أنه "لو قال تمرةً لقال (الفقيه) جمرةً"، موقف جعله يشك في قراءته لوجه الفقيه منذ لقائهما الأول...

اِستأذن موموح صاحبيه في الذهاب لزيارة مواقع أهله قبل أن يذكّره "عصُّو" بأنه سينتظره بمنزله بعد صلاة العشاء.

اِنصرف موموح، وكالبغلة العائدة من السوق ولَّى وجهه تلقائيا وِجهته الطبيعية، سار إلى حيث كان عليه أن يسير... إلى مطارح "إِحدَّادْنْ". مكان ليس كالأمكنة، وفضاء فريد يعرف موموح أرجاءه وكل محتوياته.

كان أهل موموح يئنُّون تحت الدّرك الأسفل لعتبة الفقر، يتلاطمهم العوَز والمَخْمصة، بسطاءُ عميقو الإيمان، يهتمون كثيرًا بأمور حرفة الحدادة... مهنتهم ومصدر رزقهم الوحيد.

كالمتعبّد انتصب موموح أمام محراب أهله المهني بموقع ورشة الحدادة التي استغلتها عائلته لممارسة حرفتها الأساسية منذ جاء أجداده الأولون إلى تاحفورت. ورشة جار عليها الزمن، كوخ قديم قِدَم مَن بنوه أول مرة.

وقف موموح يتذكّر...

بين أشجار الزيتون العملاقة ذات الجذوع الضخمة كانت الورشة/الكوخ المتهالكة تنتصب، وقد كستها حشائش نبات "أَدْلْسْ" كغطاء واق من المطر، والشمس، والريح. كان "الأَنْوَالُ" مفتوحًا بدون باب ولا نوافذ، يتوسّطه الكير وفوهة الفرن والسندان، فيما

كانت الأدوات الأخرى ملقاة على الأرض في فوضوية تعفي المعلم "امحند" من إضاعة الوقت في البحث عنها كلما احتاج إليها.

يدقق مومو ح النظر في رؤياه، فيرى إلى جانب حدائد من الأحجام والأشكال المختلفة كومةً من الفحم النّباتي، نصفها على الأرض على يمين الحدّاد جاهزة للاستعمال، ونصفها الآخر ما يزال بالخرج الملقى بإحدى زوايا الكوخ. إنها الجمرات (تِرْجِينْ) المادة الأولية التي جلبها المعلم "امحند" على ظهر بغلته من حواشي بحيرة "تامْدا نايت سْمَاعلْ"...

هناك كان يستخرجها بحرق بقايا أخشاب شجر الأرز التي رمت بها مياه "تامدَا" على جنباتها الشمالية حرقًا جزئيًا ليستعملها وقودًا لتليين وتشكيل الحديد.

كان السواد يخيم بداخل الورشة كما لون الغبار الذي يغطي كل شيء، حتى خيوط العناكب التي احتلّت سقف الكوخ اصطبغت بالسواد، سواد يبرز الجمرات ويجعلها أكثر حمرة والتهابًا.

لم يكن لدى المعلم "امحند" لباس عمل، كان يلبس ثيابًا قديمة اسمَألّت حتى عادت غير صالحة للاستعمال. لكنه كان يستتر بها، لقد مزقها لتصير ملائمة للحركات التي تستلزمها طبيعة عمل الحدادة، وحتى لا تساهم في ارتفاع حرارة جسمه وهو الذي يقضي ساعات طوال أمام اللهيب الحارق، لهيب يلفح وجهه الذي صبغه غبار الفحم الممزوج بالعرق بسمرة لامعة لا تخلو من جمالية.

على ترديدة "صُوط يا حسايْنْ صُوط"، ينفخ "الطفل مومو ح" بطلب من عمّه المعلم "امحند" في الكير المصنوع من الجلد المقوّى

بسحب إحدى الدفتين بيده اليمنى ودفع الأخرى بيده اليسرى. يكرر الطفل عمليات السحب والدفع بعناء لذيذ كأنه يركب دراجة كبيرة، يُتعبه تحريك دَواستيها بِأصابع قدميه... لا يكلّ "الطفل مومو ح" ولا يملّ، يشتغل على الكير وهو يستمتع بالاستماع إلى دندنات عمّه.

بعد لأي، يُخرج المعلم "امحند" الحديد من الفرن بملقاط (إيغْمْدْنْ) حديدي طويل وقد صارت القطعة صفراء تميل إلى البرتقالي، فتتقد عيناه عزمًا وإصرارًا على طرق الحديد قبل أن يبرد، وبمهارة عالية يتمايل مع الطرقات في رقصة لا تعرف الضعف والفتور.

على صدى طرقات "أفْطِيصْ" الذي سكن المكان، يتذكّر اِبن الحدّادين كل شيء عن عائلته التي امتهنت الحدادة لفائدة القبيلة، مقابل حصة من الحبوب تُصرف في آخر الصيف بعد الحصاد، لم يكن للأُسرة دخل آخر غير "الشّرْط" العيني مقابل خدمات الحدادة.

يغمض موموح عينيه ليستيقن حديث الصدى الذي يخاطبه:

- آهٍ يا موموح، لو أوْرثَك الأهل تشكيل الحديد تُحَمِّيه وتطرُقه لتصنع منه أدوات إنتاج الحياة... حسبتُك يا موموح حدّادًا بالفطرة تحبّ اليحموم، وتهوى النّفخ في الجمرات، وتُنبت على شفرات المناجل أسنانًا، وتشحذ رؤوس الفؤوس وسِكك المحاريث، لكن حقيقتك يا موموح هي أنك كمنجل بلا أسنان، أو كمطرقة رأسُها من طين. كذلك أنت حين ركنت لرأي مُنظّري ربيع الأعالي لما أمروك بالرحيل... تقول إنك لم تختر، ولم تكن تعلم وجهتك يوم غادرت تاحفورت! لو افترضنا جدلًا... وصدّقناك، فإن الفرضية تفضي بالضرورة إلى شيء اسمه الهروب.

يرد مومو مخاطبًا نفسه:

- بل كان ذهابي قرارًا صائبًا... وجعل البقاءُ من رفاقي أتعس جيل، لم يستطيعوا إبعاد الخنازير البرية عن حقول أهلهم، وعجزوا عن جعل غابات أرز "بُويْبْلَان" ذهبًا يملأ خزائن جماعتهم...

بقدر ما يحس مومو بالفخر والاعتزاز بانتمائه إلى عائلة تمتهن حرفة نبيلة، وتضع خدماتها رهن إشارة القبيلة، بقدر ما يحرجه تهكّم أَصدقائه بالقول عند ذهابهم لقضاء الحاجة بأنهم "ذاهبون لأداء واجب الحدّاد"... يسأل مومو عمّه "لَمْعَلّْمْ امحنْد" عن دواعي تنكيت أصدقائه على مهنة الحدّاد...

ينظر المعلم "امحند" في عيني قريبه الصغير متنهدًا، ويقول:

- آهٍ يا مومو لو تعلم كيف يُستقبل الحدّاد بعد انتهاء عمليات جمعِ المحصول الزراعي لنيل "شَرْطِه"، لفهمت كيف جعلوا الحدّاد في مؤخرة سلسلة الإنتاج. ولو اطّلعت على التنازلات التي قبل بها أهلك لأجل أن تكون خدماتهم في متناول أفراد القبيلة، لاستوعبت مقدار تضحياتهم التي قابلها للأسف الشديد تهكُّم واسع ممّا آل إليه مقدار "شرط" الحدّاد.

بغض النظر عن تضامن مومو مع عمّه في إحساسه بالغبن، فإنه مقتنع بأن مهنة عائلته تتموقع بالضرورة في بداية سلسلة الإنتاج بحكم صناعتها لأدوات الحياة التي يحتاجها المزارعون في كل مراحل نشاطهم. ثم إنه مقتنع من كون القبيلة كلها مدينة بما تملك لأهل عائلة مومو التي تحظى وحدها بنصيب خاص من العلم في مجال تشكيل الحديد، معرفة ضرورية لصناعة أدوات الحياة.

يعود موموح إلى رؤياه، يدقق مستحليًا النظر في عمق الورشة، فيرى نفسه واقفًا ينفخ في النار لإذكائها على إيقاع صوت عمّ أمه (لَمْعَلَّمْ امحند)، يغني متغزّلًا بامرأة، فيقول:

- (أيَامْنة، لْلَّاهْ إنِيِي مَامْشَامْ إيَّا لْحالْ؟

(حُويْزْغْ أُورْ شْمْ إنِّيْغْ هَادِي شْحَالْ).

"آه، يا آمنة، قولي لي كيف حالك؟ اِشتقت إليك، لم أرك منذ مدة".

بقدر ما كانت دندنات "لَمْعلَّمْ امْحَنْد" آسرة للُّب أَخّاذة، بقدر ما سيطرت على موموح نوبة فقدَ خلالها التركيز على جهاز النفخ، حين قدح زناد فكره محاولًا إيجاد حل لهذه المفارقة العجيبة: رجل من مقام عمّ أمه يتغزل بامرأة غير حليلته اسمها يامنة في خلوته المهنية، ويعبِّر عن عشقه لها، ثم لا يتوانى في إخضاع زوجته لعذاب الأشغال الشاقة، من رفع الأثقال خلال عمليات الاحتطاب، ونقل الماء، إلى القيام بأشغال البيت من غسيل وطحن الشعير؛ ومن طبخ، وتربية الأطفال...

على الرغم من أن الشيب قد وخط صُدغيه، فإن نسق تاحفورت لا يسمح ل "المعلّم امْحنْد" بالتعبير لزوجته عن عواطفه، أو بتقديم هدية تُرضيها... باستثناء الضحك عليهاِ بِ "قَابْسَا" من (أسلْغَاغْ) العلكة اغبرَّ ورقها الأصفر تحت خيام السوق.

(وَا موموح، خْسَيَنْتْ تِرْجينْ، مَانِيسْ تْكِّيتْ)؟

عاد موموح من نوبته على صراخ عمّه ينبهه أن الجمرات قد انطفأت، فتابع موموح النفخ في الكير كما تابع حياته كطفل امرأة (تْشْسِي، تُويْمْ، تْزْدَمْ، تْزْضَى، تْكُّو، طُورْوْ، تْسِّيمْ) خضعت للأعمال الشاقة.

17

لم يكن المعلم امحند يملك أي شيء، لكنه كان في الحقيقة يملك كل شيء بالنسبة لموموح. اِندثرت الورشة فتلاشى كل شيء... مشّى موموح الأمر، كفكف دموعه وطفق راجعًا من موقع ورشة الحدادة إلى منزل صديقه "عصُّو".

هل وجد موموح في زيارته لقريته لكل خوالجه وترًا، أم تراه تأكد أن كل شيء ينذر بأن تاحفورت تعيش آخر أيامها؟
يمشي فتى تاحفورت في اتجاه العرس الذي تعالت من موقعه الزغاريد والأهازيج، وقد أثقل التفكير ممشاه.

لملمت الشمس أنوارها لتتوارى خلف جبل "تايْلمامْتْ". وصل موموح أمام منزل "عصُّو"، لم ينتبه إلى وجود نساء كن يرتبن المكان الذي ستنزل به العروس. تقدم فاغرًا فاه وقد أيقظ لديه المنظر فاتنة كانت تستقر في ذاكرته بلونها الأسمر الجميل.

خيمةٌ أسرى به وجودها إلى عالم تسكنه ذكريات سيدات من أهله حُكم عليهن بأشغال الترحال الشاقة تحت الخيام بسفوح "أَكْرْطُوطْ"، وجنبات بحيرة "تامْدا".

إنها ليلة العرس، ليلة متعبة لنساء القرية...

العرس عند قبيلة مومـوح شأن عمومي، تشارك فيه كل شرائح القرية، لا يعتبر مناسبة خاصة، وإذا حضرته لن يسألك أحدهم من تكون...عرسهم مسرح مفتوح يعلن عنه فيحضره الجميع.

"تْرْوْحّْدْ لَالّا، تْرْوْحْدّْ إِشْسَانْ دْ وُولّي"، (راحَتْ لَالّا وأراحتْ معها الجياد والأغنام)، كذلك خرج سربٌ من حمامات تاحفورت يردّدن مُنغّمات ترديدة قبيلتهن الأزلية. تلطم إحداهن وجه بندير على سلّم أمازيغي صرف لتُقوّله فرحة المجموعة وسعادتها. خرجن ليستقبلن العروس التي جاءت من قرية بعيدة، اِتّسقت الفتيات في صف نصف دائري (الرِّيفْ)، وصرن يرقصن في تناسق وتعاضد تامّين على أصواتهن المتناغمة وعلى دقات البندير، فيتحرك ثوب فساتينهن (إِجُولالْ) المسبل في تهدُّل راقص وانسجام موحد الحركة كأنه في مهب ريح هادئة.

تتهادى البغلة تحت حملها الهودجي الذي يخفي وجه العروس خلف ستار قبّتها ذات الألوان الأمازيغية، وقد أحاط بها رجال شداد من ذوي القربى... يخرج الجميع لتتعالى الزغاريد وطلقات البنادق فرحًا بقدوم عنصر جديد يحمل الخير والبركات.

أنهى الركب وصوله، ورمت العروس الشبان والفتيات من تحت قبّتها بما تيسر لها من فواكه جافة، وحلويات لعلها تصيبهم فترفع عنهم صبوتهم، ويتولوا عن عزوبتهم...

يتقدم العريس إلى الدابة التي تمتطيها العروس، ثم يمر تحت بطنها متبوعًا بأخواته في إشارة إلى أن أهل العريس سيكونون في خدمة العروس ولن يؤذوها.

تمضي تاحفورت بهدوء نحو الليل، ويرخي الظلام سدوله على القرية... يحكي مومُوح عن تلك الليلة بتاحفورت، فيقول:

- الليل بأمّ قُرى الأعالي سمفونية تحتفي بالجغرافيا وبالكون، له جمالية تخفي الخوف المنبعث من أحجار "أَغْرْمْ"، ومن أخاديد "إِسُومَّار"، وصفائح "إِصفَّاحنْ"، صخور ساهمت في تربيتي على أشياء كثيرة. لليالي تاحفورتْ رهبة مختلفة تحمل الرضى عن كل التوقعات الممكنة... مرحبًا بكم يا أهل المدائن، يا من تنامون فوق مجاري الصرف غير الصحي، مرحبًا بكم بليالي فضاء لا أنوار فيه إلّا ضوء المصابيح الطبيعية.

كما تنسدل الجفون على البؤبؤ يلقي الليل بأجنحة ظلامه على تاحفورت، فترخي الجبال المحاصرة بأهدابها السَّبلاء على أسيرتها كما تُطبق نسوة تاحفورت قدور لبنهن الخاثر...

تستعد تاحفورت للرقص وما تدري أن فتاها قد حل بها، بعد أن غاب عنها عقودًا من الزمن.

يرفع مومُوح رأسه، فتتذكّره إطلالة قمر تاحفورت بحرصه القديم على مرافقة أقرانه لحضور أعراس القرى المجاورة، مغامرات ساعدته على مقاومة خوفه المزمن.

بعد العَشاء... وبعد شوط ثان، أدّوا خلاله ما تيسر من نشيد السماء وختمٍ بالدعاء للعريس والعروس بالرفاء والبنين، وقف الفقهاء

عند باب غرفة الضيافة يبحثون عن بُلغهم وأحذيتهم استعدادًا للانسحاب وهم يتمتمون بالبسملة، ويمسحون على لحاهم، ويرتبون أقباب جلابيبهم البيضاء فوق رؤوسهم.

وقف "عصُّو" بباب غرفة الضيافة وأخذ يوزع على الفقهاء أظرفة صفراء باردٌ لونُها، يظهر من نحافتها أنها تحوي ورقة نقدية واحدة.

نافذ الصبر، جلس موموح بمنصة المتفرجين على حصير من الحلفاء الرقيقة تقادم حتى صار لونه أصفر ذا لمعان ذهبي، جلس يستصبر نفسه التي أعياها انتظار انطلاقة مباراة الوغى الفني.

ينزل الفريقان إلى ساحة صناعة الفرح والتراشق بالتعابير الجميلة، مسرح تتوسطه شعلة من النار لهِبت حتى أضاء توهجها المكان... يتكون كل فريق من نواة صلبة من أهل "الصّنعة"، هم جماعة راقصة يتزعّمها شيخ (الْقُولْ) أو شيخ البندير، ومن هواة متطفلين على جنبات (الرّيف) للتّدرّب على رقصة (أحيدوس).

يلبس أعضاء الفريقين جلابيب بيض، ويلفّون رؤوسهم برُزز بيضاء، منظر لم يكن ليجعل موموح يقاوم كبير شياطينه الذي علّمه طرح الأسئلة، فيسأل صديقَه "عصّو" الذي مر من أمامه يبحث بأعلى صوته عن متخلفين محتملين عن وليمة العشاء:

- لقد كان الفقهاء جاهزين بلباس العمل، فما الذي منعهم من نفض غبار الجلوس والكسل عن أبدانهم برقصة أحيدوسية؟

أجاب "عصُّو" وهو يمازح موموح:

- أُترك الفقهاء وشأنهم، سنرى ماذا أنت فاعل بعد حين.

منع مومـوح شيطانه من استفسار "عصُّو" عن دواعي توزيع الأظرفة، ودّ لو يسأله عن طبيعة هذه البدعة، وهل تدخل ضمن البدع التي يرفضها شيخ الرّماة، لكنه لم يفعل. سمع فقط رنينًا ينبعث من داخل أذنه، تبعه صوت بالكاد تبين مومـوح محتواه، قال الهاتف:

- ما المانع وماذا يضير؟ أمرك لا يستقيم، كيف تفتي بالبدع بخيمة الرُّماة وتمنعها عن الفقهاء! لو أجاز جدُّك بدعة الأظرفة لتحسّنت أوضاع الأسرة، ولما اضطررت إلى الهجرة بحثًا عن الترقية الإِجتماعية.

يفرك مومـوح أذنه ويُمَشِّي الأمر.

لاحظ مومـوح أن أهله اكتفوا بالصيغة القديمة لإقامة طقس أحيدوس، حيث تكوّنت الفرقتان الضروريتان لإقامة الحفل تلقائيا، فريق يمثل قرية العروس، وآخر ينوب عن أهل العريس. إنها صيغة أصيلة تعتمد على أسلوب هاوٍ يروم قضاء وقت ممتع مع الأقران، وتوفر فرصة للتلاقي والسهر. يتمنى الشباب والرجال حضورها والاستمتاع بتعدّد أغراض الشعر، وبدمقرطة الرقص عبر إتاحة فرصة ولوج (الريف) للجميع.

سعد مومـوح باختيار أهله الابتعاد عن الصيغة الحديثة التي يعتبرها استرزاقًا غير مألوف. إنها صيغة تعبر عما آل إليه وضع أحيدوس الذي طغت عليه أهداف التكسب، وادعاء تطوير الموروث الثقافي عبر ابتداع رتوشات غريبة وإقحام الغناء بلغة أخرى غير الأمازيغية.

وقف "عصُّو" محملقًا في مومـوح، ثم قال:

- فرقتا الليلة هاويتان سيُرقِصان الجميع بدون مقابل.

وزاد مخاطبًا مومو ح:

- هل لديك سؤال آخر أم أن الفقهاء هم همُّك الوحيد؟

رد مومو ح بأنه رغم سعادته باختيار أهله الصيغة القديمة، فهو مقتنع بأن فن "أحيدوس" لم يتطور قط، ثم يسأل "عصُّو" عن رأيه في الموضوع.

ضاحكًا يرد "عصُّو" وهو يمازح مومو ح بأنه لم يستفد من هزيمته أمام الرُّماة، ولم يشبع من تهكمه على أظرفة الفقهاء، فما بقي له سوى تندُّره على أهل "أحيدوس".

يرى مومو ح أن البندير و"إزلي" عند أهله يحيلان على جملة موسيقية واحدة... كما أن "الشعر" الوراييني صار غريبًا بعد غزو المفردات الدخيلة، وضعيفًا بسبب عدم الاهتمام بالصورة في البناء الشعري، وغياب الاشتغال على اللغة الأمازيغية الفصحى (تازدّاكْتْ)، وعلى التعابير اللغوية ذات الحمولة الثقافية العميقة.

لم يفهم "عصُّو" موقف صديقه جيدًا، فطلب منه أن يوضح موقفه من الأمر، وأن يقترح بديلًا لِما اعتبره نغمًا صارخًا منقولًا بلغة أخرى.

أكد مومو ح أنه يرفض البناء على نمط ممل يتكرر... ويدعو إلى التمرد على الشكل القائم حاليًا، والذي يسيطر عليه هوَس القافية، قافية يهون من أجلها الإخلال بترتيب عناصر "إزلي" وبانتظام موسيقاه. الشعر موسيقى حمالة كلام بليغ، يستدعي الصور، ويستخدم الاستعارة والجمالية، لكن الشاعر عند آيت وراين بالكاد يكون شيخًا نظّامًا، يعتقد أنه يبهر السامع ب "قوافيه".

بعد إحماء البنادير، وهي حصة تتخللها دندنات الفريقين، حيث تسمع لأعضائهما تداولات طنينية كأنك أمام خلية نحل حين يتسابقون ليظهروا أي الفريقين أشطر في ارتجال مقدمة أشعار الأمسية، اِنتقل القوم إلى ساحة التعبير والوغى الفني... ساحة "أحيدوس".

فجأة تصدح الفرقة المرافقة للعروس بلازمة "اللّْغَا"، لتستضيف نفسها لرحبة الحفل... فيلقي مومو ح السمع مبهورًا.

في تناسُق تامّ للأصوات، ولحركات الأكتاف والأيدي والأرجُل، يرقص أهل موموح... فتراهم يُنصتون إلى البندير وكأنه يُحدِّثهم عن أشياء هم وحدهم يفهمونها، وعلى دقَّاته يتحرَّكون في تناغُم رجولي لا مثيل له على الإطلاق. تنظر إليهم فلا تمَلُّ عيناك من تجسيدهم لتضامنهم من خلال تشابك وتماسك أيديهم، وانسيابية حركاتهم، وروعة تعبيرهم الجسدي.

ملء الحناجر يُغنُّون ليُسمعوا الجبال ومن فيها سعادتهم، وبنفس الإصرار والتكرار يُعاودون حتى يتبيَّنوا سماع من بالأعالي لصَدحهم بكونهم أحرارًا، فترقص الجبال على الصدى نشوانة في أَحيدوسِية مُزلزِلة من شأنها أن توقظ رفات القبور القديمة (إِمْطْلانْ إِيبُولَايْ) من مرقدها.

جلس موموح و"عصُّو" يستمتعان بنسائم العراء الباردة تنسحب أمام الدفء المُنبعِث من لهب شعلولة النار التي تتوسط مسرح الأحداث.

فجأةً يُصاب الراقصون الذكور بالرعشة الأحيدوسية، فينفُضون (زّْلُوزْنْ) أبدانهم ليُزيلوا عنها عناء الحياة كما ينفض

الطائر ريشه ليخلصه من بلل المطر... فتفرح النسوة وتتعالى الزغاريد.

يُستأْنف الحال... وتسيطر الدقَّات المسترسلة والمتناسقة للبندير حين يصير جمْع تكسير، فيتحكم شيوخ "ألُّون" في "الريف"، وفي حركاته الرشيقة بفعل الانسجام الكامل بين حركات الجسد وتموُّجات اللباس.

اِنتبه موموح حين جلست إحدى النسوة إلى جانب "عصّو" توشوش في أذنه، وتستعطفه للقبول بأمر رفضه في البداية قبل أن يلين، ويهز برأسه مؤشرًا على الموافقة.

اِنسحبت المرأة ليفشي "عصّو" سرها لموموح قائلًا:

- إنها خالتي جاءت تستأذن في دخول أختي الصغرى غمار رقصة أحيدوس... فوافقتُ.

لم يكن شيطان موموح ليسكت عن الأمر، قال مستنكرًا يخاطب "عصُّو":

- أليس العرس في عرف قبيلتنا مناسبة لصناعة الفرح؟ فكيف تُخضِع فرحَ أختك لرفضك أو لقبولك؟

لزم "عصُّو" الصمت ولم يجب.

نزلت "ثْلَايْثْمَاسْ" إلى الساحة في حلتها الأمازيغية الجميلة، تمشي في اتجاه "الريف" مطأطأة الرأس صاغرة وكأنها سترتكب جرمًا.

قال موموح:

- إنها أختك، أليس كذلك؟ تبارك الله، إنها صبية حسناء... لكنني لا أراك سعيدًا بظهورها.

ردّ "عصُّو" وهو يراقب أخته:

- لقد قبلت بدخولها "الريف" للرقص حتى أتأكد مما يخالجني من شكوك حول ميولاتها العاطفية... اِختيارها للمكان الذي سترقص به ب "الريف" سيعطيني فكرة عمن يكون فارس أحلامها.

حملق مومُوح إلى "عصُّو" وقال مستنكرًا:

- ماذا أنت فاعل بعد أن تتأكد من الأمر؟

مرة أخرى يلزم "عصُّو" الصمت ولا يجيب.

تواصل الحفل حتى ساعات متأخرة من الليل على إيقاع رقصات "أحيدوس"، لينتهي قبل آذان الفجر بقليل.

على إيقاع الضربات الأخيرة للبندير، ينسحب الظلام، وتصاب القرية التي رقصت على ضوء القمر بالسكون.

خمدت الحياة بالقرية، ونام مومُوح لفترة قصيرة قبل أن يوقظه دوي مدفع وزغاريد تعلن أن العروس قد "أصبحت"... ولله الحمد.

تذكّر مومُوح مبتسمًا صديقه "شريف" أوْرِيرْ.

18

حمل موموح حقيبة الظهر بعد أن وضع بها أغراضه الخفيفة وبعض الزاد، سلّم مفاتيح سيارته لصديقه "عصُّو" وأوصاه بألّا يغفل عنها خلال فترة غيابه.

لقد قرر أن يذهب لممارسة هوايته المفضلة، هو يهوى الصعود صوب القمم، حيث يلتئم الشموخ فيسمو كما يتجمَّع الماء بالنُّقْرة (تَاوْرْطَا) فوق الصخرة ليصفُو... أخبر موموح مضيفه "عصُّو" بأنه سيقصد قمة (بُويْبْلان) معتمرًا لزيارة جدّته (تامْغارتْ). إنها في انتظاره، هو يحس أنه في أمس الحاجة إلى سماع صوتها بأمازيغيتها الصافية.

يضحك "عصُّو" معتقدًا أن موموح يمازحه، ويقول:

- تقول معتمرًا !؟ هذا يعني أنك تقصد مكانًا عامرًا، والحال أن قمة (بُويْبْلان) جرداء كباقي قمم جبال الدنيا، لا يقطن بها إنس ولا جان.

يرد موموح بكل ثقة:

- هناك بالقمّة تقيم جدّتي مع قطيعها (إمُوحَالْ)، وكلبها، وراعي غنمها تحرسهم عيون السماء... مُقام جدّتي هو مستقرّ معمور، أنا متأكد مما أقول. قد أجدهم رقودًا، لا يهم، سأُوقظ (حنَّا تامغارتْ)، هي في انتظار أبنائها لتقصّ عليهم حقيقة ما جرى.

اِختار موموح لزيارة جدته سلوك الطريق الغربية التي تمر على قمة سلسلة جبال الركيبات (تايْلْمامْتْ) عوض مسار وادي (بُوفْرُوخ)، حتى يتمكن من التفرج على الجهة الغربية من فضاء قبيلته.

صعودًا باستقرار تام هي الطريق من تاحفورت إلى قمّة بويبلان عبر جبل الركيبات. المسار عبارة عن عقبة شاقة توفر مناظر بجمال استثنائي من الطبيعة الرائعة.

بالسفح، مر موموح ب (أُورْتُو عّقَّا)، أحزنه أن يرى الموقع فاقدًا لأشجاره (تُوزْلِينْ، ج: تُوزَّالْتْ) العاليّة التي كانت تستعمرها حَبَل العنب المتفرقة، في مجموعات عند أعلى السّفح، كشعيرات عُثنون التيس (أقْتْرِيبْ).

تعجب موموح من سرعة التغيير الذي طال الأمكنة بتاحفورت، سرعة لم يرافقها التحول المرغوب على مستوى النسق الثقافي والنموذج الاقتصادي.

متسلقًا مر موموح عبر "حقول" سي لحسايْنْ حين فاجأه الرنين المشاغب، يدعوه إلى استفسار طائر الشحرور الذي أمامه عن دواعي تواجده وسط الطريق، قائلًا:

- لا تقل لي إنك لن تفعل... ألست أنت من كنت تدعي أنك وحدك تستطيع تأويل الأصوات، وقراءة الروائح، والألوان على

لوحة فضاء تاحفورت؟ وأنك وحدك كنت تسمع دبيب النمل، وتفهم لغة الطير بالأعالي.

نظر مومموح من حوله، ففهم أن اختيار دفن منابع الماء قد أتى على الأخضر، ولم يترك للشحرور أي فرصة توفر له مخبأ يأوي إليه. ثم إن قلة المارّين جعلت الشحرور ينسى ردة فعل اسمها الهروب.

يرتاح المتسلق عند "عين الدْجير"... عين كأنها مرآة أثبتت فوق بساط من الخضرة المنتشرة حول جنبات الينبوع، تمد يدك فتخالها تلمس زجاجًا أزرق صافٍ، تشرب من مائها فتُذيقك برودته "لباس الجوع".

عند منتصف الطريق إلى قمة "تايْلْمامْتْ"، ينسحب منك النظر وجوبًا على اليمين نزولًا لتكتشف فضاء لم يكن في مقدور أبناء تاحفورت أن يروْه في فترة طفولتهم... فضاء يوجد خارج المدى المرئي الذي يمكن رؤيته من القرية.

يعرُج مومموح إلى القمة عبر طريق عَرِيجة ملتوية، يحسبها الناظر إليها من بعيد رسمًا من فعل خياط ماهر وقد عرَّج ثوبًا.

نظر مومموح إلى الفراغ من حوله، ففهم كيف تعرُج الطيور وهي تدور في مسار لولبي ترتفع لتعلو، وفهم كيف يرسم أهل تاحفورت أخاديد طرقاتهم على وجوه جبالهم، ليبلغوا مقاصدهم، ويحققوا مآربهم.

آهٍ على طعم المشقة اللذيذ... وصل مومموح إلى "أحْفُورْ" حيث كانت عائلة "آيت سي عْلِي" المستقرة بتاحفورت ترفع خيامها لتشتغل

خلال رحلة الدفء على زراعة الشعير فوق القليل من الأرض الصالحة لذلك. لم يكن مومو ح قادرًا على استيعاب هذا الاختيار إلا من خلال معرفته لعشق أهله للأعمال الشاقة، وبحثهم عن الإمكانيات المتاحة لإضافة مساحات جديدة لأراضيهم الزراعية، وتوسيع مجال الرعي لأنعامهم.

تقدم موموح بين فدادين نعُمَت تربتها، رغم اختلاطها بالحصى، اِخضرَّ بها زرع تأخر حصاده بسبب تأثير الارتفاع على العناصر المناخية، بالجانب الآخر، يظهر مسرح البيدر (أنْرَارْ) كباقي أثر السجود على جبهة المصلي.

أصاخ فتى تاحفورت إلى الأحجار الخرساء من حوله تحدثه بترانيم الخوف المنبعث من لونها الفضي، ومن أشكالها الغريبة، فما ضعف ولا كان من الخائفين...

وعى موموح بأنه فعلًا حصاة من ذاك الجبل.

ركب موموح عشق التسلق، وحط على جبل "تايْلْمامْتْ"، أعلى الجبال في المحيط المباشر للقرية، إنها القمة... قمة الشموخ، وعنوان النجاح والوصول.

ربما كان الجبل مبعثًا للعقبات والتحدِّيات، لكنه بالتأكيد يمثل العظمة، وتبرز قمته التغلب على المشاق ودحر الصعوبات.

تفرج موموح على الدنيا التي بدت له عند السفح صغيرة التحفت ظلال الأرز، والبلوط، والزيتون. أحس كأن العالم بين يديه.

الجبل يجعلك تعرف قدراتك وتنظر إلى العالم بطريقة مختلفة.

أدرك مومود ذُؤابة الجبل ...فأحس وكأنه بلغ ناصية المجد، ورغم وعثاء الصعود فقد اشرأب اشرئباب المطل على النعيم، اِنغمست نفسه في سعادة لو اقتسمها مع العالم لوسعت الخلق جميعًا. ومَن أحسن حالًا ممن يستمتع بالأعالي بنسائم لا "تُحرك شجرًا ولا تُعفّي أثرًا" كما تقول العرب، لكنها تحمل اللِّين وتنعش الروح.

يرن الهاتف ليفسد على مومود استعذابه لوقفته الشامخة. يجيب مومود مخاطبًا المشاغب بأنه لن يستطيع إزعاجه هذه المرة... إنه فوق السحاب.

يرد رجع صدى التذكّر المنبعث من الأحجار موضحًا أن الطفل مومود كان سباقًا إلى القمة، وصلها مرات عديدة، هو يعرف جيدًا صخورها، واستمتع بالجلوس عليها والشرب من ماء نُقُراتها رغم أنه لم يركب حافلة حمّادي، ولم يتجاوز حدود "البِيرُو".

ينصت مومود وهو يغرز بعينيه مدققًا في هذا التجمع الصخري الحاد الذي يرتفع إلى ما يقارب ألفي متر، إلى أحجاره التي تكاد تنطق لتلومه عن خيانته، ولتصفه بقليل الفائدة الذي فضل الهروب إلى حيث لا يدري. يكاد يسمعها تحدثه متهكمة:

- أركبتَ حافلة حمادي وغبت لعقود من غير طائل؟ أيها العاق، اُنظر في كل الاتجاهات إلى هذا الفضاء الواسع الذي يحضن قبيلتك، والذي يهدي للعالم مشاهد أثيرة وساحرة، ماذا ينقصه ليوفر لأبنائه حياة أفضل؟

يغمض مومود عينيه معتقدًا أن الأحجار ستعفيه بذلك من سماعها، لكن صدى ما تختزنه من أصوات يأبى إلا أن يحدثه ويفسد عليه إحساسه بشموخ وقفته. قال الصدى:

- اِفتح عينيك، فأنت في حضرة الشموخ الذي لا يناله إلا الذين ثبتوا على العهد، وما بدلوا تبديلا. لن ترى رقصة الفراشات على نغمات ناي راعي الغنمات (تامْجَا) التي تحمل النفس إلى حيث الجمال والسعادة، أنغام لا يسمعها من ركبوا حافة حمّادي الذين أصمّ صخب الزحام آذانهم.

هرمت من أَجل تحقيق أهدافك الوهمية، هرمت واكتشفت أَن جدك وكبار قريتك قد رحلوا ولن يعودوا... مباركٌ هو مسعاك للوصول إلى حيث جدتك، لعلك تجد في لقائها لحظتك التي لم تأت بعد.

عرج فتى تاحفورت غربًا قبل أن يتجه جهة الشرق عند البداية الجنوبية لبحيرة تامدا، لترفعه مرة أخرى إلى الأعلى روائح بقايا "شريف وزان" التي اصطبغ بها مجال قبيلة مومو ح وقت كانت قراها تتجادل استرزاق مرور قافلة "الشريف" مقابل مكوس التيمُّن والتبرّك.

بعد العصر بقليل يقف مومو ح بين شعاب الهضبة المطلة على الوادي وقد أخذ منه التعب مأخذه، ليجد نفسه وجهًا لوجه مع وشم ثلاثي الأضلاع على جبين الهضبة. وشم له في قلب مومو ح مكانة تتجاوز في قداستها مادية الإعجاب، وعنفوان الحنين...

مهاد يكره الظل، ويعشق الرحيل، ويثير فضول مومو ح الذي عاص عليه وهو اليافع أن يفهم كيف أرسوه، ورفعوه، وجعلوا له في الأَرض أوتادًا، فيثبُت ولا يميد بمن فيه أبدًا.

مهاد يقام على أعواد الخشب، ويُشد بالأطناب فيُستظَل به في الحر ومن القر، ويأمن قاطنيه من المطر، والخطر، والخوف.

سمراء... قضى بها مومو ح ليالي عديدة عند خالته "تلايتماس" ب "عين دّْجير"، وآوته تحت جناحيها عند "يْمّا تْشْفَا" بأكرطوط بجنبات بحيرة "تامدا".

يتذكّر موموح جيدًا كيف كان يستمتع وهو ينام بها مع صغار العنزات بالنظر إلى القمر ونوره الذي ينسحب في الأفق، وسط نسائم لا تعكرها سوى روائح بول الجديان على الستائر.

كذلك استقرت بذاكرته كحسناء في ثوبها الأسمر الجميل، إلى أن أَيقظها بداخله لقاؤه بها بالأمس بمناسبة عرس شقيق صديقه "عصُّو".

فجأة يخرج من تحت ستائر الخيمة، وقد استدعاه نباح كلابه، رجل بجلباب يحمل خطوطًا طولية بالأسود والأبيض، ويلبس فوق جلبابه سلهامًا صوفي اللون، ويضع فوق رأسه رزّة بيضاء انكمش ثوبها وقد لفت رأس الرجل في فوضى ظاهرة. ينتعل رب الخيمة حذاء بأحزمة جلدية ونعل من بقايا مطاط العجلات. قوي البنية، فارع الطول، بشارب قوي، ولحية كثيفة عفا عنها صاحبها فبدت طويلة.

سار الرجل في اتجاه موموح، اِقترب وهو ينظر إليه متفحصًا، بادره موموح بالتحية:

- (أزُول آ أُولَاهْلْ) أهلًا، يا ابن أهلي.

رد الرجل وقد رفع يده اليمنى محيِّيًا:

- عْلِيكُومْ السلام.

يستضيف موموح نفسه قائلًا:

- حْنَا مْضْيَافْ الله.

يرد الرجل:

- مرحبًا.

يمد مومو ح يده نحو الرجل الذي مد بدوره يده، يأخذ فتى تاحفورت يد مضيفه فيقبلها، فيجرّ الرجل يد موموح دون أن يُقبّلها كما هي العادة. أعادا نفس الحركة مرتين وهما يتبادلان الأسئلة والأجوبة عن حال كل واحد منهما، كأنهما يعرفان بعضهما منذ فترة طويلة. فهم موموح من رفض الرجل للتقبيل المتبادل للأيدي أنه قد يكون من دعاة الانتماء ل "لأشراف".

اِنزعج موموح من اقتراب كلب الخيمة وقد تذكّر فوبياه القديمة عند ملتقى النهرين وهو يتحايل على شراسة كلاب (إِسَاقّْنْ). طمأنه ربُّ الخيمة، وبنبرة هادئة أشار الرجل إلى كلبه دون أن يرفع يده، كرر كلمات في اتجاه الحيوان لم يسمعها موموح جيدًا، لكنه فهم نوع العلاقة التي تربط بين الكلب وصاحبه... إنهما صديقان. تذكر موموح صديقه "جرمون".

قال الرجل:

- إنه تقبّل وجودك، ضع يدك على ظهره وحرِّكها على رقبته وداعبه... لا تخف، إنه اطمئن إليك فعلًا.

بلغة أمه يفصح فتى تاحفورت للرجل عن اسمه قائلًا:

- (نْتّْشْ دْ موموح، زْكّْ مُودَالَا دُّونِيثْ... زِّي تْحفُورتْ) أنا اسمي موموح، أنا منتوج هذه الأخاديد أسفله... من تاحفورت.

اِبتسم الرجل وكأنه اطمأن حين سمع اسمًا يشبه المكان، رد قائلًا:

- اِسم جميل يشرف حامله، إنه اسم محمد أو موموح بالنسبة للأطفال وفقًا لعرف قبيلتنا التي تسمي أبكارها من الذكور باسم نبيّنا، إنه اسم الطفل الذي يرعى غنمي، أنا اسمي "سيدي امْحَند".

ما كان مومـوح لينتبه إلى هذه الصدفة التي سيكون لـها ما بعدها...

أحس مومـوح بالعطش الشديد، كان الماء قد نفد من الوعاء الذي يحمله قبل أن يصل الخيمة بفترة غير يسيرة، فالتمس من "سيدي امْحَند" لو يتفضل ويأتيه بالماء.

قال "سيدي امْحَند":

- سنشرب الماء داخل الخيمة.

ثم دعا مومـوح إلى الدخول. أزال الضيف حذاءه، ثم ولج الإثنان الخيمة يرافقهما صوت "سيدي امْحَند" يصف بيته قائلًا:

- مرحبًا بك في بيتي، إنه متواضع كما ترى، لقد نسجته جدتي رحمها الله من شعر الماعز وصوف الضأن، إنه كما يظهر لك مقسم بحواجز من حلفاء طازا.

يلتفت مومـوح إلى "سيدي امْحَند" ليسأله:

- قلت طازا؟ أهو ذلك النوع من الحلفاء المتواجد بكثرة على جنبات وادي إيناون، والذي استمدّت منه مدينة تازة اسمها؟

تبسم "سيدي امْحَند" ضاحكًا وقال:

- إن سألتني عن غنمي ستجدني متخصصًا، أما تازة فأسمع بها فقط. حظيرة قطيعي واسعة، وطائفة أغنامي كبيرة تستلزم وجودي الدائم، لا وقت لدي للسفر إلى هناك.

كان الجانب المفتوح من الخيمة موجَّهًا عكس اتجاه الريح، ومحميًّا بصف طويل من ركام الحطب الذي امتد أمام الخيمة على عدة أمتار. فيما وقفت بغلتان بمربط الدواب خلف الخيمة، وحفّت من حولها على الجانبين حظيرتان، واحدة للماعز والأخرى للضأن.

أدخل "سيدي امْحَند" ضيفه إلى المكان المخصص للجلوس وللضيوف. على الرغم من توفر الخيمة على مستلزمات الحياة، ظهر الأثاث متواضعًا وكأن صاحبها زاهد في الضروريات. جلس مومَوح القرفصاء على الحصير كما في بيت صديقه عصُّو بتاحفورت، حصير بدون مفارش وبلا وسائد يغلب على لونه الاصفرار الغامق.

داخل الخيمة جناح مخصص لطهي الطعام حسب أحوال الطقس، وآخر للجديان والحملان حديثي الولادة. للخيمة أجنحة تضمن توازنها، هي ستائر تُجمع صيفًا للتهوية، وتُسدل شتاء للوقاية من البرد.

نادى "سيدي امْحَند" على زوجته باسمها، جاءت "للَّا ميمونة" تحمل طفلها الصغير على ظهرها وبيدها كوب من الماء، قدمته إلى زوجها ثم انصرفت دون أن تلقي التحية. تعود "للَّا ميمونة" بعد لحظة وبيدها اليمنى كأسان، وتحمل باليسرى طاولة خشبية صغيرة تقادمت حتى كادت تصير سوداء. أقامت الطاولة على الحصير، ووضعت عليها الكأسين.

بدت الطفلة على ظهر أمها شاحبة الوجه، ذابلة العينين كأنها مريضة. كانت زوجة "سيدي امْحَند" نحيفة، تبدو في الثلاثين من عمرها، تلبس فستانًا مزركشًا بألوان بدوية، ملثمة الوجه دون العينين بوشاح بُنّي، تربطه خلف رقبتها، وتضع على رأسها غطاء بألوان تختزل عنوان قبيلتها.

يلتفت مومَوح على جلبة آتية من وراء الخيمة، يشير "سيدي امْحَند" بيده إلى الخارج قائلًا:

- إنهم أبنائي.

يدخل الأطفال، هم أربعة، حليقو الرؤوس، تتفاوت قاماتهم ببضعة سنتيمترات فقط، حفاة يمشون، أرجلهم وأيديهم خشنة مجرّحة، يلبسون ثيابًا مستعملة ليست على مقاسهم.

اِستغرب مومَوح حمل الأطفال لأحراز بتمائم تحميهم من المرض، والعين، والشر.

أشار "سيدي امْحَند" إلى أبنائه بضرورة السلام على الضيف، فانخرط مومَوح والأطفال في طقوس التحية القائمة على المصافحة المتكررة، وعلى التقبيل غير المتبادل لليد.

قدم الأب أطفاله لمومَوح واحدًا واحدًا بأمازيغية صافية في جو باسم لا يخلو من تهكم، قائلًا:

- المشاغب الكبير اسمه سيدي عصام، عشر سنوات، مكلف بجمع الحطب من الغابة. يليه مولاي رشيد، ثمان سنوات، مسؤول عن الجديان والحملان. يأتي في الصف الثالث سيدي فريد، ستة أعوام، هو مقدم الخيمة الذي يحرس الدجاجات وصيصانها. حل بالأسرة رابعًا منذ أربع سنوات مولاي عبد العزيز، عاطل يعاكس الجميع.

من خلال تقديم الأبناء، تأكد مومَوح من ادعاء عائلة "سيدي امْحَند" انتماءها إلى العرق النبيل.

قال الابن عصام يخاطب أباه:

- نسيت أختي الصغيرة للّا فاطمة الزهراء، التي تركب ظهر أمي على الدوام.

يضحك الجميع وكأن عصامًا قال نكتة.

يحدث مومو نفسه متعجبًا من جرأة "سيدي امْحَند" على تجاهل القاعدة التي تطلق بموجبها الأسرة الورواينية على بكرها اسم محمد، كما أسرّ في نفسه حزنَه على غياب الأسماء الأمازيغية لدى أسرة "سيدي امْحَند".

من تاشفين إلى يوسف، ومن بُوكْرين إلى يوسف، ومن وَرَايْنْ إلى عصام، هي أسماء تتغير. ما الذي يغيرها يا ترى؟ مهما يكن السبب، فإن الوضع سيؤدي حتمًا إلى "إطفاء جمرتها".

علم موموح من "سيدي امْحَند" أن أطفاله لا يذهبون إلى المدرسة التي تبعد عن الخيمة بثلاثة أميال.

كان عصام كبير إخوته يذهب مشيًا على الأقدام إلى المدرسة، لكنه توقف عن ذلك نهائيا، نظرًا للانقطاعات المتكررة للدراسة بسبب البرد القارس، وتساقطات الثلج خلال فصل الشتاء التي تحول دون قدوم الأستاذ، ووصول التلاميذ إلى المدرسة.

فضّل "سيدي امْحَند" التسامح مع العبث حين قرر عدم تسجيل أبنائه الآخرين بالمدرسة، بدعوى اقتناعه بأن المصلحة الفضلى للطفل القروي ليست في قلب الاهتمام ولن تكون.

ينم موقف "الشريف سيدي امْحَند" بخصوص تمدرس أطفاله على موقف لا يتوافق مع رأي موموح، الذي يرى في التمدرس حقًّا دستوريا، وواجبًا على الدولة والأسرة أن يضمناه لجميع الأطفال.

حزن موموح بسبب وضعية الأطفال الأربعة. أضاع أبوهم مستقبلهم من خلال قراره تغييبهم عن المدرسة على الرغم من وضعه الاقتصادي المريح.

اِزداد ارتباك مومُوح وحزنه، وأصيب بحرج شديد حين وجد نفسه نازلًا عند شخص كريم فتح له خيمته، وقدم له أبناءه، لكنه يدّعي أنه عالي المنزلة ينتمي إلى أشراف القوم، اِدعاء لا يمكن لموموح أن يقبله أو يجيزه.

تاه موموح أمام هذا الواقع الذي لا يستقيم... أب جاهل يقرر إبعاد أبنائه عن المدرسة لأسباب قد تكون واقعية، لكنه لا يقاوم من أجلهم، ومواطن أمي يدّعي أنه من "الأشراف"، ولا يعي أن ادعاءه سيفسد علاقته مع الآخرين.

موموح في مأزق حقيقي.

يرن الهاتف الذي لم يسمعه موموح منذ فترة، يجيب فتى تاحفورت:

- أي نعم... أنا في أزمة حقيقية يا عقلي المشاغب، ولا أظنك قادرًا على استعمال سلطتك في إيجاد الحلول هذ المرة.

يرد المشاغب لينصح موموح بالابتعاد عن موقف الأب من تمدرس أبنائه، فظروف الأسرة صعبة لا تساعد على الحلحلة، كما دعاه بخصوص موضوع "النبلاء" إلى استلهام الحل من موقف أهله بتاحفورت كلما زارهم أحد الأشراف، قائلًا:

- تذكّر... ربما نفعتك الذكرى في حلحلة المأزق الذي أنت فيه، تذكّر جيدًا حصانًا يركبه رجلٌ مهيب أرخى لحية طويلة، عليه وقار حقيقي، ويلبس جلابيب بيضاء، ويضع سلهامًا بُنِّي اللون.

أتذْكر كيف تحلَق القوم حول "الشْريفْ" رغبة في لمس تلابيبه، وتقبيل يديه لنيل البركة من سليل النسب النبيل؟ أظنك ما نسيت وصول الموكب إلى حيث بقيت قطعان المريدين قريبة من

الطريق تحسُّبًا لزيارة "مُول البركة" ليختار بنفسه من بين التُّيوسِ، والخرفان الأَملح والأَقرن كهدية يتلقّاها مقابل بركة يمنحها.

قهقه المهاتف متهكمًا من مومَوح، ثم ذكّره بموقفه الذي لن يحسد عليه حين وجد نفسه في مواجهة عقله الفطين، فصار يتساءل عمن يكون هذا الشخص الذي يسمح لنفسه بِأخذ أحسن ما يملكه أهله البسطاء، ولماذا يقبلون بذلك؟ كيف ستصيب البركة أَهل القرية وترفع عنهم الفقر وقصَر اليد؟

يسترسل المشاغب في تهكمه، فيذكّر موموح بأن مشكلة أهله لم تكن تقتصر على تصديقهم خرافة "الأشراف"، بل علقوا كذلك بشبكة تدّعي معرفة الغيب من خلال قراءة الحصى.

رد موموح مؤكّدًا:

- نعم أتذكّر كل ذلك جيدًا.

قال المشاغب متعجبًا:

- ما الذي حملك على تجاوز عجز عقلك بخصوص "سيدي امْحَند"؟ تجاوز نفسك واستسلم، فسيكون بدنك في أمس الحاجة إلى بركة الرجل النبيل الذي سيمنحها لك بدون مقابل، ستحتاجها في مواجهة تعب الصعود إلى حيث جدّتك. ثم قل لي، ماذا عن أسباب ازدواجيتك وميولك إلى الكيل بمكيالين...

يرد موموح :

- أي ازدواجية؟ كنت على الدوام عادلًا، ولم أظلم أحدًا قط.

يستمر الفتى المشاغب في استفزاز موموح قائلًا:

- ما الفرق بين "سيدي امْحنْد" و"قارئة الحصى"؟ كلما احتكمنا إلى المنطق إلا وتناسيتَ، سأذكرك بالرغم من أنك لا تحب

"ذاكرتَك النقمة". أنسيت يوم غادرتَ المدرسة بعد العصر بقليل، وبقدر ما كنت سعيدًا برجوعك إلى البيت، حيث وعدتك أمُك بإيعاز من جدّك بمنحك بعض البيض المسلوق، كجائزة عن حفظك لإحدى سور الحزب الأول من القرآن، بقدر ما فاجأتك أمك وهي تشير عليك بأن تلزم الهدوء، فبالبيت الداخلي ضيف مهم لا يحب الإزعاج.

"هل تذكرها؟ كانت ترتدي "تَاحْرَاوْتْ"، عباءة صوفية خفيفة، كما كان باقي لباسها من الصوف الخالص، لم تكن سمرة وجهها صافية، بل كان لون بشرتها يميل إلى الرماديِ الشاحب البرودة. لم يسبق لك أن رأيتها، ومن النظرة الأولى ظهر لك أن مظهر السيدة يختلف عن كل النساء، وأن هيئتها توحي بأنها ليست امرأة عادية.

يهز مومو ح برأسه مشيرًا إلى أنه يتذكر.

اِسترسل المشاغب:

- اِلتفتت الضيفة الغريبة فبدت عيناها مثقلتين كأنّهما تحملان همًّا أو سرًّا دفينًا، قالت بصوت فاتر:

- "مَا هَانَّيا موموح" أهذا هو موموح؟

بصيغة الأمر تجيب أمك:

- "سْلّْمْ أَموموح".

مددت يدك للسلام فنهرتك أمك مستنكرة:

- (سُودْمْ أَزْلّيفْ لأَلَّاشْ تَشْرِيفْتْ أَمْمِّي) قبّل رأس سيّدتك "الشريفة" يا ولدي.

رغم أنك لم تكن تتوفّر على الحد الأدنى من النظافة فإنك استكرهت رائحة "تَارِيطاتْ" التي تضعها "الشريفة" فوق رأسها، كما استهجنت طقوس التحية من جانب واحد.

فلمّا اختليت بأمك سألتها:

- من تكون هذه السيدة يا أمي، وما دواعي امتناعها عن رد التحية؟

أجابت أمك:

- إن "الأشراف" لا يردون التحية، الناس العاديون هم من يبادرون إلى تقبيل رؤوسهم أو أيديهم لنيل البركة.

"سكتت اعتباراً لمعرفتك المسبقة بكون جدّك، مرجع أمك، لا يُشق له غبار في المسائل الروحية، إنه المرجع الأعلى".

"إنها لَالَّاهُمْ "الزهرة يِّمْزازْنْ"، من قرية "إِزْلَافْنْ"، جاءت لزيارة عائلة صديقتها القديمة... جدّتك من أمك. لكن ذلك لم يكن يمنعها من المرور على كل دُور القرية لزيارة نسوتها اللائي يرغبن في معرفة المجهول، إنه موروث قديم كان راسخًا في سلوكيات أهل القرية رغم تدينهم الشديد".

يعلق مومو ح قائلًا:

- لَالَّاهُم الزهرة... هي لم تكن تدعي انتماءها إلى "الأشراف" فقط، بل كانت متخصصة في قراءة "إِمْزازْنْ" الحَصى كذلك. إنها "قارئة الفنجان" بطريقتها الخاصة. كانت تدعي أنها تعلم الغيب وما يخفى، وتضحك من جهل نساء تاحفورت وأزواجهن من الفقهاء الذين ما تركوا صلاة قط.

يتهكم المشاغب على مومو ح:

- ويحك يا مومو ح، كنت تعذّب نفسك بالإطالة في عُتباك لها وبالاحتجاج عليها عبر المساءلة ... أكُتِب عليك أن تُشغل عقلك الصغير بالتفكير في هذه الخوارق؟ أكثرت هموم أهل قريتك حتى صاروا مولعين بمعرفة ما يتربص بهِم؟

"لماذا كان المعلم المتنور يكتفي بلعب الورق مع رجال القَرية، ولم يجتهد في جعل المدرسة تندمج في محيطها المباشر للمساهمة في تنوير أَهلك"؟

- المعلم وقتها كان مجرد موظف غير مؤهل، جيئ به لشغل المنصب فقط. يجيب مومو ح.

مستفزًّا ينصح المشاغب قائلًا:

- اِستسلم يا موموح ولا تعاند، لا تفسد علاقتك برجل طيب كريم، أنت في أمس الحاجة إلى خدماته.

رد موموح محتجًّا:

- أتظن أني جئت إلى هنا لأعود بروحي إلى طبيعتها الأصلية؟ لن أستسلم، ولست في حاجة إلى بركة سيدك امْحَند، سأُتعِب بدني بالصعود لأحرر نفسي من سجنها الجسدي.

يقطع صوت العقل حبل كلام موموح داعيًا إياه إلى الانتباه، فعالم "سيدي امْحَند" هو عالم ثابت لا يتغير، وأن عليه احترام اعتقاد مضيفه وجعله في مرتبة يقبل بها.

يرد موموح بأن كل همه هو أن يفهم أمثالُ "سيدي امْحنْدْ" أن الأنساق لابد لها أن تتغير.

اِنتبه موموح من سرحانه على صوت "سيدي امْحَند" يدعوه لمرافقته خارج الخيمة ليتوضآ استعدادًا لصلاة المغرب.

أدّيا واجب الصلاة، وجلسا يتبادلان أطراف الحديث، اِستفسر موموح مضيفه حول الترحال، وعدم الاستقرار، وظروف العيش القاسية بالمناطق الجبلية.

كانت فرصة أفرغ خلالها "سيدي امْحَند" ما يعيشه من معاناة من تبعات العزلة وقساوة المناخ، ولعنة الجغرافيا، على الرغم مما تدرّه عليه أغنامه من الخير الوفير.

في سرد تتخلله تأوُّهات عميقة، حكى "سيدي امْحَند" معاناة المنطقة خلال فصل الشتاء من البرد القارس، وشح المواد الغذائية، خاصة حين تغمرها الثلوج فيكسوها بياض يراه أهل المدائن جمالًا، لكنه بالنسبة لسكان الأعالي كله معاناة لا تطاق. يؤكد "سيدي امْحَند"، أن الوضع يوحي بعدم وجود من يلتفت إلى سكان المناطق الجبلية.

جاءت "للّا ميمونة" تحمل وجبة العشاء، يسألها زوجها عن موموح الراعي بعد أن لاحظ أن الوقت المعتاد لرجوعه بالأغنام قد فات ولم يعد بعد. ترد "للّا ميمونة" قائلة:

- المشي بين هذه الأخاديد يُتعب الإنسان والحيوان، ربما فضّل قضاء الليلة مع الأغنام هناك بالمراعى، حتى لا يرهق القطيع.

يسألها زوجها:

- هل أعطيته من الزاد ما يكفي، إذا اختار البقاء هناك؟

مرتبكة تجيب "لَلّا ميمونة":

- لم يطلب مني شيئًا.

ظهر ل "سيدي امْحنْد" أن زوجته قصرت في حق الراعي، لكنه سكت تفاديًا لإحراجها.

تناول موموح وجبة العشاء مع "سيدي امْحَند" وأطفاله. قام الرجل بواجب الضيافة على أحسن وجه. اِنتبه موموح مرة أخرى إلى أن الأطفال يحملون بأعناقهم تمائم معلقة بخيط اسوَدّ من الوسخ.

قال مومو ح مخاطبًا مضيفه:

- ما تلك بأعناق أبنائك يا سيدي "الشريف"؟

قال "سيدي امْحنْد" معتدًّا:

- هي وصفات "حجابية" سافرتُ من أجل الحصول عليها إلى "أمُورغُو" حيث يسكن الفقيه-الطبيب "سي علي أُويْدِّيدْ". هي تمائم تحفظ الأطفال من العين والأمراض، وتدفع عنهم البلاء والشرور.

يُحدث موموح نفسه ويتعجب من ازدواجية "سيدي امْحنْد"، ويتساءل كيف لمضيفه أن يدعي أنه من "الأشراف" ذوي الرفعة والمنزلة العالية، ثم يسافر لمسافة طويلة للحصول على تمائم لا تنفع.

يرن هاتف العقل، يُنهي محاورة موموح لنفسه. يجيب فتى تاحفورت:

- أراك لا تنتهي من إزعاجي ومعاكستي، ثم إنني لا أفهم اهتمامك بِ "سيدي امْحنْد" بالرغم من أن ازدواجيته كفيلة بحمايته وحلحلة مشاكله.

محتجًّا يجيب العقل المشاغب:

- كيف لك أن تنتقد مضيفك بخصوص الأحراز التي يحملها أطفاله بأعناقهم، وقد حملت مثل ما يحملون؟ لعلك تريد ما يفيد؟ حسنًا... ها هي تميمتك ما تزال بعنقي.

تذكّر، فإن الذكرى ستعفيك من إحراج مضيفك. أما أنا، فلم أنس. أتذكر جيّدًا ذلك اليوم، وأنا أرى الشمس، مباشرة بعد العصر، تودع تاحفورت وهي تَزَاوَر عنها ذات الغرب، يكاد القرص منها يصطدم بقمة "تَايْلْمامْتْ".

اِنسحب الدفء، جلس جدُنا ب "تادَّارْت" قريبًا من الباب الخارجي، وقد افترش "ساشُو" فوق الحصير، وأسند ظهره الى "تَاكَّدِيتْ"، وبيده غصن صغير من شجر الزيتون، يهش به على الدجاجات التي تحاول ولوج مجلسه. صار يستمتع بغمس لقمات خبزٍ بارد من الشعير في زبادية بها زيت، ويُتبِعه بقضم أطراف البصل النيِّء "تالِدَامْتْ"، فتسمع له صوتًا كخشخشة المشي فوق أوراق الكرْم اليابسة.

جلست إلى جدّنا وقد بدَت عليك علامات حمى خفيفة. بعد تشخيص سريع من خلال العين المجرّدة، واللمْس على الجبْهة أُوتيّ للفقيه-الطبيب بأدوات العمل فصار يغمس بِ "قلْم" من القصب في محبرة من السمغ، ثم يكتب على ورق أصابه اصفرارُ القِدم والتّقادم عدة كلمات ربما كانت أدعية أو آيات قرآنية.

جاءت أُمُنا بقطعة صغيرة من "هيضُورة" قديمة لتيس أُضحية العيد، فوضعتْ بها الوصفة "الحِجابِيّة" التي خطّها أبُوها الفقيه ثم خاطتْها حتى صارت تميمة تمّ تعليقها في عنقك بواسطة خيط حريري بلون حَب الرمان سحبته من خيوط قديمة مطرزة بِ "مُوزُون"، تتشمّر بها.

حملنا تميمتنا بكلّ الاحترام الواجب للدواء "الفقيهي" المقدس، وتعلَّقنا بها، وأَوْليناها رعايتنا واهتمامنا طبقًا لوصية أمّنا وتنبيهاتها.

اِسودّ حرزنا من الأوساخ، فاحت منه رائحة كريهة دون أن يتقادم أو يفقد صلاحيته، ودون أن يقينا من حمى مترددة. بقدر ما كنت في بداية الأمر تحمل دواءك معلقًا بعنقك بكل ثقة واعتزاز، بقدر ما صرت تتضايق من تميمتك المُضجِرة، فتنازلت لي عنها... وبقيت معي، وما زلت أحملها.

يرد مومـوح منبهًا الطفل المشاغب:

ويحك، ألا تعلم أَن التعلق بالعُوَذ وتعليقها والاعتماد عليها في صرف الضر، والمرض، ودفع البلاء اتّقاء الشر وجلب النفع والشفاء هي أمور غير جائزة في دينِنا؟ ثم إنني تركتها لك لهذا السبب، بعد جدال غير مُجدٍ مع جدّي الفقيه/الطبيب.

هل كان مومـوح مقنعًا؟ في كل الأحوال، اِنسحب العقل المشاغب ولم يرد. لم يستطع مومـوح مقاومة النوم الذي فرضه عليه التعب، اِعتذر من مضيفه، وتمنى له ليلة سعيدة، وتوسّد ذراعه، ونام تحت دفء لحاف من الصوف الخالص مدّه به مضيفُه.

يغالب مومـوح النوم، حين سمع "سيدي امْحَند" يوشوش لزوجته ويقول:

- يا سبحان الله، إن لضيفنا وجهًا بقسمات تشبه ملامح راعي أغنامنا مومـوح. يا لعجيب الصدف، إنهما من نفس القرية ويحملان نفس الاسم!

ردت الزوجة:

- عجيب أمرك، كيف لك أن تقارن بين الوجه الناعم لضيفنا الذي جاء من "الغرب" ووجه راعينا المسكين الذي لفحته الشمس حتى أحرقته، وقرسه البرد حتى تشقق؟!

رغم التعب واشتداد النعاس عليه، اِنصرف ذهن مومـوح للتفكير، فبات مؤرَّقًا يتقلب على دفّيه.

يفكر، وقد أتاه العجب من إزدواجية أخرى يعيشها "سيدي امْحنْد". يملك قطيعًا من الغنم برؤوس عديدة، ويقبل بالعيش مع زوجته وأطفاله في ظروف صعبة.

ما الذي جعله يخضع لهذا الوضع الذي لا يحتمل؟

وعلى الرغم من أن الكرى أثقل أجفانه، فإنه اعتزم مغالبة النوم، حين عاص عليه فهم طبيعة الازدواجية الغريبة التي ينتجها المكان في تفاعل مع الأسطورة ليولّد تماثلًا بين صورتي الحجر والبشر.

من أين تستمد قمة بويبلان شخصيتها؟ وكيف لذلك أن يكون؟ أرّقه التفكير في المسوغات التي سيبرر بها، لجدّته تامغارتْ، عند لقائها في الغد، اِختياره ركوب حافلة حمّادي، وكيف ولماذا آثر العيش بعيدًا عن مطارح أهله، ودواعي اهتمامه بالتغيير لتفادي الانقراض.

هل ستتفهم الجدة الجريئة، التي ضحت بكل شيء، مسعى حفيدها بخصوص الانتقال من نسق إلى نسق؟ ثم أخيرًا وليس آخرًا، هل سيكون لباسه الإفرنجي مصدر انزعاج لتامْغارتْ؟ بالتأكيد هناك مشكلة، فالجدّة تربط بين اللباس وألوانه وبين الهوية، وتنظر إلى رمزيته باعتباره يميز بين الأجناس والمعتقدات.

اِنتهى إلى مومو صوت طفل يبكي، أرخى السمع، إنها "للّا ميمونة" تهدهد ابنتها "للّا فاطمة الزهراء" التي ألمّت بها نوبة بكاء.

أغمض موموح عينيه كأنه غفا، لكن بكاء الطفلة أيقظه. أنار "سيدي امْحنْد" لمبة الغاز، اِزدادت حدّة بكاء "للّا فاطمة الزهراء".

نظر "سيدي امْحنْد" حيث ينام ضيفه، رآه مستيقظًا فقال معتذرًا:

- ألتمس المعذرة... لم تنم بعد وأنت المتعب من المشي طوال اليوم، أزعجك بكاء الطفلة. ربما ألمّ بها المغص على إثر العشاء الدسم الذي تناولته.

رد মوموح قائلًا:

- لا بأس، هم الأطفال هكذا. هل يمكن لي أن أراها؟

جاء "سيدي امحنْد" بابنته، وضعها بين يدي مomوح الذي صاح بمجرد أن وضع كفّه على جبهة الطفلة:

-ربّاه... جسمها ملتهب من فرط الحرارة! ألم تقل لي إن تميمة الفقيه/الطبيب "سي علي أويْدِّيذْ" تبعد العين والمرض؟ أتأكدت الآن من أن الأمر مجرد شعوذة لا تجدي نفعًا؟

رد "سيدي امْحنْدْ" الذي أغضبته ملاحظات موموح، بأن بركة الفقيه "سيدي علي أويْدِّيذْ" ثابتة لا يأتيها الشك، ليس هناك ما يكذبها أو ينقص من قيمتها.

لم يكن الموقف يسمح بالمجادلة، ولا الرهان يتيح إقناع "سيدي امْحنْد" بصواب موقف الضيف من التميمة، بقدر ما اهتم موموح بضرورة خفض درجة الحرارة التي تنهش جسم الطفلة المسكينة.

مد فتى تاحفورت يده، سحب حقيبته، فتحها، ثم أخرج منها دواءً خافضًا للحرارة ومخففًا للألم. راجع ورقة تعليمات الاستعمال ليتأكد من أن الدواء صالح للأطفال. طلب كوب ماء، أفرغ به المسحوق وأشربه الطفلة. ثم قال مخاطبًا "للّا فاطمة الزهراء" وهو يفرك بسبابته وجنتها بحنية:

- ستبقين هنا بجانبي، ستنخفض الحرارة بعد حين، سيزول الألم، فتنامين... (تِيرجَا نُّمْ تِيرجَا نْ تْمْيْمُونْتْ) أتمنى لك أحلامًا سعيدة.

ساد الصمت أرجاء الخيمة، إلا من أنين الطفلة وبكائها المتردد الذي لم يدم طويلًا. سكت "سيدي امْحنْد" ولم ينبس ببنت شفة.

بعد نصف ساعة، هدأت الطفلة، إنخفضت الحرارة، زال المغص... ما عادت للّا فاطمة الزهراء تبكي.

وضع الأب يده على جبهة ابنته ليقيس حرارتها، ثم قال مخاطبًا مومو ح وقد تفاجأ بانخفاضها:

- "شايْلّاه أ سيدي علي أويْدّيذْ"، ألم أقل لك إن بركته ثابتة؟ كنت أعلم بأن منسوب الثقة في الفقهاء والأولياء الصالحين ضعيف عند أهل المدينة.

رد موموح غاضبًا:

- اِحمَد الله الذي جاء بي إلى خيمتك ومعي الدواء، أما سيدك "علي أويْدّيذْ"، فأنا متأكد من أنه لن يستطيع خفض حرارته بشعوذته.

قال الأب متهكمًا:

- أتعتقد أن مسحوقك هو الذي أبرأ ابنتي؟ أنا وضعت "نيّتي" في "سيدي علي"، كما قال الأولون: "دِير النيّة وانعسْ مع الحيّة".

رد موموح بأن النيّة هي توجُّه النفس نحو العمل، وأن اليقين يوضع في الله، هو وحده يوفر الأسباب، ثم إن النوم مع الحيّة يفضي إلى اللسع والموت.

غطّى فتى تاحفورت رأسه باللحاف... ونام.

19

تواعد "سيدي امْحَند" وموموح باللقاء مجددًا عند عودة الأخير من زيارته لقمة بويبلان.

أعطى "سيدي امْحَند" ضيفه حقيبة من القماش (أعْدِيلْ) بها طعام للسفر. ممتنًا أخذ موموح الزاد، وضع حقيبة أغراضه على ظهره، ثم ودع الرجل الكريم الشهم "سيدي امْحند" شاكرًا إياه على الاستضافة.

وقف "سيدي امْحَند" أمام الخيمة ولسانه يلهج بالدعاء لموموح بالتوفيق والسلامة، فيما تسمر أبناؤه الأربعة في مكانهم يتابعون انصراف موموح وهو يلوّح لهم بيده حتى غاب عن أنظارهم.

صعودًا يمشي موموح وقد ولّى وَجهه وِجهته... قمة بُويْبْلَانْ. يسير منذ ساعات وكأنه يتحرك حسب نظام تحديد التموضع GPS بين أشجار الأرز، والبلوط التي تؤثث واقعًا بعيدًا عن الخيال، منجم إيكولوجي حقيقي يتخلله الاخضرار، والاصفرار بفراغات من صنع التدخلات البشرية، والعوامل الطبيعية.

باستثناء سماعه لثغاء الغنم والماعز يأتيه من بعيد، ما يفيد تواجد بعض القطعان بالمنطقة، لم يلتق مومو ح بطريقه بشرًا، ولم ير طيرًا ولا حيوانًا.

وصل موموح بعد لأي إلى "أَلْمُو وُّورَار"، مكان كثير العشب دائم الاخضرار، اِستوى يحسبه الناظر رغم مساحته الشاسعة ملعبًا معشوشبًا لكرة القدم. يقصده الرعاة بأغنامهم وتقام به خيام الرحّل، كما أنه استُعمل قديمًا، كما يظهر من اسمه، لإقامة التظاهرات الأحيدوسية الراقصة.

تنفّس موموح عبق الماضي من خلال هذا المكان الذي يشبهه، جلس وقد أسند ظهره إلى صخرة، رفع رأسه، ينظر في اتجاه القمة، أعشى سطوع البياض بصره، ما زالت هناك بعض خيوط الثلج الصامدة. فهم موموح مصدر اسم بويبلان وهو يعيد النظر إلى الخيوط البيضاء التي تعشق الشمس وتأبى الانصهار، تشبه خيوط أطراف الزربية الوراينية (إبْلَانْ).

أزال موموح حقيبة أغراضه من على ظهره، وضعها إلى جانبه على الأرض، أحس بالجوع، فأخرج من حقيبة القماش اليدوية بعضًا من زاده. أكل فتى تاحفورت، وتملّى البساط الأخضر من حوله. كان البساط غارقًا في الصمت.

دبّ رتل من النمل ينسل صوب الفتات الذي سقط من يدي موموح وهو يتناول طعامه. أبعد حقيبة أغراضه عن طريق النمل، فتحها وسحب منها منشفة لينظف بها فمه ويديه، اِنتبه إلى وجود صور صحائف جد يوسف بالحقيبة، كان يعتقد أنه تركها بالسيارة.

أمسك موموح بالصحائف، وجد أنها ما زالت تحمل الغبار الذي طالها بدولاب يوسف، أخذ ينفض الصحائف ليزيل عنها ما

علق بها من غبار، مسح بيده على وجه الصفحة الأولى، دقق النظر، قرأ، فهاله الغموض الذي هبا من الوثائق ذات الحمولة التاريخية الثقيلة. أغمض مومو‌ح عينيه وهو يفركهما حتى يتبين في الأمر. اِهتزت الصخرة كما لو كان لفرك مومو‌ح عينيه نفس المفعول حين مسح علاء الدين المصباح السحري بيده.

سمع مومو‌ح وكأن وقع خطو غير واثق يتقدم نحوه، فتح عينيه ليجد أمامه شيخًا طاعنًا في السن، فارع الطول مسترسل اللحية، ينتعل حذاء من الحلفاء الخالصة، حليق الرأس إلّا ما كان من عفوه على الجانب العلوي الأيسر منها عن قرن من الشعر (تاكْطَّاشْتْ) طالت خصلاته التي يظهر من فوضويتها أنها ضُفرت منذ مدة. يلبس الشيخ جلبابًا بخطوط طولية بيضاء وسوداء تكاد تندثر، عليه سلهام فقد لونه الأبيض الصوفي فصار رماديًا كلون الصخور المحيطة ب"ألْمُو وُّورَار".

تأمّل مومو‌ح "أمغار" من رجليه إلى هامته، فأحس كأنه صعد من تاحفورت إلى قمة بُويْبْلان.

تفحص فتى تاحفورت الشيخَ جيدًا، لاحظ أنه يحرك رأسه متلفِّتًا حوله، يوجه إليه أذنيه في تناوب حذر، تأكد له أنه أعمى.

كسحابة صيف طلعت من خلف العدم لتظلل استراحة مومو‌ح، أو كيَدٍ مُدّت من خلال الأسطورة لتائه بين جبال تناستها صحائف التاريخ، وقف الشيخ الرمادي أمام مومو‌ح، تحسس تموضعه ثم خاطبه كأنه يراه:

- أزُولْ فْلّاوْنْ... شممت رائحة وجودك، أكاد أراك يا بني، قل لي: ما الذي حملك على المجيء إلى هذا المكان المعزول عن

العالم، وما الذي دهاك وجعلك تزيل غبار التاريخ الذي دثر طويلًا هذه الصحائف التي بين يديك، فتوقظني من مرقدي؟

اِنتبه مومُوح كمن استيقظ من كابوس، ثم أجاب:

- معذرة أيها الشيخ الوقور، لم أفهم قصدك، وفي جميع الأحوال لم أكن أنوي الإزعاج، أردت أن أعرف فقط، ثم قل لي من تكون؟

جلس الشيخ وقد أسند ظهره إلى صخرة، تحسس المكان بيده، ثم قال:

- (نْتّْشْ دَّادَّاشْ أمْقّْرانْ "وَرَايْنْ") أنا جدّك الأعلى "وَرَايْنْ"...

يقاطعه موموح متسائلًا:

- أنا لا أعرفك، فكيف تكون جدّي؟ وما سر وجودك بهذا الخلاء؟

متأوهًا يرفع الشيخ من عقيرته ويخاطب موموح بأمازيغية فصحى صافية:

- (ارْزْمْ قْبَالَا إمْجَّانْ... سْغْد غْرِي ٱموموح يّْغْنانْ) اِصغ إلي جيدًا أيها الولد موموح، أنا صعدت إلى هنا قادمًا من الزمن البعيد حين مسحتَ بيدك على الصحائف. اِلتقيت في الحياة الأخرى بحفيدي، جدّك المباشر، فعرفتُ قصتك من خلاله، فجئت خصيصًا لملاقاتك وأنا أحمل إليك رسالة، لعلك تفهم حمولتها فترتاح. (ٱمْنّْ نَّانْ إمْزْوُورَا) كما قال الأولون: إن الهجرة ليست سلّمًا يرتقيه المرء لرؤية المستقبل، إنها كالزمن تأخذ صاحبها نحو غربة بطعم الماضي.

- (هَاكّْ آتَازْدُوكِّي!) يا للفصاحة! كذلك خاطب موموح نفسه.

فرك موموح مؤخر عينه اليسرى بسبابته معلنًا عن عدم قدرته على استيعاب الموقف.

يقول الشيخ في محاولة لتوضيح الأمر:

- يا بني، أنصت إلي جيدًا، سأُفهمُك حتى لا تنسى، سأقص عليك حكاية ميلاد أسطورة ما يزال صداها يتردد على امتداد بلاد أهلك.

منذ جئنا من حيث جئنا إلى "تَانْشْرَرَامْتْ"، كنتُ يا ولدي صخرًا لا أبالي بالبرد القارس في ليالي الشتاء الطويلة، ولا بمعاناة الصيف المريرة، فصرت بسبب الهجرة التي فرضتها علي "تامغارتْ" صرحًا من خيالٍ... فهويتُ.

صرنا نعيش شتاءنا بسهل وادي "مْلُّو"، ونقضي صيفنا ب"أدرار" هنا ببُويْبْلان أنا وزوجتي، تلك العجوز الشمطاء... عفوًا يا ولدي، نسيت أنها جدتك، لكن العالم كله يعلم أن ما أصابنا كان بسببها. كنت، قبل أن أصير كفيفًا، زاهداً في الدنيا أشتغل مستشارًا للرحّل في أحوال الطقس ومواقيت رحلات الشتاء والصيف ومتطلباتها، وحيث أني حُرمت نعمة البصر في ظروف عصيبة فقد كان لنا راع يهتم بماشيتنا.

ذات مساء من مساءات شهر فبراير، جلست إلي جدّتك، ظننتها ستؤنس ظلمتي بحكايات الأساطير القديمة التي تحفظها. لكنها كانت تريد شيئًا آخر. قالت:

- ألم تلاحظ أن درجة الحرارة قد ارتفعت؟

قلتُ:

- بلى، ولكن قليلًا...

ردّت بأنها لا تجد الأمر طبيعيًا، وأنها تخاف على لبنها من الفساد. لقد صار الجو دافئًا، لذا فكرت في الرحيل إلى "أدرار" قبل الوقت المعتاد. رفضتُ فكرتها بسبب البرد القارس الذي ما زال يخيم على "أدرار"، لكنها ألحّت... فكان ما كان.

سكت الشيخ، قاطعه مومن حين أراد أن يسترسل... ليسأله:
- أين تركت الجدّة، ماذا تعني ب "فكان ما كان"؟

رد الشيخ وهو يشير بأصبعه إلى الأعلى دون أن يرفع رأسه:
- ستجد جدّتك هناك بقمة "موسى وُصالْح" أعلى قمم سلسلة بُويْبْلان. تركتني هنا ب "ألْمُو وُّورَار" وذهبت تطلب القمة، قالت إن هناك مراع أفضل، غامرت من أجل ذلك حتى خارت قواها بسبب تمردها علي وأنا الكفيف، وبغرورها حين استهانت بقوى الطبيعة، واستخفت بها، واغترت بنفسها فجاءها العقاب حين سلطت عليها الطبيعة ولديْها فبراير (فورار) ويناير (ينار) اللذين تضامنا لينتقما منها شر انتقام، فتجمدت بفعل شدة البرودة حتى استحالت هي والراعي، والأغنام، والكلب إلى صخور.

أُعجب مومن بخيال أجداده حين جعلوا الأسطورة تستحضر الطقس لتضمن اِستمراريتها، وأهدوا "تامغارت" للطقس قربانًا حتى يبرر قساوته فلا يعيدها.

نصّب مومن نفسه وكيلًا لجدّته "تامغارت"، وبدأ مرافعته قائلًا:

- المغامرة هي روح الرحلة والهجرة، وجدّتي كانت محقة في اختيارها، كانت امرأة شجاعة، وهذه الصخور وحدها لا تهاجر. ثم إن"الخوف لا يمنع من الموت، ولكنه يمنع من الحياة" كما قال الكاتب

نجيب محفوظ. أرادت جدّتي أن تغير وتتحدى نسق الطبيعة فأدت الثمن. ولكل غالٍ ثمنه.

لملم الجدّ الجناح الأيمن لسلهامه ورمى به على كتفه اليسرى، ثم قال:

- يا بني، الصخور لا تهاجر لأنها موجودة للقيام بمهمة معينة، دورها حماية السفوح بصدّها الإِنهيارات الثلجية. يظهر لي أن رسالتي لم تصلك، هي ليست رسالة لأهلك ليتخذوا حذرهم حتى لا يصيبهم ما أصاب جدتهم فحسب، إنها كذلك رسالة إليك أنت بالذات، لتعلم أن الهجرة تعني من بين ما تعنيه أنك تخسر صورك، وثقافتك، وماضيك، وذكرياتك القديمة. ثم قل لي من يكون نجيبُك هذا؟

قال مومو:

- إنه من أذكى العرب أو قل هو العربي الوحيد الذي صعد إلى القمة.

يرد الشيخ "وَرَايْنْ":

- هل أنت متيقن من أنه عربي؟

قال مومو:

- من فضلك يا جدّي الموضوع جِدي، ثم لا تكن رومانسيًا ولا تعمّق جراحي. لا أرى للماضي قيمة تذكر، لقد عشتُ معظم حياتي قصصًا لو أخبرتك بها لن تستطيع معي صبرَا، قصصًا مثقلة بحمولة الماضي الذي صار قيدًا أدمى معصمي.

يرد الشيخ وهو يخلل لحيته بأصابعه:

- يقول العقلاء الأولون: إن الماضي هو قوة الزمن الباقية. ثق بي يا بني، الماضي هو مفتاح اللعبة ووسيلتك للصعود إلى القمة.

يسأل مومو ح جدّه مرتبكًا:

- كيف لي بالصعود إلى القمة حيث تقيم جدّتي وأنا لا أعرف الطريق إليها؟

اِبتسم الشيخ وقال:

- عليك أن تحملني إلى هناك على ظهرك، فأنا وحدي أعرف الطريق إلى قمة جدّتك.

أعمى ويدّعي أنه يعرف الطريق! قالها موموح في نفسه قبل أن يرد بعد تردد:

- أخاف أن أحملك يا جدّي فتتعثر خطاي.

بصيغة الحزم والعزم يقول "أمغار":

- يا بني، اِحملني ولا تخف، أنا معك، سأدلك على الطريق.

وافق موموح على حمل جدّه، شريطة قبول الشيخ مبدأ المصالحة مع الجدّة "تامغارتْ" عند الوصول إلى القمة.

ينهض الحفيد، يخبئ حقيبة أغراضه خلف الصخرة، يمسك بيد جدّه الذي وقف، ولوّح بجناحي سلهامه إلى الوراء. يحمل الحفيد جدّه على ظهره، ينطلق فيسقط نعل الشيخ من رجله اليمنى. يلتفت موموح، ثم يستمر في مسيره، يصيح الجدّ وهو يطلب من حفيده أن يتوقف لأنه فقد نعله.

قال موموح:

- أُتركه يا جدي، إنه ليس حذاء، ولا نعلاً، ولا حتى صندلاً، هو قطعة مشكّلة من الحَلفاء لا فرق بينها وبين القطعة الأخرى، خفّان يصلح كلاهما للقدمين اليمنى واليسرى، هي قديمة لم تعد صالحة للانتعال.

رد الشيخ:

- إنه حذائي، ألفته قدماي، هو صالح لممشاي لكل زمان ومكان، لن أتركه أبدًا، ثم هل ترضى لي يا بني أن أقف أمام جدتك حافي القدمين؟

توقف مومو ح، نزل الجدّ، تراجع إلى الخلف، تحسس الأرض بيده باحثًا عن النعل، وجده والتقطه. باغته مومو ح بالقول:

- سيضحك منا الناس بسبب موضتك القديمة.

يرد الجدّ غاضبًا:

- قلت ماذا؟ الموضة؟ ماذا تقصد؟ هل هي شتيمة جديدة؟

يجيب مومو ح وهو يقهقه:

- الموضة يا جدّي هي ما يولع به الإنسان لفترة معينة ثم يزول ليظهر نموذج آخر غيره.

قال الشيخ ملتفتًا إلى مومو ح الذي تقدم ليحمله مرة أخرى:

- من سيضحك من شيخ ضرير يعشق العيش بين الصخور؟ ثم إن الحاجة علمتني يا بني أن لا شيء يفنى... أنا متأكد من أن حَلفاء حذائي ستنفع بعد استعمال طويل في تقديم خدمات أخرى لن أحرم نفسي منها.

يحمل مومو ح جدّه منذ ساعة أو يزيد، صعودًا يسير على طريق وعر لم تعد معالمه بارزة لأنه لم يعد مطروقًا. يمشي تحت مراقبة الشيخ الذي يرشده، أحس بحاجته إلى الاستراحة حتى يستعيد قواه، حطّ حِمله وأوَى مع جدّه إلى ظل صخرة ثم جلسا.

مسح مومو ح العرق عن جبينه وخاطب جدّه قائلًا:

- حمَّلتني الحِمل... فأَنَّ ظهري من ثقل جسمك يا جدّي.

رد الشيخ:

- أظننت أنك ستبلغ القمة دون أن تتعب؟ أنت تريد القمة، وهي كلمة عظيمة تستدعي الصبر والتضحية، أم أنك تحسب حملك لي عبثًا لا طائل من ورائه، لأنني أمثل الماضي بالنسبة لك؟ حسنًا، فليكن، أنا الماضي، والمعرفة هي من تراكمات ودواعي الماضي... وأنا أعرف الطريق.

سكت الجدّ وكأنه يفكر أو يستعد لتغيير موضوع الحوار، ثم استرسل في حديثه:

- قل لي يا بني، كيف يبدو لك المشهد أسفله من حيث نحن؟

قال مومو ح:

- عن أي مشهد تتحدث يا جدّي؟

ردّ الشيخ "وَرَايْنْ":

- أقصد مشهد غابات الأرز والبلوط مترامية الأطراف التي تؤثث فضاء أهلك. أسألك يا بني لأنني منزعج كثيرًا، تَسمَّعت ونحن صعود فلم يصلني نباح ولا ثغاء. ثم ما لي لا أسمع الرعاة يصدحون بأشعارهم الجميلة من "إزلان" و"تايْفَّارتْ" كما جرت العادة بذلك؟

تنهد موموح وتمنى لو كان كفيفًا مثل جدّه، ثم استمر قائلًا:

- آسف يا أبتِ أن أخبرك بأن غاباتك دمرها الجشع، وطالتها يد البشر بالمناشير المسننة، وحملوا جذوع أرزك إلى المشرحة بتازة كما تحمل الجثامين إلى المقبرة. لقد عمّت الفراغات غاباتنا وصندوق جماعتنا. أما بالنسبة للخيام، فهي قليلة تلك التي ما زالت تقاوم عند السفوح من أجل بضعة قطعان من الأغنام، أما أنغام "تامْجَا"، فقد انحبست بقايا صداها في أعماق الصخور.

يتساءل الجدّ في تعجُّب غاضب:
- (وَا يَا بَابَا دَازْوَار تْنِّيتٌّ!)، إن ما قلتَه أمر عُجاب! ولماذا رحل الجميع؟

أجاب مومووح بأن الموت غيّب الكثيرين، فيما رحل الباقون وذهبوا كما ذهبت ثلوج الزمن الماضي؟ لقد دخلت المنطقة في تيه لن تقدر على الخروج منه في الزمن المنظور. ثم إن أهل قرى الأعالي ما عادوا يقدسون العمل والمكان، لقد هاجروا حين انحبس وعيهم في الصخور المقدسة التي بالت عليها الحيوانات الخرافية التي استوطنت المكان.

عمّ السكوت، أطرق الشيخ برأسه، ثم قال:
- يظهر لي يا بني من موقفك أنك تريد اللبن، وثمن بيع اللبن. تريد تثبيت أهلك بفضائهم ليتكفلوا برعاية ذكريات طفولتك، لكنك في نفس الوقت تركب الحديد وتتخلى عنهم. فلماذا هاجرت؟ وكيف حضرتك نية التخلي عن مسقط رأسك قبل أن يحضرك الموت؟

يرد مومووح وهو ينظر جهة السفوح:
- أصغيت ذات مرة إلى بنات قلقي وهي تسائلني عن رحيلي إن كان حدثًا هامًا رفعني إلى وضع أفضل، وعن قرار هجرتي إن كان مفصليا، قطع بين ما كان وما يمكن أن يكون، وعن قريتي إن كانت عبئًا مقدسًا أحمله كما أحملك الآن؟ لم أكن متيقنًا من قدرتي على المساهمة في حلّ الصعوبات التي تُقلق أهلي إن بقيت خلف القطيع. ربّما خففت بخروجي من معاناة أهلي! ثم اعتقدت أنه من الأجدى أن أرحل لألتقي أُناسًا آخرين غير أهلي حتى أستطيع فهم ما

يدور حولي من وراء جبال تاحفورت... لأُنير لأهلي الطريق. وفي جميع الأحوال، لابد أن تعلم يا جدّي أنني خرجت من هذا الفضاء مكسور الخاطر، مدفوعًا بظروف أجهلها إلى مصير لم أختره.

يعبر الشيخ بقسمات وجهه عن امتعاضه، ويرد قائلًا:

- كلامك فضفاض لا معنى له... أنت استعجلت قطف الثمرة فقط.

ينهض مومُوح وقد أمسك بيد جدّه ليساعده على الوقوف، وهو يقول:

- لقد اشتعل الغضب في صدري حين رأيت أهلي يرزحون تحت وطأة الفقر المدقع، وتأكدت أن البطء والانتظار لن يحققا الأمل المرجو، فغيرت المكان.

يحمل موموح حِمله من جديد لمواصلة المسير بجدّه الذي رفع عقيرته يقول:

- غيرتَ المكان! بل قُل إنك هربت. يا بني، ما كنت لتتعجل، لن يغادر الله هذه المنطقة أبدًا، له واسع النظر ولعدالته متسع من الوقت.

طوّق الشيخ بيديه عنق موموح حذر السقوط وقال:

- لقد بلغني أن موقف فقهاء القرية كان واضحًا، قبلوا بالمدرسة، بل هناك من يقول إنهم هم من استصدروا قرار إحداثها.

زفرةً زفرةً يتقدم موموح، لكنه يتابع ما يقول جدّه، فيعلق على موقف الفقهاء قائلًا:

- هو صحيح، كان للفقهاء دور إيجابي، لكنهم لم يكونوا واعين، ومتعلمين كفاية لمرافقة المدرسة وجعلها في خدمة القرية

التي كانت ضحية عنصرها البشري الجاهل، ما جعلها تركن إلى تخلفها المقدس.

بعد جهد جهيد يصل مومو ح حاملًا جدّه إلى القمة، وضع الحِمل، تنفس الصعداء بعمق. نسي جدّه وجدّته ووقف بذهن صاف في سكون تام يتأمل الكون على مدّ البصر.

روعة هي القمة، إنها الشموخ والعظمة. أحس مومو ح من خلال طعم المشقة اللذيذ أنه حقق إنجازًا رائعًا، وانتصارًا باهرًا. ينظر إلى السفوح فيشعر باستعادته لفضائه الذي ضاع منه. تأكد أنه يستطيع بالجهد والتفكير أن يمتلك العالم بين يديه.

20

جاثيًا على ركبتيه وقد تملكته رهبة المكان، ومستشعرًا جلال الموقف، غرّز مومومح بعينيه في ركام الصخور المستلقيات على الأرض، فيكلمه جدّه طالبًا منه أن يحاول تحرير جدته المسجونة داخل الصخرة العظمى.

خاطب مومومح جدّته قائلًا:

- (أزُولْ فْلَّاوْنْ، مَامْشْ تْيِيتْ آ حنَّا؟) أهلًا، كيف حالك يا جدّتي؟

سعد مومومح بجدوى تحيته حين اهتزت الصخرة لتظهر جدّته تبتسم في حنية، ثم ترد التحية:

- (تْلِّيتْ دْ كُّول، لِّيغْ آمْنٌّ آشْ نَّانْ) أنت في القلب، أنا كما في الحكاية.

ثم زادت تقول:

- ما بك يا بُني جئتني متنكرًا في هذا اللباس الغريب؟ ماذا فعلت بجلبابك وسلهامك؟ وكيف تسمح لنفسك بالظهور أمامي بدون لحية، بهذا الوجه النسائي الذي غاب عنه شارب رجولتك؟

اِنتصبت "تامغارت" من دون جهد في وقفتها الأمازيغية الشامخة، واثقة وقفت تنظر إلى الأمام بعينين غائرتين تشعان ذكاء وجرأة، فبدت هامتها مرفوعة.

مربوعة القدّ، ظهر قوامها نحيفًا، بظهر مستقيم، وطلعة بهية. كان لباسها قطعة واحدة من الصوف الخالص (تَاحرَاوْتْ)، تغطي جسمها حد الركبة دون تبرج. حافية القدمين بساقين ما تزال عضلاتهما بارزة كأنهما ساقا رياضي متقاعد. مكشوفة الرأس اشتعل شعرها الناعم شيبًا، بخصلات حريرية تتلاعب بها نسائم الأعالي كأنها عرف فرس جموح في مهب الريح. سافرة، يميل لون بشرتها إلى الرماديِ الشاحب البرودة... فبدت تجاعيد وجهها كأخاديد بُويْبْلان ووهاد آيت وراين، وجه يحمل ملامح قوية تحكي قصص ألف رحلة ورحلة.

كلّم مومو ح جدته في استحياء شديد:

- أفهم يا جدتي أن يركب أحفادك حافلة حمّادي ويتجهوا نزولًا إلى الشمال، وأستوعب دواعي هجرة مواطني العالم من الجنوب هبوطًا إلى الجهة المعاكسة، لكنني لا أفهم أسباب اختيارك الاتجاه صعودًا إلى الجنوب.

تحركت الجدّة التي جلست على صخرة متوسطة الحجم، ثم ردت:

- يا بني، حين صعدت لم أكن أرغب في الصعود فحسب، بل غامرت رغبة في قطف النجوم. ثم إن من عوامل العزم، عزم التقدم والدوران، قوة الإرادة وطول الذراع.

ثم زادت قائلة:

- إن من تتحدث عنهم ليسوا مهاجرين... هم لاجئون فارون من الفقر، والظلم بحثًا عن العدالة، وطمعًا في ترقية اجتماعية تساهم في تحسين مأمول البقاء على قيد الحياة.

تفاجأ مومو ح برُقي خطاب جدته، اِستفسرها ملاحظًا:

- لكن... العالم يا جدتي يبحث عن السهل من خلال ركوب النزول، وأنت ترغبين في الصعب حين تصعدين.

اِبتسمت العجوز، فظهرت أسنانها القوية كأنها فتاة في العشرين، ثم ردت:

- يا بني، أن تنزل لابد أن تتنازل... جدتك (عازيّة) متمردة ترفض التنازل والخنوع، ثم إن الصعود يوفر السعادة والإحساس بالثقة.

يتردد مومو ح، لكنه يتجرأ بعد حين:

- مومو حك لا يفهمك حين تنتحرين.

محتجة ترد العجوز:

- إنها إشاعة سخيفة، أنا لم أنتحر، ألست تراني أمامك حية أرزق، أنا غامرت من أجل شياهي، فخلّدتني مغامرتي.

يواصل مومو ح الضغط على جدته:

- لكنك اخترت الوقت الخطأ لتنفيذ قرار غير محسوب العواقب.

حمل الصدى رد الجدّة وهي تقول:

- يا بني، قالوا، وأظن أن القولة لامرأة: "الحياة إما مغامرة جريئة أو لا شيء... تجنّبُ الخطر ليس أكثر أمانًا على المدى الطويل من التعرض للخطر".

ساد نوع من السكون حين لاحظت "تامغارتْ" وجود زوجها الذي تظاهر بتجاهلها، رغم الوعد الذي قطعه على نفسه بمصالحتها.

نظرت "تامغارت" إلى "وَرَايْنْ "، قالت بازدراء:

- من الذي أتى بهذا الأعمى إلى هنا؟ وماذا يفعل هذا العاجز الرعديد على قمّتي؟

رد الجدّ بقسوة أكبر:

- الحمد لله الذي جعلني ضريرًا حتى لا أراك.

صعّدت "تامغارتْ" وقد رفعت من عقيرتها قائلة:

- وما جزاء زوج اختار عدم مرافقة أهله إلّا أن يُشتَم، ويُعامَل بالتجاهل والاحتقار!؟

تدخل مومو ح لتلطيف الأجواء:

- من فضلكما حصِّنا نفسيكما من الانزلاق، اِسمعيني جيدًا يا جدّتي، أنت هنا على القمة أقربنا إلى الله، فقولي ما يرضيه سبحانه في علاه، أنا ما صعدت الجبل لأحضر خصامكما مجدّدًا، أنا جئت لأصل الرحم حتى أُرضِي خالقي. أما أنت يا جدّي، من فضلك أَلق بعقدة ذكوريتك جانبًا فما عادت لها سلطة. أدعوكما إلى سعة صدر كلٍّ منكما تجاه الآخر.

رنّ الهاتف، فأفزع الصوت الغريب العجوزين اللذين قفزا في مكانهما وقد أصيبا بذهول شديد.

أجاب موموح مهاتفه قائلًا: "من معي؟"

قال الجدُّ متسائلًا عن جدوى سؤال حفيده:

- لماذا تسأل يا بني عمن معك؟ ألا ترانا؟ أنا وجدّتك معك!

يحقق مومـوح النظر في الصخور التي أمامه ويطلب من مهاتفه أن يتكلم فهو في الاستماع.

قال المشاغب:

- لا تحاول ممارسة لعبتك القذرة مع جدّيْنا، إنهما من أطيب خلق الله، القبيلة كلها ورثت عنهما السذاجة والجدّية. اِحترمهما، ولا تحاول الكذب عليهما كما فعلتَ معي.

تخاطب "تامغارتْ" موموح:

- ما بك يا بني تضع مرآة العطّار على أذنك؟

يتبسم موموح ضاحكًا ويقول:

- لا شيء يا جدّتي، أنا أنظر فقط إلى نفسي وأحدثها... أما هذه بيدي فهي مرآتي أديرها في كل الاتجاهات لأسمع وأرى.

قالت "تامغارتْ" في تعجّب:

- تحدث نفسك!؟ لعلك مصاب بالجنون وأنت برفقة جدّك.

رفع الجدّ عقيرته في غضب، مد يده في اتجاه الجدّة ولوّح بسبابته المرتعشة كمن يتوعّد. تلعثم في الكلام وقد خانته عزة النفس فباح بسبب صعوده إلى القمة:

- أهكذا تهون عليك العشرة مرة أخرى يا "تامغارتْ"!؟ اِشتقت إليك وهرمت من أجل هذه اللحظة، فتحايلتُ على حفيدنا حين قبلت أن أكون دليله على الطريق مقابل أن يحملنى على ظهره، ويأتي بي إلى هنا حتى أراك.

اِستحضر موموح ما قاله عقله المشاغب عن سذاجة وجدّية العجوزين... فضحك من نفسه.

أتراها لَان قلبها بعد كل ما جرى حين حاولت تغيير الموضوع لتسأل مومو ح عما صارت إليه تاحفورت، وعن "رُومْيْ" و"الْقَايْدْ" هل ما زالا يسيطران على "الْبِيرُو". واستفسر عن أحوال الخيام بالسفوح، وعن الأراضي السلالية بسهل رحلتها الشتوية.

قالت الجدّة:

- قل لي يا ولدي، كيف كانت مخرجات صعودك إلى قمة "تايْلْمَامْتْ" لقطف النجوم؟ كم نجمة قطفت؟ ثم قل لي: ما قصة الحديد الذي ركبته عوض بغلة جدّك؟ يظهر أنك تحب المغامرة مثل جدّتك، قيل لي إنك هاجرت إلى جهة مجهولة. هل كان رحيلك مجديًا أم أنك سافرت سائحًا وعدت إلينا خاوي الوفاض؟

تلكّأ موموح في الكلام محاولًا الإجابة على أسئلة جدّته، فحكى لها بتأثر شديد ما آلت إليه أمور تاحفورت بعد أن غيّب الموت أهل الحل والعقد، وعن دواعي الانقراض الذي يهدد القرية. جلس موموح يقص على "تامغارت"، مما هو مدوّن بصحائف جدّ يوسف من أحداث وتبعات العهد الذي ولّى وتأثير مخلّفاته على المنطقة.

متأوهًا أكد موموح لجدّته بخصوص الأراضي السلالية التي كانت تأوي إليها خلال رحلتها الشتوية، أن بعض الشركاء، بسبب رحيل الجيل الموثق، سطا بعضهم على حقوق بعض، فصار أهل الثُّلُث مهددين بفقدان ثلثهم.

سكت موموح... فكر لبضع ثوان. تمنى لو يستطيع تفادي الجواب عن الشطر الآخَر من سؤال جدته. حسبته جدّته قد انتهى من إفادته، فقالت:

- وماذا عن الصعود إلى قمة "تايْلْمامْتْ" لقطف النجوم؟

بدا واضحًا أن مومو ح محرج بخصوص الموضوع. كيف له أن يبوح لجدّته بتأثير أسطورتها على قرارات عدة أجيال فيما يتعلق بمهنة الصعود؟ وهل يمتلك الجرأة ليفاتحها في اكتفائه بعدّ النجوم عوض محاولة الصعود إلى القمة لقطفها، اِكتفاء بأمر من القبيلة التي أساءت فهم جرأة "تامغارتْ" عندما قررت المغامرة بالصعود؟

كيف له أن يشرح لها مغامرته بركوبه حافلة حمّادي، ومغادرة تاحفورت هاربًا إلى جهة لا تعلم الجدّة بوجودها؟ لكنه، استنادًا إلى طبيعة شخصية الجدّة، اعتقد أنها ستتفهّم موقفه.

قال موموح وقد سيطر عليه التردد:

- لقد جاء من بعدك يا جدّتي أناس يعنعنون ولا يجتهدون، يخافون من الموت الأبيض الذي خطفك وصيّرك جمادًا إلى حين، فلا يجرؤون. قالوا إن الله مسخك بسبب مغامراتك وتحدّيك لقوّاه الطبيعية. أخافوني بك ومن تجربتك فكرهتُ المكان... رحلتُ يا جدّتي، واستعضت عن الصعود لقطف النجوم بالنوم فوق مجاري الصرف غير الصحي هناك حيث الزحام.

بكي موموح، كفكفت الجدّة دموعه، وحاولت تهدئته قائلة:

- يا بنيّ لا تخف، المغامرة والشجاعة يزيلان الخوف والتردد اللذين يسببان الفشل والاندحار. ثم إنه إن يكن مكتوبًا عليك أن تلقى خيرًا تلقه، وإنْ شرًّا فأنت كذلك ملاقيه، وإنه في كل حركة بركة، وإن هجرتك هي أجمل شيء يمكنه أن يصادفك في الحياة.

تدخل الجدّ منتهزًا الفرصة لكسر العزلة التي فرضها عليه تجاهل "تامغارت"، وقال:

- يقول أحد الحكماء: "كلما كان الإنسان أكثر اعتدالًا، كان أكثر سعادة". يا بني لا تغامر، واثبت بمكانك فإن المخاطر من دواعي المغامرة. الاعتدال يجعلك تتحكم في ذاتك، وتسيطر على نفسك. إياك أن تأخذ برأي جدّتك، إنها امرأة، وأنت تعلم أن دور النساء قد حددته الطبيعة في حدود الخيمة.

عقودًا حملتُ الخيمة وبها جدّتك على أكتافي، لكنها في ذروة ظلمة عيني تخلّت عني، ورحلت لتغامر.

طفح غضب الجدّة فصاحت في وجه "وَرايْنْ"، وقالت:

- الماضي حدث وانتهى، فما الذي حملك على العودة؟ اِعتقدت أنك ذهبت إلى الأبد. أما أنت يا بني، اِسمعني جيدًا، اِسترشد عقلك ولا تنصت إلى جدّك، فإنه ألف الخمول والكسل، والقصعة الروحاء، ومجالسة الفقهاء. لا أفهم دعوته لك إلى قمع نفسك والسيطرة عليها. ثم إنني امرأة استثنائية ومتمردة، لا أقبل بأن أكون مجرد شريك لا يدلي بدلوه، أنا مارست إنسانيتي، ولم أكن لأسمح لجدّك باضطهاد عقلي.

ردّ "وَرَايْنْ" بعنف ظاهر:

- لم تكن عودتي سهلة بعد أنانيتك المفرطة، كان للماضي ثمنٌ من الألم والمعاناة، أدّيته كاملًا غير منقوص. أنا عدت دون أن يدعوني أحد، عدت لأذكّر حفيدي بضرورة إجادة قراءة الصحائف التي يحملها. اِسمع يا بني، التعلم من قراءة الماضي أنفع وأجدى. جاهد ضد نفسك، ولا تجعل إلهَك هواك. تعلم من تجربتك السابقة حتى لا تعيد أخطاءك، حين حكّمت عقلك وشكّكت في كل شيء،

دفعت ثمن ذلك غاليًا... أنت لم تهاجر، لقد أركبوك حافلة حمّادي، وطردوك من جنتك بتاحفورت. ثم اسأل جدّتك هل سعدت باختيارها الرحيل والترحال.

قالت الجدّة تخاطب زوجها:

- كفانا من كلامك الفارغ الذي هو أقرب إلى اللهو منه إلى الجد. كيف تقول لحفيدنا إنهم طردوه من قريته وهو الذي اختار الرحيل إلى مكان آخر، ليلبي رغبة عقله التوّاق إلى العلم والمعرفة؟

لم يرد عليها الجدّ الذي فضل توجيه كلامه لمومو ح وقال:

- (أورْ إِتْكّْ ربِّي إِمْزْرِي نّْغْ دْ وَا...) أتمنى ألا تكون هذه آخر مرة نلتقي فيها. تذكّر يا بني ما قلته لك ونحن صعود... لا شيء يفنى. الأحجار التي تراها أمامك هي بالتأكيد تصلح للبناء، والبناء يعني أن المكان أخذ عليك موثقًا، تمامًا كما هي بقايا أشجار الأرز التي ترمي بها بحيرة "تامْدَا" على حواشيها، ليصنع منها أهلك الحدّادون الفحم الضروري لتشكيل الحديد لصناعة أدوات الحياة... وقد أخذتْ عليك مهنة الحدادة بالوراثة عهدًا مؤكدًا.

يحدث موموح نفسه وهو يعلق على ما قاله جدّه: "نعم، لا شيء يفنى منذ أن صار التصوير ممكنًا". اِلتقط موموح بهاتفه صورة لجدّه، اِنتبهت الجدّة فقالت تسأل حفيدها:

- ماذا تفعل بمرآتك يا ولدي؟

اِقترب موموح من جدته، مد هاتفه وهو يقول:

- أُنظري، كيف تجدين جدّي في هذه الصورة؟ اِنحبس كل شيء، وتكدّس في هذه اللقطة المبهرة، أليس كذلك؟

بُهتت تامغارت، اِستغلق عليها الكلام، ثم قالت متعجبة:

- إنه لا يتحرك، كأنه ميت رغم وقوفه! كيف له أن يظهر على مرآتك وهو لا يقف أمامها؟

كيف لمومواح أن يشرح للصخرة تقنية التصوير؟ لكنه طفق يحاول وقال إن لمرآته عينًا، كلما رأت شيئًا إلا وغمزت، والتقطت له صورة.

قالت الجدة مستغربة:

- لكن الغمز بالعين عيب يا بني، ثم قل لي، ماذا تقصد بالصورة؟

كيف للصخرة أن تفهم ماهية الصورة؟ لكن الحفيد يحاول مرة أخرى، ويقول إن الصورة هي ما نراه في المرآة.

يضحك الجدُّ ملء وجهه ويقول متهكمًا:

- فهمت القصد على الرغم من أنني أعمى... لكنني يا بني متوجس من التقاطك صورتي. أخاف أن تكون فعلت ذلك لتطردني من ذهنك... فتنساني؟

قالت الجدّة وهي تبحث عن تعادل لا يبدو في المتناول:

- أنا لست متوجسة يا ولدي، خذ لي صورة بل صورًا كثيرة، جمّد الزمن من حولي حتى تستطيع أن تحرك عجلته كلما تذكرتني ورغبت في رؤيتي. وثّق يا بني وجودي معك خلال لقائنا المبارك هذا، وعلى قمّة الشموخ هذه.

عم المكانَ صمتٌ رهيب لبضع ثوان، ثم نظرت الجدة في اتجاه أمغار، تقدمت نحوه ببضع خطوات، أحس بحركتها. تحرك

بدوره، كاد أن يقع لولا أن أمسكت به الجدة من ضفيرة قرنه (تاكُْطَّاشْتْ)، فألقى بنفسه بين أحضانها. لقفته، فسكت الكلام. مد يده يتحسس وجهها، وضع كفه على خدها بحنية، فذاب جلمودها.

هل تكفي وشوشتها بأذنه لتنبيهه إلى أن الحفيد يتفرج؟

قالت وهي ترفع ضفيرة قرنه الطويل، وتداري الموقف:

- لو لم أتلقّفك لتكسرت رأسك على هذه الأحجار. خاطبتك أيها الشائب العصي قبل قليل، بخصوص نصائحك لحفيدنا، فلم ترد، أما زلت غاضبًا مني؟

هز رأسه يمينًا وشمالًا مؤكدًا أن لا.

هل للمتيم الذي هرم في انتظار هذه اللحظة، في ظروف صعبة، أن يستمسك بغضبه؟

قالت:

- لُفّ قرنك (تاكُْطَّاشْتْ) على رأسك حتى لا تصاب بضربة الشمس.

يحدث مومو نفسه ويسألها، كيف لهذه المتمردة أن يلين قلبها وهي التي تركت كل شيء خلفها من أجل برودة صيّرتها جمادًا؟

أجلست الجدة زوجها أرضًا، ساعدته على لف رأسه بضفيرته، تم جعلت تمسح على جبينه بحنية لإزالة ما علق بها من العرق، ومن غبار الطريق.

قالت وهي تعاتبه:

- لم أر في حياتي رجلًا صعب المراس، عنيدًا أكثر منك. أنت صلب الرأي لا تلين، مثلك مثل صخور هذا الجبل.

أجاب أمغار بهدوء المتنازل الذي يرغب في الصلح:

- الجبل ذكر، أم أنك نسيت.

ردت وكلها رغبة في التوافق:

- يبدو لي أنك محق، لكنك نسيت أن الجرأة أنثى.

مبتسمًا قال يلاطفها:

- أرى أنك على صواب... ثم مد يديه يبحث عنها، وهو يعانق الفراغ.

نظرت "تامغارت" في عيني مومو ح وسألته:

- أتريد مني شيئًا قبل أن أودعك يا ولدي؟

اِغرورقت عينا موموح، وقال:

- تمنيت فقط لو حصلت منك على لفافة من صوف نعاجك، أَو فليلة من شعْر عنزاتك لأَضعها في تميمة أُعلّقها بعنقي، عساها تُبعِد عنّي الخوف من أَحجار فضائك!

تردّ "تامغارت" بصوت يقطر بالحزم:

- يا لازدواجيتك! أعمِل عقلك يا موموح، أم أنك نسيت موقفك القديم من تمائم جدّك الفقيه؟ لن تنفعك تميمتي مهما قدّستها. يا بني، إن الشجاعة هي أن تثبت بموقعك أثناء المعركة وأنت تنظر إلى الأمام استعدادًا للمواجهة، أما التميمة فهي تمام الهراء. ثم إني علمت من جدك الفقيه الذي التقيت به بالحياة الأخرى، أنك لست من هواة التدين الخرافي.

هز موموح رأسه مبديًا موافقته على ما قالته جدّته، ثم التمس منها أن توصيه بوصية تنفعه.

سمع موموح صوت جدته تبتعد ممسكة بيد زوجها الكفيف، لم يعد يراها، اِنصرفت قائلة:

- يا بني، تذكّر جدّتك دائمًا، إنك إن فعلت لن تنسى المكان.

ثم إن الأشياء القيّمة توجد على القمّة، لكن قيمتها يغيرها الزمان. إن توخِّي قطف النجوم يستلزم إعمال العقل لتنويع أساليب الصعود. تحرّك، حتى لا تفاجئك المتغيرات، واثبت على المبدأ بالقمّة حتى لا تجرفك سيول العولمة، فتخضع لدكتاتورية الشبكة.

21

أنهى مومورح مناسك وقفته حين انتبه إلى ما حوله، بعد أن سرح بأفكاره بعيدًا، ليجد نفسه أمام صخور عادية متفاوتة الأحجام. غاب عنه كل إحساس بالتعب والجوع، رغم مشقة الصعود، أحس وكأنه تحرر من ثقل كان يحمله منذ ركوبه حافلة حمّادي.

هل استفاد مومورح من لقاء جدّه وجدّته؟ وهل استطاع أن يوَلِّد من قدح الحجرين إضاءات قد تنفعه في مسعاه إلى الانتقال من نسق إلى نسق؟

اِستوعب مومورح من سلوك جدّته أهمية ثباتها على المبدأ، على الرغم من نزوعها إلى التمرد والتغيير. صار أكثر وعيًا بضرورة إعادة تشكيل نموذج جديد للحياة بقرى الأعالي، وإعادة قراءة وتفسير صفائح جدّ يوسف النادل، وتحديث الرؤية للانطلاق من جديد.

رن الهاتف، نظر مومورح إلى شاشة هاتفه، ثم أجاب...

يردّ العقل المشاغب:

- لا تشغل بالك بالنظر في مرآتك فإنك لن تراني، أنا لا أُرى إلا في مرايا عطّار "قرية" أَكَلْزِيمْ، مرايا ذوات الإطارات البلاستيكية الوردية أو الصفراء.

يتساءل مومح متعجبًا:

- الإطارات البلاستيكية الوردية أو الصفراء!؟ ماذا تقصد؟ إن كنت تعني مرآة منزلنا القديم، فأنا متأكد من أن إطارها لم يكن مغشوشًا، كان من خشب الأرز الخالص. كانت مرآة صافية تعكس اهتمام أهل القرية بكل القضايا التي تهم الساكنة. أما اللونان الأصفر والوردي لإطارات مرايا العطّار، فقد كانا من صباغة كاذبة، أنتجتها دكاكين آخر الزمان، ولا علاقة لها باللون الأحمر الذي تركه الأشاوس الذين قضوا وقوفًا على قمم جبال الوطن.

رد الهاتف:

- رغم أني راعي غنم، فأنا أفهم أن صفاء مرآة منزلنا كان يسهر عليه أهل الحل والعقد بالقرية، وفقًا لديموقراطية قبيلتنا التي لا تشوبها شائبة. كما أنني أعلم أن سدنة "الْبِيرُو" كانوا وما زالوا في سبات عميق.

يقول مومح مزهوًا باستيعابه للعبة الألوان:

- ذرهم يخوضوا، ويلعبوا، ويتناوبوا علي... هم ظنوا أني حصاة حملتني إليهم حافلة حمّادي ليتقاذفوني في إطار لعبتهم، ثم يرموا بي في البحر وينتهي الأمر. غاب عنهم أنني فسيلة اللنج (ساسْنُو) التي فُصلت عن الشجرة الأم لتُغرس في مكان آخر ليستفيد منها الناس.

اِنقطع الخط حين انتبه موموح على ثغاء حمله الصدى من المنحدر الجنوبي لبُويْبْلان (سُوغِيرِينْ إِي پِيشّْ) الذي يطل على العملاق الآخر بوناصر.

أعياه الوقوف فجلس موموح على الأرض، وأخذ يعدُّ الصخور المنتشرة أمامه:

- هذه جدّتي وهذا كلبها، هذا الراعي، وهذه تمثل الأعمدة الثلاثية لشكوة مخض اللبن (سْنْدُو بْحُّو)، فكم بقي من الأحجار للغنم؟ لا شيء تقريبًا، فكيف تغامر جدّتي من أجل هذا اللّاشيء؟

كسر الصدى القادم من الأحجار الصمتَ ليُذكّر موموح بعشق أهله للعذاب من خلال تطويعهم الأراضي الصخرية من أجل حفنة من الشعير، وبحبهم للترحال، وحمل أثقال الخيام من أجل ضمان الرعي لبضعة قطعان من الغنم.

غفا موموح لدقائق معدودات. فتح عينيه على ظله وقد بدأ يتمدد، نظر إلى السماء فرأى الشمس تستعد للملمة أنوارها وجرها في اتجاه الغرب.

نهض فتى تاحفورت، ألقى نظرة الوداع على القمّة، فاضت عيناه، فأحس بحاجته إلى الغناء لتمجيد المكان... طفق يردد بأعلى صوته أنشودة "الأماكن" (إموشانْ):

سّمُوقّْلْغْ غْر أُوجْنّا
دِيهَانْ أجْنّا، خْ دَادّا بُويْبْلَانْ،
مْغَانَنْْتْ دِي وَالّي تْوْلَافِينْ إيمُوشَانْ.

تْسِّيوْلْدْ آكِيدِي حْنَّا
تْنَّايِي: مَايْمِي تْتُّوتْ إِنْوْلَانْ؟
أُور نّيغْ تُوفِيتْ آكْدْ تْبْرِيدِينْ إغْرمَانْ!

سّحلِيلّيْغْ يْقْطَا مْنَّا،
تْنَّايِي: وَاخَّا يَادْ قْطَانْ يْوْدَانْ،
لَّانْ إِمُوشَانْ، آدْ قِّيمْنْ لْبْدَا دِ وْمْشَانْ.

إمُوشَانْ أو الأماكن، أنشودة لمومو تمجد المكان وتسائل الذين غادروا ولم يعودوا عن دواعي النسيان.

غير بعيد من قمة "موسى وُصالح"، تردد ثغاء الماعز، نظر موموح في اتجاه السفوح الجنوبية، فابتسم من شدة ما يحس به من الفخر وقد استحضر ما قرأه في صحائف جدّ يوسف عن بطولات أهله بتامْجِيلْتْ.

يستعد موموح للنزول حين فاجأه صوت رجل يحييه ويسأله:

- (أزول فْلّاوْنْ، مامش تييت آ أُولَاهْلْ؟) أهلًا بك، كيف حالك يا ابن أهلي؟

رد موموح التحية، عبّرعن تفاجئه بظهور الرجل قائلًا:

- (وَا يَا بَابَا تْسّْفْجْعتْ إِيِي!) أخفتني.

تقدّم الرجل الذي خرج من العدم، متوسط القامة، صلُعت رأسه رغم أنه بدا في مقتبل العمر، يلبس لباس رعاة الغنم... قال إن اسمه موسى، ثم زاد إنه من هناك، مشيرًا إلى نهاية المنحدر الجنوبي:

- أنا من تامْجِيلْتْ. كيف فاجأك ظهوري، ألم تسمع ثغاء عنزاتي؟ أنا راعي الغنم.

ثم أردف يسأل:
- ما وقوفك على القمة؟ سمعتك تغني أنشودة "إِمُوشانْ" لمومِوح ثّْغْ. أصعدت من أجل تمجيد المكان ثم تنزل؟

يرد مومِوح بأنه جاء للقاء جدّته "تامغارتْ" ليتزوّد بنصائحها، ويتعلم من تجربتها في الترحال وتغيير الأماكن، ثم يسأل بدوره موسى عن دواعي تركه لقطيعه والصعود إلى القمة.

أجاب موسى بأن القمة هي القمة، عليها فقط يمكنك أن تجد الأشياء الجميلة والأشخاص ذوي القيمة. علق مومِوح قائلًا:
- أنت تحرجني، من قال لك إني ذو قيمة؟

رد الراعي بأنه لا يعرف مخاطبه، وأنه يقصد بالأشخاص ذوي القيمة "تامغارت" و"ابن موسى". استوضح مومِوح الراعي عمّن يقصد بِ "ابن موسى"، أهو ابن موسى ؤصالح؟

تبسّم الراعي ضاحكًا وقال:
- موسى ؤصالح هو اسم القمّة، فكيف يكون لها ولد؟ أنا أقصد "موحنْد ؤُموسى"، أسد تامْجِيلْتْ.

فرك مومِوح خذه الأيسر بسبابته كمن يفكر، رفع عقيرته مؤكدًا أنه سمع من قبل بالاسم، قرأ عن بعض أخباره بصحائف جدّ أحد أصدقائه، ويعتقد أن اسمه الكامل هو "موحند ؤُموسى حريشْ"، كان الرجل متمردًا، يسافر كثيرًا. ثم استفسر فتى تاحفورت موسى الراعي:
- لكن، قل لي، ما طبيعة العلاقة التي تربط بين أسطورة "تامغارت" وقصة "موحنْد ؤُموسى حريش"؟

جلس الإثنان على صخرتين متقابلتين، وطفق موسى يحكي لموموح عن بطله "موحند وُمُوسى حريش"، وكيف كان متمردًا وعاشقًا للترحال على منوال "تامغارت"، وطموحًا إلى تغيير النسق الذي كان سائدًا بالمنطقة.

في مساء يوم معتدل الجو بعد إذ نزل الظلام على تامجيلت، اِنسلّ من القرية رجلان يركبان بغلتين. رجل لف رأسه ووجهه دون العينين برزة بُنّية اللون، يلبس جلبابًا صوفيًا بخطوط عمودية بالأبيض والأسود عليه سلهام بُني فاتح من وبر فيكَيك. فيما يضع الأخر على رأسه طاقية صوفية تشبه طاقيات "الوطن"، ويلبس "حايِكًا" رجاليًا من الصوف يضع فوقه سلهامًا مثل صديقه.

تمشي الراكبتان في خبب، دون إفراط في الهرولة، على صدى حوار يدور بين الرجلين لا يخلو من نرفزة بسبب أمر أغضبهما.

قال أحدهما للآخر وهو يحث بغلته على المسير:

- ماذا قررت يا "عزيزي" موحنْد بخصوص ممثل "دار الكرامة" الذي جاء يطالب قبيلتنا بِ "الوَعْدَة".

رفع "موحنْد وُموسى" عقيرته وقال في غضب:

- أنا ما وعدت أحدًا بشيء، وعد أجدادي انتهى وانقضى، وإن لم ينتهوا من إحراج القبيلة لآتينّهم برجال لا قبل لهم بها.

تابع مرافق موحنْد مستوضحًا عن الأمر الذي جاء من أجله ممثل "الأشراف" إلى تامْجيلْتْ. أجابه "مولاي موحنْدْ" بأن الممثل جاء يحمل إلينا اقتراحًا نطلب بموجبه الأمان من أبناء الروميّة. وزاد قائلًا بأنه رفض الاقتراح، ولا يفهم هؤلاء الذين يدّعون أنهم

"أشراف" لكنهم يجمعون أموال الناس بالباطل ويوزعونها فيما بينهم، ثم يوالون أبناء الرومية، ويهينون القبائل بتوزيع صكوك الأمان.

يعلق موسى الراعي قائلًا:

- هكذا تحولت "الوعدة" إلى وعيد ضد الخرافة والاعتداء على أموال الناس، وصار طلب الأمان رفضًا للمستعمر وأزلامه. عنصران زلزلا السائد بالمنطقة وزرعا بذور نسق جديد للمقاومة يحمل اسم "العازْيين".

واصل الرجلان السير على ضوء القمر، وتابعا حوارهما حول ردة فعل "دار الكرامة" ومريديها وتحالفهم مع االضابط الفرنسي بالمنطقة. اتفق الحلف على معاقبة قبيلة "مولاي موحند"، بمنعها من الترحال إلى "الجزيرة" حيث المراعي على جنبات ملوية.

بلغ السيل الزبى... كذلك قرر "موحنْد وُموسى" السفر مع رفيقه على بغلتيهما إلى شرق البلاد لاستقدام السلاح.

رجع الرجلان من سفرهما يحملان الأسلحة، تم توزيعها على أفراد القبيلة. علم أبناء الرومية بالأمر، فشنوا هجومًا بالطائرات على تامجيلتْ. لجأت العائلات إلى الغابة المجاورة للقرية حذر القصف. هاجر مولاي موحند إلى منطقة نائية وتوارى عن الأنظار لفترة.

يعلق موسى على الأحداث وهو ينظر إلى موموح قائلًا:

- إنها الهجرة أوتغيير المكان، أو الهروب إن شئت، رغم أن "موحند ؤموسى" لم يختر الخروج، أراها عنصرًا محدِّدًا في عملية تغيير السائد من الأنساق.

قال موموح الذي أصاخ إلى موسى بإمعان شديد:

- لو سألتني عن الأمر، لأكدت لك صحة ما ذهبتَ إليه، تجربتي الشخصية تشهد على ذلك.

تابع موسى الراعي، الذي ظهر عليه احترامه الشديد لبطله "موحند وُموسى"، مشيرًا إلى أن الأمر لم ينته بخروج "مولاي موحنْد" من تامْجِيلْتْ بعد أن استودع أهله الغابة.

اِجتمع "إِمْغارنْ" القبائل ب "مْسْكْدال"، كانت الخيمة التي التأم فيها كبار القوم مترامية الأطراف. سيطر اللون الأبيض الصوفي على المكان. بدا الاجتماع عاصفًا منذ البداية:

- بعض "الأشراف"، وجدنا أجدادنا يحترمون نبلهم وأخلاقهم، لكن أحفادهم زاغوا عن السلوك القويم. إننا نستنكر تواطؤ بعض الجهات المحلية مع المستعمر الغاشم. هكذا قال أمغار قبيلة آيت حدُّو.

غاضبًا يتدخل أمغار آيت بُويْلُّول، وقال مهدّدًا:

- لقد أبدينا لهم ما يكفي من التوقير، لكنهم ردُّوا على شهامتنا بالخيانة والتحقير، أما وقد فاضت الكأس... فنحن لها.

كانت مخرجات لقاء "إمغارنْ" قوية، حيث قرروا توفير الأموال والسلاح استعدادًا لمقاومة أبناء الرومية.

كلف تحالف "إمغارن" مولاي موحنْد بالتسلل إلى شرق البلاد لاستقدام السلاح لفائدة رجال المقاومة وخزنه بمنطقة "تِيسْرْوِين".

بعد تنفيذ "موحند ؤموسى" للمهمة بنجاح، فاجأه "الرقّاص" على طريق العودة يحمل إليه خبرًا سارًّا:

-أهلًا بك "مولاي موحنْد"، أحمل إليك خبرًا سيسعدك لا محالة، لكن، قبل أن أزفّه إليك، عليك بدفع حلاوة البشارة.

قال "موحند ؤ موسى" وقد خمّن طبيعة الخبر وفقًا لانتظاراته، حيث ترك زوجته حاملًا، وكانت أمنيته كأب لأربعة ذكور أن يُرزق بنتًا:

- إن كانت بنتًا فإنك تستحق أكثر من الحلاوة، سأمنحك هدية.

ضحك "الرقاص" ملء وجهه، ثم قال:

- هو كذلك، مبروك عليك، لقد رزقك الله بنتًا، أتمنى أن تتربى في عزك وعز أهلك، وأن ينبتها الله نباتًا حسنًا.

طلب "مولاي موحند" من "الرقاص" أن يسدي له خدمة في غاية السرية. أن يسافر إلى أخواله بآيت بوغرارة ليبلغهم الخبر السعيد. ثم أردف "ابن موسى":

- أنت تعلم كم هي عظيمة سعادتي بأن رزقني الله بنتًا، أود أن أقيم بالمناسبة حفلًا لم تشهد تامجيلت مثله. من فضلك أخبر أخوالي بأنني أدعوهم لحضور حفل العقيقة، كما أنني ألتمس منهم أن يصطحبوا معهم فقيهًا أحتاجه ليسمي على الذبيحة يوم سُبوع ابنتي.

حدّق مومو‌ح إلى السماء، ظنّه موسى غافلًا عن الإنصات إليه، فقال ينبهه:

- أأنت غافل عني ياسيدي؟

رد مومو‌ح موضحًا:

- أبدًا يا صديقي، كنت فقط أقول لنفسي، إن السيد "موحند ؤموسى" يتوفر على كل الشروط التي تؤهله للاشتغال على تغيير الأنساق التي انتهت صلاحيتها. جرت العادة أن يفرح أهلنا بازدياد الذكور، وأن يعلنوا عن فرحتهم بإطلاق العيارات النارية والزغاريد.

لقد فاجأني بطلك بموقفه العظيم هذا. إنه إعلان عن المساواة بين الذكور والإناث. ثم إن الرجل كانت له أفكار متميزة، وقابلية للهجرة وتغيير المكان كلما فرضت عليه الظروف ذلك.

رد موسى بحزن مشوب بالأسف:

- لكن رياح الخيانة تجري بما لا تشتهيه طموحات العظماء.

كان الفقيه الذي رشحه آيت بوغرارة لمرافقتهم إلى العقيقة ينتمي إلى "الأشراف"... قضي الأمر إذًا.

اِنسلّ الفقيه المخبر بعد العشاء إلى منزل "القايْد"، اِقترب من الباب الخارجي حين استوقفه صوت الحارس:

- من هناك، قف حيث أنت.

رد الفقيه بصوت خافت:

- أنا فقيه "الأشراف"، أريد سعادة القائد في أمر هام.

تم إطلاع "سْكِيزُو" المنطقة على الأمر الذي كان من المفروض أن يبقى سرًّا: "موحنْد وُموسى حريش" سيحضر مناسبة خاصة بتامجيلت. يخبر القائد الضابطَ الفرنسي بِ "برشين"، الذي بعث بدوره بالبرقية التالية إلى فوج الطائرات: "الذئب بغابة تسيلي". بالغابة إياها أدّى طيران العدو مهمته بنجاح... استشهد البطل.

سكت موسى وقد اغرورقت عيناه، ما عاد موموح ينظر إلى الراعي، غرّز بعينيه في نهاية المنحدر حذر افتضاح دموعه.

يبكي الإثنان عند القمة. قال موموح يخاطب صديقه الجديد:

- ما الذي يروج في خاطرك يا موسى؟

- لم تأت بعد اللحظة التي في خاطري. أجاب راعي الغنم.

مات "موحنْد ؤموسى حريش"، وهو يسند ظهره إلى جذع أرزة، إلى جانب بغلته وكلبته. واستلذّ "الأشراف" والأزلام من طالبي الأمان فِدَرَ اللحم تحت الأرزة الأخرى... "أرزة العفو".

لكل هجرته، فمن أوى إلى جذع أرزة ليستريح بعد أن عاد إليها إثر ركوبه مخاطر التضحية، فهجرته إلى البحث عن تغيير النسق إلى الأفضل، ومن كانت هجرته إلى الأرزة لطلب الأمان والعفو، "فهجرته إلى ما هاجر إليه".

يخاطب مومُوح الفضاء الجنوبي الفسيح:

- عمْت مساءً روح العمّ "موحند ؤموسى حريش"، مقاوم آيت عثمان الأفذاذ، وآيت بورايس الأشاوس. أيها المتمرد العملاق، يا جمرة الغضى التي لا تنطفئ، بقراءة سِفر قصتك ما عاد مومُوح يخاف، وبك ومن أجلك استوعب دواعي ركوبه حافلة حمّادي.

نظر مومُوح إلى موسى وقال مستغربًا:

- لم تسألني عن اسمي ومن أكون. أنا مومُوح نّْغْ.

بتلقائية يرد موسى:

- أطربني إذًا بأمازيغيتك الفصحى.

ودّع مومُوح موسى الراعي على نغمات أنشودته "بدون اسم"، (وَار أسَّاغْ):

آه... آ وَار أسّاغْ،

لِّيغْ زْرِيغ...

تاوُّورتْ... تْقّْنْ أُورَامْ تّْكّْ أَبْرِيدْ.

وَاخَّا أُور أُوفِيغْ...
سُولْغْ قّْنْغْ غْر أُوجِيجْ نّْمْ أَتامُورتْ.

وَاخَّا لِّيغْ نْيِيغْ...
تْيِيتْ إِيِي تاوْرِيِيتّْ
تْنْدْهْتْ آمْنّْ تّْبِّيتْ.
سُولْغْ قّْنْغْ...
دِي يْسْدِّيِيْنْ نْ تايْرِي نّْمْ أَتاحفُورتْ.
سُولْغْ سّولُوغْغْ أُولْ إِينُو
سْ تِيسْنْتْ أُوفُوسْ...
نّْ يْتَّارِينْ تِينْفاسْ
نْ مومُوح أَمْعنَانْ
دِي وَالَّاغْ إِسْكْلَا يّْغْنانْ...
سْ فَالِيسْ نْ تْگْلْزِيمْتْ وّْسْرَامْ.

سُولْغْ سّوسُومْغْ أولْ إينُو
سْ تْوْلَافِينْ نْ وُودْمَاوْنْ
نّْ رشْمْغْ سُومْرمِيزْ إِكّْلْزَامْ
نّْ سَاسْنْ غْمْسْغْ زْدّْوْ تْمُورتْ.

أَكُّوغْنْ أُولْ نْ دِي تْلّيتْ.

تمجّد الأنشودة المكان والأرواح التي أثّثته، ويخاطب मوموح من خلالها "الأرض" معلنًا عن ارتباطه الدائم بها رغم الظروف التي جعلت وحش الغابة يقتل بطلًا لمنعه من منح اسم لمولودته.

ترك موموح القمة منذ ساعة أو يزيد، وصل إلى "ألْمُو وُّورار" حيث ترك أغراضه عند صخرة الاستراحة. اِستراح قليلًا ثم وضع حقيبته على ظهره وانطلق.

رغم أن عملية النزول كانت سهلة نسبيًا، إلا أن موموح بدا وكأنه يسابق غروب الشمس ليصل خيمة "سيدي امْحَنْد" قبل حلول ظلام الليل.

بدأت الشمس تبدي صفرتها وبعض الذبول، واقترب الظل من الوصول إلى أقصى طوله.

لم تظهر خيمة "سيدي امْحَنْد" بعد، لكن الهضبة التي أقيم عليها بيت الشعر لاحت على بعد ميل أو يزيد.

وصل فتى تاحفورت إلى محيط الخيمة حين دفنت الشمس نفسها في حمرتها الحمئة. تعالى نباح الكلاب معلنًا عن تجاوز غريب للحد الأحمر الذي يحمي حظيرة الأغنام (أسْنْسُو). يظهر "سِيدِي امْحَنْد" خارجًا من الخيمة، يتبعه أطفاله، كانوا في انتظار عودة موموح.

تبادل موموح التحية مع الأب وأطفاله، ثم جلس الجميع بالزقاق أمام الخيمة على أجزاء دائرية من قطع جذع أرزة (إكُّويَار).

اِستفسر "سيدي امْحنْد" موموح حول ظروف الصعود إلى القمة.

أجاب مومود بأن الجدّين يقرآنه السلام، وأنهما طلبا منه أن يبلغه وصيتهما له بالاعتناء بالقطيع.

تبسّم "سيدي امْحنْد" ضاحكًا وقال:

- من تقصد بالجدين؟ جدي وجدتي ماتا منذ زمن بعيد، ثم إن قمة بُويْبْلان جرداء لا يسكنها إنس ولا جان.

اِرتفع ثغاء الأغنام حين وصلت إلى جنبات الخيمة، فأسرعت الأمهات ذوات الضروع المثقلات متجهة إلى حيث الجناح الخاص بالجديان والحملان. نهض "سِيدِي امْحَنْد" وأطفاله ليقوم كل واحد منهم بواجبه كل حسب اختصاصه، خرجت "للّا ميمونة" تحمل ماعونًا خشبيّا (تاقْبُوبْثْ) لحلب العنزات والنعاج.

يتكون القطيع من خليط من رؤوس الماعز والضأن، بدا عددها كبيرًا بالكاد استوعبته الحظيرة (أَسْنْسُو) المترامية الأطراف.

وصل راعي الغنم متأخرًا يرافقه كلبه. ألقى التحية على الجميع عن بعد والتحق ب "للّا ميمونة" بِ "أسْنْسُو" لإفادتها بتقريره اليومي حول حالة القطيع.

لاحظ مومود كأن الطفل الراعي يسأل عنه "للّا ميمونة"، كان يرمقه باهتمام.

اِلتحق الراعي بالجلسة أمام الخيمة بعد أن عاد إليها الأب وأطفاله بعد الإشراف على استقرار القطيع، وبعد أن تأكد من تناول كلبه لوجبة النخالة المبللة بالماء الدافئ بماعونه الخشبي (ثْسَارْسْثْ).

كان الراعي قصير القامة، غابت عنه علامات الطفولة رغم صغر سنه التي لا تتجاوز الثانية عشرة تقريبًا. يغطي رأسه بقب

جلبابه المخطط بالأبيض والأسود، ينتعل حذاء بنعل مطاطي من بقايا عجلة سيارة مربوط بخيوط صوفية متينة (أركاسْنْ)، ويحمل عصا وحقيبة من قماش صوفي (أعْدِيلْ).

قدّم "سِيدي امْحَنْد" الطفل الراعي لمومُوح قائلًا:

- (هَانَّا موموح تّْغْ، نْغْ مُوحْنْدْ إِدُورَار، آمْنّْ خافْشْ إيهانْ) هذا هو موموح الراعي، أو موحند إِدُورار، كما يحلو لك. إنه شاب طيب، أُعزّه مثل أبنائي. رغم صغر سنه، فإنه راع متمرس كلّفته بقطعان أغنامي وكلّي ثقة في كفاءته.

مدّ الراعي يده الخشنة لتحية موموح، بدا وجهه ملفوحًا بالشمس، وظهر الطابع الأحمر للأعالي على خديه اللذين قرّستهما نسائم المساء، ثم قال: "أزُولْ أَ عْزِيزِي".

سلم موموح فأحس وكأنه أصيب بصعقة كهربائية، كان الراعي من بين القلائل الذين ألقوا التحية على موموح بلغة أمه منذ بداية زيارته للمنطقة، وردّ مبتسمًا:

- (تِيمْنْسِيوِنْ) سعدت مساءً.

حل الشفق حين ظهرت حمرته جهة الغرب، نهض الجميع للوضوء استعدادًا لصلاة المغرب. عادوا إلى جلستهم بعد الصلاة. جلس الراعي على قطعة من جذع قديم قبالة موموح الذي لاحظ أن الطفل يسترق إليه النظر.

أدرك الغسق الجالسين، فبدت السماء وقد زينت بالنجوم المتناثرة كمصابيح علقت فوق الخيمة... اِنشغل موموح بالإجابة على أسئلة "سِيدِي امْحَنْد" بخصوص زيارته لقمة بُويْبْلان.

بدا الراعي مهتمّا بتفاصيل حديث مومو ح، فأبدى رغبته في المشاركة في المناقشة الدائرة حول قمة بويبلان. يتحدث الراعي، يرنّ هاتف موموح، حاول أن يجيب، لكنه استغرب حين تأكد أنه يسمع خلف شاشة هاتفه نفس كلام موموح الراعي الذي يتحدث أمامه قائلًا:

- مسرعًا جئت تزور وقورًا وقد خلع رزته من شدة الحر... فهل تعلم أن ما فعلت به حين زرته ورأسه عارية صلعاء هي فعلة لا تليق؟! بويبلان يا سيدي، لا وجود له خارج لون البياض... البياض وحده يعكس أصداء معاناة المنطقة، فما قيمة زيارة اخترت لها زمنًا لا يحمل توقيع تامغارت حين تجمّدتْ بعد أن ضمها البياض؟ أنت لم تر بُويْبْلان في حلة تليق بمقامه الرفيع، وبسطوته الرهيبة. لقد ذاب كل شيء وبقيت "إبلان" شاهدة على نومة المسؤولين تحت ظل "أرزة العفو"، التي جعلوا منها زيزفونًا يزهر ولا يثمر.

تفاجأ موموح بازدواجية الكلام، وبسمو حديث الراعي الذي أبان عن نباهة متقدمة.

يدقق موموح النظر في الطفل الراعي، ويسائل نفسه، كيف ل "سيدي امْحَنْد" الذي يدّعي انتماءه إلى "الأشراف" أن يشغّل طفلًا لم يبلغ السن القانونية للعمل بعد، وتكليفه بعمل صعب في ظروف شاقة؟

يفكر موموح في الأمر، فيرى أنه بالنظر إلى أهمية وتعداد رؤوس أغنامه، يمكن اعتبار "سيدي امْحنْد" "بورجوازيًا" قرويًا يتوفر على إمكانيات تخوله تشغيل عدة رعاة رجال. لكنه، يكتفي بالاعتماد على طفل لرعاية قطيع كبير. ألا يعلم أن ذلك يعتبر استغلالًا يمنعه القانون؟ لأن استغلال الأطفال في أي شكل من أشكال

العمل يؤثر سلبًا على طفولتهم، ويمنعهم من الذهاب إلى المدرسة، ويضر بهم عقليًا، وجسديًا، واجتماعيًا.

يحاول مومَوح، دون إثارة حفيظة "سيدي امْحنْد"، أن يطلع على بعض عناصر عقد العمل الذي يربطه بالطفل الراعي. قال مخاطبًا مومَوح الطفل من خلال سؤال فخ:

- من المؤكد أن "الشريف" يعتني بك جيدًا، أليس كذلك؟

رد الصغير، معبرًا عن رضاه بوضعه، وقال:

- أشكرك، لأنك أتحت لي الفرصة لأعبر له عن امتناني على ثقته بي وقبوله تعييني راعيًا لأغنامه. ثم إنه خصص لي رأسًا واحدًا من الضأن عند نهاية الحول، إلى جانب الأكل والمبيت ب "أسْنْسُو". ثم إنه يعاملني كواحد من أسرته.

إنها بالتأكيد ظروف مجحفة، ومعاملة غير عادلة للطفل الراعي، من أجل منفعة شخصية كبيرة، وقيمة مضافة عالية يجنيها مالك القطيع، مقابل فتات لا يسمن ولا يغني من مخمصة. إنها شروط غير متكافئة لا يمكنها أن تمنع حدوث الاستغلال لانه غير متفق عليها طواعية بين الطرفين. ثم إن غياب التساوي بين إنتاجية الراعي وأجره يؤدي بالضرورة إلى الاستعباد.

يسأل مومَوح الراعي عن سنه، فيجيب الطفل:

- سني في الحقيقة من سنك، لكنني قررت أن أبقى كما أنا، رفضت أن أكبر حتى تتحقق أمنيتي.

يرد مومَوح سائلًا:

- وكيف تعرف سني؟ وماذا كانت أمنيتك؟

يجيب الراعي:

- يكفيني النظر إليك لأقدر سنك، وأقارنها بسني التي أعرفها جيدًا، أما عن أمنيتي، فلا يهم... لقد تحققت ولله الحمد.

اِستنفر مومو ح كل ذكائه حتى يستوعب الوضع، راع غريب الأطوار، راقي الحديث، يقول كلامًا شديد الغرابة، لكنه يبدو منطقيًا.

يدقق فتى تاحفورت النظر في قسمات وجه الطفل الذي عالجه بمفاجأة أخرى حين قال يسأل موموح:

- قل لي يا سيدي، ألم يسبق لنا أن التقينا من قبل؟ إحساسي لا يخطئ، أشعر وكأنني أعرفك منذ زمن طويل...

رد موموح متعجبًا:

-لا يا عزيزي، أنا متأكد، لم يسبق لي أن التقيت بك. كيف لذلك أن يحصل وسني ليس من سنك، ثم إنني غادرت تاحفورت منذ عقود.

قال الراعي:

- إن صوتك ليس غريبًا عني، لقد سمعته من قبل، لكني لا أتذكر المناسبة. أما طفولتي الظاهرة فهي بسبب قرار استصدرته من نفسي، كما فعل "حنظلة"، رفضت أن أكبر حتى ألقى رفيق طفولتي.

تدخل "سِيدي عصام" قائلًا:

- أمي تقول إن ضيفنا يشبه كثيرًا موموح الراعي.

سأل الراعي موموح:

- هل توجد بهاتفك صور لك وأنت طفل قبل أن تركب الحافلة الملعونة؟ أرني صورتك الأولى إن كنت تتوفر عليها.

- ما يدريك بركوبي الحافلة؟ يرد مومود.
نظر فتى تاحفورت إلى وجه هاتفه، فانزعج حين لاحظ أن الشحنة الكهربائية للبطارية تكاد تموت، بالكاد يستطيع بما تبقى منها أن يبحث عن صورته الأولى ليريها للراعي.

ظهرت صورة مومود الأولى على شاشة هاتفه، أخرج الراعي صورته الأولى من جيبه، فتفاجأ الجميع بكون الصورتين صورة واحدة لنفس الشخص.
يصيح أبناء "سيدي امْحَنْد" صيحة مشتركة واحدة: يا، إنهما نفس الصورة!

اِنزعج مومود من إعلان هاتفه يخبره بأن شحنة البطارية قد استُهلكت بالكامل، ففاجئه الراعي مرة أخرى وهو ينظر إلى صورة مومود على لوحة الهاتف بقوله:
- كأنني أرى وجهي في المرآة، لا تهتم ببطارية هاتفك، المشاغب لن يهاتفك بعد الآن، إنه بكل بساطة يجلس أمامك، إنه أنا.
أنا مومود، الطفل الذي كنتَه، وخنتَه، فتركتَه. أنا راعي الغنم، فهل تعرّفت على طفولتك أم ليس بعد؟ أما أنا، فقد حققت أمنيتي بلقائك.
وزاد قائلًا:
- ذهبت وتركتني... لكن، حسنًا فعلت. فأنا لم أكن لأركب حافلة حمّادي، ولأذهب إلى المدينة. أنا أرفض العيش بها... لقد تأكد لي من خلال ما حكاه الذين زاروها أن لا شيء بها قد يثير اهتمامي، هي فقط تزوير لطبيعة الأشياء، أهلها مخطئون لأنهم يتصرفون كأن الله خلقهم عبثًا.

أما أنت يا مومومح، فلا تبتئس يا توأم روحي. قد تنقرض تاحفورت يومًا، لكن "يْمَّا تْشْفَا" ستخرج في جميع الأحوال من تحت ستائر خيمتها القديمة، لتعلن للعالم كم تستلذ سماع كذبهم بخصوص اهتمامهم بالعالم القروي، وهي التي تعرف الحقيقة كلها.

قال موموح الذي بدا متأثرًا:

- بغض النظر عن الحقيقة التي تعرفها "يْمَّا تْشْفَا"، وعن اكتفاء البعض بالاستمتاع بظلال "أرزة العفو"، فإن غياب نموذج يضمن الانتقال من النمط السائد إلى أنماط جديدة، ومتنوعة هو من دواعي ابتئاسي.

نظر الراعي طويلًا إلى موموح، ثم قال:

- اِرجع يا موموح إلى زحامك هناك، لعلك تستطيع أن تبدد عتمة الظلام من حول أهلك، فما أنت أقل طموحًا من بقرة أُمّك التي كانت تستهويها مرابيع "بُوفْروخْ" ومراتعها، فاختارت أن تغير المكان كل صباح. يحقق الانتقال من مكان إلى مكان حياة أحسن، وبيئة أكثر تطورًا. لا تسألني كيف تأكدت من ذلك، لقد تعلمته من الانتقال بالقطيع بين أخاديد بُويْبْلان. يقولون كذلك، إن بعض الفضاءات هي نقط جذب توفر خدمات جيدة وفرص أفضل، كما هي بعض المراتع بالنسبة للأغنام.

أتذكر يا موموح هروبك من خوفك وأنت راجع من "بوفروخ" وقد أوصلت البقرة إلى مرعاها؟ أهي بقرة أهلنا أشجع منك حين يسعدها أن تبقى هناك لوحدها لترتع وترقص على نغمات الصمت المُخيف؟ هي البقرة كذلك، لا تعرف الخوف، لأنها لا تعرف شيئًا اسمه "تْرْكُو". فهل سبق لك أن التقيت هذه الغولة التي تبلع الأطفال؟

"لم تكن "تْرْكْو" سوى مغارة في خيال أهلنا، ديدبانها "مْجٌّ غْيُولْ" يأوي إليها المحال حين يغيب الحذق عن فطنة أهلنا، فاعتمدوا التخويف ليصنعوا منك رجلًا".

"فهمت يا عزيزي، بعد فوات الأوان، كيف أُصيبت قريتنا بانسداد الأفق من شدة الضباب من حولها. ربما كان الضوء موجودًا في كل مكان، لكن الكاشف منه هو بالتّأكيد حيث هاجر عقلك ليستنير."

"إن كان شيء من جدّك ما زال يسكنك، فتحرّر من شرنقتك وطر مع الفراشات ولا تنظر إلى الوراء، أو إن شئت أدر وجهك إلى الخلف والق تحيّة الوداع ثم عد من حيث أتيت".

"دع موموح ينتصر على موموح، واخرج من جلباب جدّك، وعد إلى رحاب الزحام حيث يسكن التسامح والتلاقح وتُختبَر المحبة.
لا تبتئس... سيُذكّرك سواد بَراجِم أصابعك بحصتك اليومية من يحموم ورشة حدادة أهلك."

"الطفل موموح" الراعي صار يتحدث كالكبار:
- حياة القرى بسيطة، ترتكز على التلقائية، والاهتمام باليوم دون إتعاب العقل بالتفكير في الغد. هي حياة لا أراها تستلزم نموذجًا معينًا يتطلب بالضرورة آليات وموارد للتدبير يستعصي إيجادها وتوفيرها. لقد تعلمت كثيرًا من مراقبتي لما كان يجري بتاحفورت منذ قدوم المدرسة، وواكبت الإضاءات الأولى التي أشرقت على الدشرة مع استقدام بذور الثورة الثقافية. فهمت أشياء كثيرة من خلال مجالستي لأهل الحل والعقد بالقرية، وتأكدت من حقيقة عزمهم على ركوب التغيير.

يواصل الراعي مخاطبة موموح، مؤكدًا أنه إلى جانب كل ذلك، وعى بأن أهله بتاحفورت، على الرغم من صفاء نيتهم، يفتقدون إلى القدرة على التغيير، لأن السواد الأعظم المناصر للانتقال والنهوض لم يكن يتوفر على الحد الأدنى من المؤهلات.

ثم إن عملية التحول من الواقع الذي كان وما يزال سائدًا بتاحفورت إلى واقع آخر، لم تكن أساليبها معروفة ولا أهدافها معلومة.

يتدخل موموح موضحًا:

- العملية التي ذكرتها يا عزيزي، هي النموذج الذي عرضته على رماة قرية "تاوْرطَا".

يرد الراعي بصيغة المتيقن:

- من فضلك أنصت إلي، إصرارك لا ينفع. آسف يا عزيزي أن أفصح لك عن صحيح ما أرى... ستنقرض تاحفورت.

يساهم "سيدي امْحنْدْ" في الحوار، مشيرًا إلى أن الطفل الراعي مصيب فيما ذهب إليه بخصوص انطفاء جمرة تاحفورت. لكنه يرى أن أسباب ذلك راجع إلى ما سُمّي بالثورة الثقافية التي قادتها قرية تاحفورت، وهاجمت "الأشراف"، وأغضبتهم، فذهب الله بنورها، وستنقرض حتمًا عقابًا لها على موقفها من العرق النبيل.

يضحك موموح مقهقهًا دون أن يقصد، ويقول:

- أعتذر منك سيدي، (كْلَامْكْ هو لْكْبِير)، لكن، بغض النظر عما عرفته قرى "الأشراف" من وضع يطغى عليه وما يزال التخلف والاندحار، وهي حالة تفوق بكثير ما أصاب تاحفورت، فإنني لا أشاطرك الرأي. نحن مواطنون متساوون، لا فرق بيننا إلا بالتقوى.

أما الذين يدّعون انتماءهم إلى سلالات "الأشراف"، فيفعلون ذلك استغلالًا لجهل الناس، ولقضاء مآربهم الخاصة فقط.

أشار "سيدي امْحنْدْ"، في محاولة لمداراة غضب ظاهر، إلى أن المفيد والأنفع هو إقامة الصلاة، فقد حل وقتها منذ نصف ساعة.

أدّى الجميع صلاة العِشاء، وتناولوا وجبة العَشاء.

قام مومو ح، آوى إليه طفولته... ونام.

22

في الغد، وصل مومو ح بعد لأي إلى تاحفورت، سأل عن صديقه "عصُّو"، أكدت له زوجته أنه مسافر إلى مدينة تاهلة لشراء قطعة أرضية لبناء سكن لعائلته هناك، ولن يعود إلا في الأسبوع الموالي، وقالت:

- أوصاني أن أعطيك مفاتيح سيارتك وأن أقول لك "تْنْفْعَكْ الزِّيارة".

- من فضلك أبلغيه عند عودته أن موموح يقرأه السلام، ويقول له: إن المكان والزمان لا يلتقيان. كذلك خاطب موموح زوجة صديقه "عصُّو".

بعد مراقبة روتينية يركب فتى تاحفورت سيارته، وينطلق.

وصل موموح إلى "الْبِيرُو"، فسأل عن النادل يوسف، أكد له صاحب المقهى أنه لم يعد يشتغل لديه، لقد انتقل إلى مدينة الرباط بعد نجاحه في إحدى مباريات الوظيفة العمومية. مبتسمًا يقول موموح مودعًا:

- شكرًا لك سيدي.

رد صاحب المقهى:

- لا شكر على واجب، لا تبتئس بخصوص يوسف، سيكون بخير، لقد انتهز الفرصة لينجو بنفسه.

حين وقف مومو‌ح بسيارته أمام الفندق الذي سيقضي به ليلته، تعجب حين لاحظ أنه لم يعد يتذكر كيف قطع الطريق بين "الْبِيرُو" ومدينة "تيزي".

جلس مومو‌ح ببهو الفندق ب "تيزي" أمام تلفاز تنقل إحدى قنواته مباراة في كرة القدم. اِنتبه خلال الفترة ما بين الشوطين إلى مقدمة الأخبار الإِستثنائية تقرأ بلاغًا لمصلحة أحوال الطقس، بنشرة إنذارية حول اضطرابات جوية مصحوبة ببرد قارس، وعاصفة ثلجية في اليومين القادمين، تهم عدة مناطق جبلية، من بينها سلسلة جبال بُويْبْلانْ .

مشوش الذهن قضى فتى تاحفورت ليلته بالفندق الذي غادره في الصباح الباكر.

وصل مومو‌ح إلى حيث سكناه بعد بضع ساعات من السياقة .

اِستيقظ في اليوم الموالي بعد أن خلد إلى النوم والراحة لفترة طويلة .

تابع في المساء نشرة الأخبار ببيته، فأصيب مومو‌ح بصدمة قوية حين سمع مقدمة الأخبار تتلو بلاغًا رسميًا، حول اختفاء أحد الرعاة بأعالي بُويْبْلان، منذ خروجه للبحث عن غنمه قبل يومين. الراعي حاصرته الثلوج بالمرتفعات ولم يعثر له على أثر لحدود الساعة.

كما أكد البلاغ أن عمليات البحث لإنقاذ الراعي ما تزال جارية، والجهود مستمرة على الرغم من وعورة التضاريس وقساوة الظروف المناخية .

منذ سماعه للنشرة الإنذارية بفندق "تيزي"، وموموح يفكر في الطفل الراعي الذي تركه بخيمة "سِيدِي امْحَنْد."

اِرتفعت درجة التوتر عند موموح، تملّكه الشعور بالضيق، وأحس بالقلق الشديد.

لقد سكت المشاغب الذي كان يخبر موموح بكل شيء، ما عاد يهاتفه منذ أن حقق أمنيته بلقائه. تمنى موموح لو يرن هاتفه، لكن هيهات.

في النشرة الزوالية لليوم الموالي... وفي الوقت الذي كان الجميع ينتظر الاطلاع على تفاصيل عملية الإنقاذ، تحصن الإعلام بالصمت والغموض، لا جديد تحمله مقدمة الأخبار.

في اليوم السادس، تم الإعلان عن الانتهاء من عمليات البحث بالعثور على موموح الطفل الراعي جثة هامدة يحفها البياض إلى جوار قطيع أغنامه الذي نفق تحت الثلوج الكثيفة.

في مشهد مؤثر، عثر على الطفل الراعي موموح متجمدًا ومطمورًا تحت الثلج، بعد أن رفض الحياة بدون شياهه. اِختار المسكين أن يعانق دفء الصخرة حين أعياه البحث عن غنمه، فلم يجدها.

هو الموت الأبيض يستأسد كما العادة على قمم بُويْبْلان، في إحدى أكثر المناطق قسوة وفقرًا على خارطة الوطن.

كذلك تتابعت الحالات منذ العهد الغابر ل "تامغارت"، التي قضت تحت الثلوج الكثيفة، إلى جانب قطيعها الذي نفقت كل عناصره، وتجمد الجميع، حتى استحالوا من شدة البرد صخورا.

قبل فاجعة الراعي، كان موموح يظن أن الموت الأبيض يحضر في الأسطورة فحسب.

يحكي شاهد عيان، كان ضمن فرق الإنقاذ التي شاركت في البحث عن الراعي، في شهادة أدلى بها لإحدى وكالات الأنباء، بدأت الحكاية حين اسودّت السماء فجأة فوق جبل بُويْبْلان، معلنة عن عاصفة ثلجية ستضرب المنطقة. عاصفة صعب التنبؤ بقساوتها، كانت مصحوبة ببرد قارس ورياح قوية.

قبل العاصفة، نفد زاد الطفل الراعي موموح بعد أن قضى الليل بالخلاء مع القطيع. اِستودع الغنمَ كلبَه "جرمون"، والتحق بالخيمة لغرض التموين بالزاد، ثم العودة إلى حيث ترك القطيع. لكنه تفاجأ بحلول العاصفة فعاد مسرعًا للاِطمئنان على الغنم، فوقعت الفاجعة.

كما أكد الحكاية مالك القطيع الذي كان يشتغل عنده الفقيد على شاشة إحدى القنوات، حين ظهر منكسرًا يعبر عن حزنه الشديد على نفوق قطيعه تحت الثلوج.

هل تدخلت فرق الإنقاذ في الوقت المناسب؟ كل ما أكده شهود عيان شاركوا في عملية البحث، أن الراعي قضى وقتًا طويلًا يبحث عن الأغنام التي فرقتها قوة العاصفة المحملة بالثلوج الكثيفة، قبل أن يتعب ويلجأ إلى الاحتماء بصخرة حيث قبرته الثلوج، وأسلم الروح.

مات الطفل مومِوح الراعي عند الصخرة وحيدًا، وقد طمره البياض بعد أن عانى من الجوع والبرد لمد ستة أيام كاملة، وبعد أن قاومت روحه برودة العالم الذي لم يتحرك لإنقاذه في الوقت المناسب.

وصلت النجدة بعد فوات الأوان، لتتكفل فقط بإخبارنا ومدنا بصور موقع الفاجعة.

بكى مومِوح بحرقة... صار يحدث نفسه مخاطبًا الفقيد:

- هل كنت تستطيع أيها المصلوب أن تقتلع مسامير الفقر من يديك وقد عم السكوت عن وجود فضاء آخر غير نافع؟

لا تبتئس يا صديقي الراعي، إنها ضريبة رفض تغيير المكان، ثم إن النسق الذي فُرض عليك أن تعيش فيه لم يستطع تغيير وتنويع عرضه الذي انتهت صلاحيته.

قد أتفق معك فيما ذهبت إليه بخصوص حتمية انقراض تاحفورت، لكن في حالة واحدة... إذا لم يتغير النسق.

لا تحزن يا صديقي، يا من قررت أن تبقى إنسانًا، ولم تحاول أن تكون أكثر من ذلك.

لا تندم على استقرارك بالمكان، لو أنك هاجرت لاكتشفت حجم الخيانة التي اقترفها العالم بخذلانك.

لو ركبتَ حافلة حمّادي، لتأكدتَ أن أهل قرى الزحام حيث حملتْني ليسوا خير ناس أُخرِجوا للعالم.

المهم أيها الطفل الراعي الذي رفضت أن تكبر قبل أن تلقاني، أنك، قبل موتك، علمت أن الذي كانَك في صغره قد هرم.

نعم، هرمتُ واكتشفت أن البندورة ذات الحمرة الساحرة التي اقتسمتُها مع الديك الساغب بـِ "تابْجِيرتْ" بتاحفورت هي أَرفع جودة من الخضر المصنعة التي توفرها "المساحات الكبرى" وعربات الجائلين، وأحلى من ثمرات الأشجار التي استنبتتها الخلفيات الرديئة التي تبيعها دكاكين الوهم للبسطاء.

عمَّرتُ... فاكتشفت أن تصميم النسق بالقرية لم يستدع أبدًا أهدافًا تروم المصلحة العامة. وتيقنت أنه إن ظل الأمر كذلك، فإن النسق السائد لن ينتج شيئًا، لأنه لا يرتكز على التفكير والابتكار وطرح السؤال.

شِخْتُ... وفهمت أن ركوب حافلة حمّادي قد يتيح التدرج في النسق الحالي، فتاحفورت ليست هي "البِيرُو"، وهما معًا ليسا "تيزي". لكن الانتقال من نسق إلى آخر لن يكون متاحًا بهيمنة "سيدي امْحنْدْ" على "لَلَّا ميمونة"، وبرفض التخلي عن العادات الموروثة.

هرمتُ أيها الراعي، ولم أستطع فك شفرات الازدواجية، لأنني لم أستوعب جيّدًا طبيعة الممرّ الذي كان على حافلة حمّادي أن تسلكه، حتى تنقلني من نسق إلى نسق أرقى. لكن عقلي، يا صديقي، أدرك كيف، ولماذا اتّهموا قساوة الثلج، وكيف جاؤوا على جلبابك ببياض كذب.

وداعًا أيها الراعي، سأخبر الله بكل شيء...

قالت الجدّة:

- قل لي يا ولدي، كيف كانت مخرجات صعودك إلى قمة "تايْلْمَامْتْ" لقطف النجوم؟ كم نجمة قطفت؟ ثم قل لي: ما قصة الحديد الذي ركبته عوض بغلة جدّك، ورحيلك إلى جهة مجهولة.

تلكّأ مومّوح في الكلام محاولًا الإجابة على أسئلة جدّته، فحكى لها بتأثر شديد ما آلت إليه أمور تاحفورت بعد أن غيّب الموت أهل الحل والعقد، وعن دواعي الإنقراض الذي يهدد القرية.

جلس مومّوح يقص على "تامغارت"، مما هو مدوّن بصحائف جدّ يوسف من أحداث وتبعات العهد الذي ولّى وتأثير مخلّفاته على المنطقة.

سكت مومّوح... فكر لبضع ثوان. حسبته جدّته قد اِنتهى من إفادته، فقالت:

- وماذا عن الصعود إلى قمة "تايْلْمامْتْ" لقطف النجوم؟

بدا واضحًا أن مومّوح محرج بخصوص الموضوع. كيف له أن يبوح لجدّته بتأثير أسطورتها على قرارات عدة أجيال فيما يتعلق بمهنة الصعود؟ وهل يمتلك الجرأة ليفاتحها في اِكتفائه بعدّ النجوم عوض محاولة الصعود إلى القمة لقطفها، إكتفاء بأمر من القبيلة التي أساءت فهم جرأة "تامغارتْ" عندما قررت المغامرة بالصعود؟

كيف له أن يشرح لها مغامرته بركوبه حافلة حمّادي، ومغادرة تاحفورت هاربًا إلى جهة لا تعلم الجدّة بوجودها؟

سمع مومّوح صوت جدته تبتعد ممسكة بيد زوجها الكفيف، لم يعد يراها، اِنصرفت قائلة:

- يا بني، تذكّر جدّتك دائمًا، إنك إن فعلت لن تنسى المكان. ثم إن الأشياء القيّمة توجد على القمّة، لكن قيمتها يغيرها الزمان. إن توخِّي قطف النجوم يستلزم إعمال العقل لتنويع أساليب الصعود.

محمد الصفا

الثمن : 70 درهمًا

AUREA LUMIERES PRINTING